

مكتبة أبو العيص الإلكترونية

مُونْتَرَاتُ المَجْدُومَاتِ





النسخة كاملة

المؤلف في سلسلة ماريان

- الصبايا
- رافة بالنساء
- شيطان الخير
- المجذومات
- الملكة الميتة

قيد الاعداد

- سيد سانتياغو
- بور رويال

حقوق لوحة الغلاف الاصلية محفوظة
لنشرورات عويدات بموجب عقد مع دار غاليمار

مابين

رَوَائِعِ الْأَدَبِ وَالْفِكْرِ مَنْقُولَةً إِلَى الْعَسَةِ

Editions Gallimard

5, rue Sébastien-Bottin
75341 Paris Cedex 07
Téléphone 544-39-19
Télex GALLIM 204121 F
Adresse télégraphique :
ENEREFENE Paris 044
Société anonyme au capital
de 8 737 300 F
572206753 B R.C. Paris

LES EDITIONS GALLIMARD

ont cédé par contrat en date du
4 Novembre 1982 aux EDITIONS OUEIDAT
à Beyrouth, pour la collection "Marianne"
les droits exclusifs de traduction,
publication et diffusion en langue arabe
dans le monde entier de l'ouvrage

Henry de Montherlant : LES LEPREUSES
quatrième volume d'une série de quatre
intitulée LES JEUNES FILLES

© منشورات عويدات - بيروت

جميع حقوق الطبع العربية في العالم وفي البلدان العربية
خاصة محفوظة لدار منشورات عويدات - بيروت ، بموجب
اتفاق خاص مع دار غاليمار Gallimard - باريس .

الطبعة الأولى ١٩٨٧

مُونْتَرَلَانْ

المجذومات

بشَرْحَةٍ وَتَعْلِيْقٍ
جُورْجِ مَصْرُوعَةٍ

عَهْدَات

هذا الكتاب هو الحلقة الرابعة والأخيرة من سلسلة عنونها «الصبايا»
ويجب أن تقرأ هذه السلسلة على الترتيب التالي:

- ١- الصبايا .
- ٢- رافة بالنساء
- ٣- شيطان الخير
- ٤- المجدومات

الجزء الاول

لو لم يكن الاموات في العالم الآخر منصرفين كلياً الى تدبير المكائد في تنافسهم على مراكز الصدارة ، اسوةً بالارواح السواوية وبالعروش التي تتدافع لتصبح سلطنات ، لكان السيد دنديو تحرّق غيظاً في تلك الفترة من تشرين الاول ١٩٢٧ . فمذ ان عادت السيدة دنديو وابنتها من إيترا آلتنا على نفسيهما انت تغيراً كل شيء في البيت ، وان تعمل كل ما يناقض ذوق الفقيد . وتوجه اهتمامها خصوصاً الى حجرة نومه والى مكتبه ، فقررت ان تجعلهما جديدين بكل ما فيها . وفي هذا المكتب بالذات فاجأ السيد دنديو ذات يوم امرأته تمدُّ يدها الى بعض الاشياء ، فقال لها يجفاه : « اني لا اسمح بدخولك الى هنا إلا على سبيل التساهل ، فلا تسمي شيئاً » . وبعد انقضاء ثلاثة اشهر على زواجها لم تكن قد فتحت بعد حقائبها الخاصة ، ظناً منها انها ستعود الى ذوبها ، لان الحياة مع زوجها لا تطاق . ويوم اذعنت لما كتبه لها القدر لم تخلط ثيابها بثياب زوجها ، بل اعتبرتها شيئاً اضافياً في البيت ؛ اما اليوم فقد جاء دورها ، واصبحت اغراض السيد دنديو غريبة عن البيت ، لا اغراضها هي .

وامنعت في التطهير حتى احترقت ملفات الفقيد الرياضية ، وصوره في مواقفه البطولية ، مع انها كانت تحب الرياضة وتمتدح بفضلها ، لاقتناعها بان التمارين الجسدية قصّرت حياة السيد دنديو عشر سنوات على الأقل . وانتزعت عن الجدران ما كان يكسوها من الاوراق الرمادية اللون

الدالة على الرصانة ، واستعاضت عنها بأوراق وردية زاهية عليها صور عديدة مئالة لئندليبين يتناجيان . ولأن السيد دنديو كان لامسيحياً ، ازدانت بلاطة الموقد بتمثال للعدراء مريم والى جانبه لوحة ملونة رسمت عليها صورة ازهار المستحية لإشاعة شيء من التضارة في ذلك الجو المثلث بالتشرف ، والى جانب هذه اللوحة صورة بالقلم الفحمي للملك شازل رسمتها الآسة دنديو وهي في حداثتها الاولى ، و « صورة جميلة » انتزعت من مجلة « إلتوسترasiun » ووضعت في اطار . فيا للعدوية ، ويا للروعة ! ويعد ، فقد كانت الى جانب هذه التحف صورة امرأة في ثوب فضفاض من الموسلين موقعة بامضاء « دومرغ » ، ناهيك بكيات من القلوب المقدسة ، ودروب الصليب ، وبطاقات حفلات تناول القربان المقدس للمرة الاولى . فقد كان يسوع المسيح في كل مكان يتقبل تكريم تينك المرأتين المستعدتين للاقدام على الزواج المدني ، وعلى الطلاق والاجهاض المقتل . ولا حاجة الى التحدث عن الاشياء الاخرى العديدة المتفاوتة الدرجات في دلالتها على البشاعة وقلة الذوق ، الموزعة في كل مكان ، واكثرها هدايا ، فقد بلغت شخصية اهل هذا البيت حداً من الهزال جعلهم يحتفظون في مكان بارز بكل ما تقدم لهم من الاشياء .

هاك ، مثلاً ، مؤلفات « الروائي الكاثوليكي الكبير »^١ - وهذا تعبير تقليدي للدلالة على ما في الادب الفرنسي من السخف والمهازل التي يتوارثها الناس جيلاً بعد جيل ؛ وهاك مؤلفات « مؤرخ نابليون »^٢ ؛

-
- ١ - لعله فرنسوا مورياك ، وهو كاتب فرنسي ما يزال حياً . كاثوليكي مؤمن . عضو في الاكاديمية الفرنسية . نال جائزة نوبل في الآداب . اشهر مؤلفاته : « القبة للمجنونين » ، و « جنيتريكس » ، و « صحراء الحب » ، و « عقدة الافاعي » . وله مسرحيتان هما : « الذين أسهب جهنم » ، و « اسمودي » .
- ٢ - فريدريك ماسون (١٨٤٧ - ١٩٢٣) مؤرخ فرنسي ، وضع تاريخ نابليون بونابرت وامرته .

وجميع هذه المؤلفات مذهبية وفخمة المظهر . وقد دعي « الروائي الكاثوليكي الكبير » يوماً لزيارة المغرب ، فقال انه لا يجد في نفسه اقل رغبة في القيام بهذه الرحلة ، غير انه لبى الدعوة لأن الذين دعوه تبرعوا له بنفقات السفر .

ان القيام بعمل غير مرغوب فيه لأنه مجاني ، واستعمال شيء ينافي الذوق لانه هدية لم يُدفع ثمنها ، هما الدليل الساطع على هزال شخصية صاحبها ، خصوصاً اذا كان من اصحاب اليسر الذين لا تعظم الحاجة .

عادت سولانج دندير من جنوى وفي خاصرتها حربة الحية . توقعت ان تكون رحلتها الى هذه المدينة واقامتها فيها مناسبة حاسمة . فما الذي جنته من هذه المحاولة ؟ لا شيء .

واصبح كوستال بعيد المثال ، فالى متى ؟

إن من يصاب بصدمة قاسية ، ويحتاج الى التفكير بألف مشكلة مهمة ومستعجلة ، يحاول إلهاء نفسه بما يتيسر له من الاعمال اليدوية ، فيخيط ازراراً ، او يسح احذية كيلا يفكّر . وهكذا راحت سولانج ترتب كل ما يقع تحت يدها في بيتها ، وهي مرتدية ثوباً عتيقاً لانها حياته . ولبست قفازين لتحافظ على طراوة يديها ، فبدت كأنها لا تريد ان تمس شيئاً مما كانت يخص اباهما . وانصرفت الى اعمالها بجمارة ومثابرة ، وبرعت في تعقيدها تعقيداً مدهشاً على الطريقة المخدرة التي يخطتها نبوغ حواء . وعملاً يوحى هذا النبوغ كانت دقيقة في عملها ومرتدة وفوضوية معاً .

وفضلاً عما كانت تجد من التسلية في هذا الترتيب ، كانت تشعر بتلك المتعة التي يغنمها من يخرّب وهو يرتب ، ويرى الفراغ يحتل مكان الاشياء . كانت متعة من الصنف الفكري ، على ما يبدو . واصبحت رغبته في الترتيب نوعاً من الهيجان ، بل اكثر بكثير ،

كانها تقول في نفسها : « فلنشن هجوماً على هذه الزاوية من البيت ا »
ثم تزيل جميع الاشياء القديمة المتراكمة في احد القطاعات بمحاسة قائد
عسكري يقضي على أحد او كآر مقاومة العدو .

وفي المساء ، كانت تعتمد الى الهدوء ، وقد احاطت بعينها دائرتان
زرقاوان من شدة الارهاق ، كأنها سهرت طيلة الليل . إلا انها كانت
تشعر بنوع من راحة الضمير قلما يشعر به من يقوم بعمل خيري ،
او من يقوم بواجب عسير وخطير .

ان الرغبة في الترتيب علامة طيبة بالنسبة الى بعض النساء ، فهي
قتل على ان صاحبته قد شفيت من الازمة التي كانت تعانيتها وبدأت
تُحِبُّ بيتها من جديد ؛ اما بالنسبة الى نساء اخريات فتدل هذه الرغبة
على ان صاحبته تحاول ارهاق نفسها للفرار مما تعاني .

وكانت سولانج تُحسُّ اليوم الذي يصبح فيه كل شيء مرتباً في بيتها .
ولكي تعتمد هذا اليوم جعلت تغطِّ اعمالها ، وتبتكر روحات ورجعات
الى هنا والى هناك ، وتخرج من المنزل لتعود اليه ، ثم لتخرج من جديد .
إلا ان امكاناتها المادية كانت قد خفَّت بالنسبة الى ما كانت عليه قبل
حوادث آب ، فبدت كأن شيئاً فيها قد انقبض واخذ يتقلَّص . لكن
طبيعتها النباتية كانت تساعدها على النوم طويلاً ، فغدت تأوي الى فراشها
وتطفئ النور في الساعة التاسعة مساءً .

وبنتيجة هذا النشاط ، اخذت الفسحة المكانية التي تشغلها ذكريات
السيد دنديو في بيته تضيق وتقلَّص يوماً بعد يوم ، حتى اصبح كل ما
نسيجه وبنائه واحاط به نفسه طوال ستين عاماً لا يزيد على حجم
صندوق صغير أقصي الى غرفة المجلات في العلية . وهكذا لم يبقَ من
الجسد المحروق سوى حفنة رماد . وقد صدق من قال : اذا كان الميت
يسطو على الحي ، فالحي يرد للميت الصاع صاعين .

وكانت سولانج تسام بكثير من عدم الانتباه وقليل من الوعي في

تلك الاعمال الموجّهة ضد ابها . ولم يغرب عن بالها انها كانت تزيد
أثره المعنوي بقدر ما تحو من آثاره المادية . فالمرأة تودّ ان تحط من
قدر الرجل ميتاً كما حطت من قدره وهو حي . فاذا كان الزوج في
حياته متحرراً من الاوهام الدينية ، وقفت زوجته او ابنته على قبره ،
وبذلت قصارى جهدها لتقنع الناس بانه كان « مسيحياً من غير ان
يدري » .

لما تسلمت سولانج رسالة كوستال الاولى التي يتذمّر فيها من رداة
الحالة الجلوية في جنوى ، ويتحدث عن وحشة انفراده بعبارات مؤثّرة ،
من غير ان يصرّح بان غيابها عنه ترك فراغاً في حياته ، ومن غير ان
يثير ذكريات إقامتها معه بشيء من الحنين ، خامرها شعور غريب لم
تكن قد أحست بمثله من قبل ، فقد اغتبطت بانه لا ينعم بمقدار كبير من
السعادة . وكانت في اغتباطها بعيدة جداً عن ان يخطر في بالها ان الحالة
الجلوية في جنوى على احسن ما يرام ، وان كوستال يتمتع بسعادة ملك
بين عمله ومغامراته مع النساء . واذا كان قد اعتمد اسلوباً عاطفياً مؤثراً
في كتابته اليها ، فلأنه لم يشأ ان تحسبه هائناً ، لعلمه بانها غير هائنة .
فعل ذلك بدافع الشفقة عليها ، ثم لأنه كان احياناً يقدم قرابين للأهنة
تفادياً لشر الحسد اسوةً بالأثنيين القدامى .

اجابته سولانج بعبارات تعزية فيها ظلل من العطف ، وحدته
عن « طعم الرماد في الفم » . فالشفقة التي يشعر بها الرجال نحو
النساء تجرّ دائماً وراءها ذيلاً هو الشفقة التي تريد النساء ان يشمرن
بها نحو الرجال .

ضحك كوستال ساخراً لما قرأ ما جاء في رسالة سولانج اليه من الاقوال
المبتذلة التي تجترها المراهقات ، لانه لم يكن يحس في فمه بطعم الرماد ،
بل بطعم لعاب الأنسة بيغليلاكا .

اصبح تفكيرها به مشوباً بشيء من المرارة . خمدت حميتها ، وفقد

عطاؤها ما كان يتحلى به من العفوية والنزاهة . وقد عبرت عن هذا التبدل بأسلوبها البدائي فقالت : « لا اريد ان أثق بالمظاهر » . وتمعدت التأخر يومين للرد على رسالته الاخيرة كي تبدو غير مستعجلة ... وربما كانت قد فقدت شيئاً من صفاتها المعنوي المعهود لاقامتها مع امها ، فالرجل ، والمرأة ، والولد يفسدون جميعاً اذا اقتصرت معاشرتهم على النساء .

هنا توقف المؤلف عن الكتابة ... فالامعان في وصف التافهين يورث الحزن والسأم . ولما كان موريس باريس يتضايق من احدى بطلات رواياته كان يصيح بها : « والآن ، ايها السيدة بودوس ، فالى المطبخ ! » ولو كانت المرأتان دنديو سائرتين في اتجاه تفاهة واحدة لهان الأمر ، ولأمكن رسمها في صورة كاريكاتورية . إلا ان الكاريكاتور نفسه يعجز عن تصويرها . ولا مشاحة في ان الصورة الشمسية افضل من الكاريكاتور . وغالباً ما كان كوستال يفكر بان الفتاة موضوع مؤسف وحقير بالنسبة الى الكاتب . ولا ريب في ان جسدها ووجهها ، اذا كانا جميلين ، يبلغان منتهى البهائم عندما تكون في مثل سن سولانج . لكن ما ادراك ما وراء هذا الجمال !... تأمل كم كان شكسبير يتعب ليُدخل النساء في مؤلفاته . فقد كانت يخلقهن خلقاً جديداً ، يخترعن ، يحدد نفسه في تخيلهن . أجل ، يجب على الكاتب ان يتخيل الفتاة ليجعل صورتها مقبولة في نتاجه الشعري . وهذا ما اعترف به بارون اعترافاً

١ - ولیم شکسپیر (١٥٦٤ - ١٦١٦) اعظم شاعر مسرحي في بريطانيا ، ومن جبايرة المؤلفين المسرحيين في العصور . اغترف موضوعاته من التاريخ والاساطير ، واجاد في خلط المآسي والمهازل بأسلوب عبقرى لا يبارى . اشهر تقييلياته : « روميرو وجوليات » ، « تاجر البندقية » ، « هملت » ، « روليوس قيصر » ، « عطيل » ، « الملك لير » ، « انطونيو وكيرباترا » ، « العاصفة » ، و « هنري الثامن » .

صريحاً^١ . ان بياتريس ، بطلة دانتي^٢ ، هي علم اللاهوت . والكاتب الذي لا يغيّر صورة الفتاة ولا يسبغ عليها شيئاً من روعة فنه يخفق في تصويرها . فقد اخفق موليار^٣ في تصوير بطلات تمثيلياته ، كما أخفق بلزاك^٤ في خلق ابطال رواياته ...

اما مؤلف هذا الكتاب فلم يشأ ان يحسّن صورة الانسة دنديو . فهل اخفق في تصويرها ؟ لقد ابرزها كما هي في حالتها الطبيعية . فاذا بعثت الضجر في نفس القارئ ، فيكون الكاتب قد صورها بامانة تامة ، لانها كانت مضجرة بطبيعتها .

في يوم احد من تشرين الثاني ، بينما كانت السيدة دنديو وابنتها

١ - « ما اضمرت قط للنساء إلا الاحتقار . ولم أكون رأبي فيهن بخفة ، بل بعد التجربة والاختبار . قصدت بؤلغاتي الى الاشادة بهن ، وطاب لخيالي ان يخلع عليهن وشاحاً من الجلال المثالي ، لما صورتهن كما هن ، بل كما يجب ان يكن . » (من تصريح ادلى به الشاعر الى مدرين) . - المؤلف .

٢ - دانتي ألبيناري (١٢٦٥ - ١٣٢١) شاعر ايطالي تغنى بحسناه تدعى بياتريس بورتيناري ، وصاحب « الكوميديا الالهية » التي تعتبر من اعظم الملاحم في العالم . ويضع مؤلف هذا الكتاب انه ما تغنى ببياتريس إلا لأنه اعتبر جمالها صورة لعلم اللاهوت .

٣ - مؤلف وممثل مسرحي فرنسي (١٦٢٢ - ١٦٧٣) نال حظوة كبيرة لدى الملك لويس الرابع عشر ، واشتهر بالتمثيلات الهزلية والانتقادية اللاذعة . يعتبر ابطال تمثيلياته نماذج في دقة الوصف وعمق التمييز عسّن خفايا النفس . اشهر مؤلفاته : « الميزانروب » ، و « تروف » ، و « النساء العالمات » ، و « مدرسة الأزواج » ، و « مدرسة الزوجات » ، و « دون جوان » .

٤ - هوفوري دي بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) روائي فرنسي قدير وخبص ، دقيق الملاحظة ، مرهف الشعور ، واسع الخيال . اشهر مؤلفاته : سلسلة « الكوميديا الالمانية » ، و « الكولونيل شابير » ، و « ارجيني غرانديه » ، و « طبيب الريف » ، و « زنبقة الرامي » .

تأهبان للذهاب الى قداس الساعة الحادية عشرة ، نظرت الام الى الابنة
بامعان وسألتها :

- لماذا تضعين ارجلك من البودرة على وجهك ؟

- لم اضع اكثر من المعتاد .

- بلى ، يا صغيرتي ، انظري الى وجهك في المرآة ، انك تبدين

كمهرّجي الحفلات البهلوانية .

فسحت سولانج البودرة بمحرمتها ، وظل وجهها كالحأ ، فتجهم وجه

السيدة دنديو .

وبعد بضعة ايام ، كانت سولانج جالسة ومسددة مرفقها الى الطاولة ،

فلاحظت ان ساعتها اليدوية انزلت على معصمها مسافة سنتيمترين او ثلاثة

سنتيمترات اكثر مما كانت تنزلق من قبل ، فادركت لماذا كانت تحس ،

منذ حين ، بان يديها تسبحان في قفازيها .

لم تقل شيئاً ، وخجلت خجلاً شديداً . غير ان السيدة دنديو ما لبثت

ان تبيّنت حالة ابنتها ، فوضعت قارورة من الحبوب المقوية على المائدة ،

فاصبح بها بيت دنديو اجمل مظهراً مما كان . فمن ابرز مظاهر الاناقة في

البيوت البورجوازية علبة الادوية والمستحضرات الطبية . والبورجوازيون

اناس يحتاجون الى طيبب كي يقول لهم ان يأكلوا أقلّ مما يأكلون ،

ويحتاجون الى طيبب ليفرض عليهم فترات يازمون فيها الصمت ،

ويلجأون الى استشارة الطيبب اذا تضخمت بطونهم ، ويستشيرون الطيبب

اذا عطس احد ابناءهم .

اما سولانج فاشترت حمرة ، وغيّرت تسريحة شعرها ، لانها كانت تبدو

في تسريحتها القديمة كأنها فتاة مراقة . ولم يكن هذا المظهر ليلام

ملاعها المتعبه كلامح عذراء تقادم عهدها . اما تسريحتها الجديدة فاسبغت

عليها مظهر امرأة شابة ، ومن حق المرأة الشابة ألا تكون في مثل نضارة

الفتيات العذارى .

وكانت تتسلم من كوستال ، كل اسبوع ، رسالتين مفعمتين بالعطف
والمودة ، فتسائل نفسها ، وهي المبتدئة في مذهب الشك : « أتراه غلصاً
في حبه ؟ » وكلما جلست لتجيب عن احدى هذه الرسائل واجهتها
مشكلة ، لانها كانت تعاني صعوبة كبرى في التعبير عن شعورها وهي في
ذروة حماسها الغرامية ، فكيف بها اذا خمدت هذه الحماسة ؟
كتبت اليه يوماً تقول : « أخذتَ قسماً كاملاً من شخصي ، وخلقت فيَّ
شخصاً جديداً احتل مركز السيطرة ، فاذا غاب هذا الشخص تركني في
فراغ رهيب ... »

كان هذا القول صحيحاً . غير انها احتفظت بالكثير من حرية
التفكير فراحت تختم بعض رسائلها بألوان من التفتن بالادب ، كقولها :
« ... اني أشبه بأمر يسافر ولدها ، فتبقى وحيدة في بيتها عندما يأتي
المساء » ؛ وكقولها ايضاً : « ان ارني المصنوع من القטיפه ينتظر ك ، وهو
ما يزال على حاله : عيناه زراً حذاء ، واحدى اذنيه متدلّية كأغصان
الصفصاف الباكي » .

هذا ، ولا ريب ، تعبير حسن ، إلا انها اضافت اليه قولها : « ضمنتُ
ارني بين ذراعي ، ثم ألقيته على مخدتي كما كنت افعل يوم كنت فتاة
حديثة السن ، وليس هذا اليوم ببعيد » . وكان هذا اختراعاً محضاً غايته ،
على ما يبدو ، الضرب على وتر العاطفة وتر الرغبة الجنسية في نفس
كوستال الذي كان سريع التأثر باخبار طفولتها وحدثاتها . فكل امرأة
تحاول لإيهام الناس انها طفلة حتى تبلغ الخمسين من العمر . وليس بين النساء
واحدة بالمائة لم تقتل لاحد الرجال مرةً واحدة على الأقل : « انت تعلم
اني ما ازال طفلة » .

لما تلقت سولانج رسالة كوستال الاولى من جنوى ، تأخرت عمداً
بالرد عليها ؛ اما الآن فانها ترجيء الكتابة اياماً عديدة ، لأن
اجوبتها اصبحت كلفةً صعبة عليها .

كانت الأنسة دنديو تنقض الرأي السائد القائل بان المرأة تزداد تعلقاً بالرجل الذي يعين بتعديبها ، وتنقض ايضاً الرأي القائل بان المرأة تطلب الى الرجل الذي تحبه ان يستسلم لها في الشؤون الصغيرة ، وان يقاومها في الشؤون الكبيرة . والحق يقال ان لكل امرئ شيئاً من القدرة على ان يحب ، ويبغض ، ويتألم ، ويحتمد ، وينتظر .

اطلقت سولانج في جنوى اطول حربة من حراب حبيها ، فاذا بهذا الحب يتراجع التراجع الجزري دون ان يشعر به احد .

فكيف تمكنت ، اذاً ، من متابعة التفكير بتحقيق مشروعها ؟ فلنحاول ان نفهم لماذا لم تعذل عن عزمها . لقد عاشت ، حتى الثالثة والعشرين من العمر ، ولم تشتت إلا قليلاً ، ولم يتسن لها ان تريد شيئاً ، فاذا بها الآن تريد الحصول على شيء ، كأن ارادتها التي لم تستعمل بمد قد تكتملت ، وشنت هجومها دفعة واحدة .

وفي هذه الاثناء كانت سولانج تقول في نفسها : آه ! يقولون اني عديمة الارادة . فسرى أصادقون هم ؟

وكان هذا العناد بمثابة تعويض ضخّم لها عن افتقارها الى الرغبة والاشتهاء . وقد وجهت عنادها الى السمي الحثيث لتتزوج بكوستال ، وتحملت في هذا السبيل انواعاً من الخضوع والاذعان والاساليب التي لا تطاق لتحتفظ بالرجل الذي اصبح سيّد مصيرها . هرولت على هذه الطريق ، فلم تعد تستطيع التوقف . وليس العناد ببعيد عن التدهور ، فضعفاء الارادة يبطئون في وقف انطلاقتهم بقدر ما يبطئون لبدء هذا الانطلاق ، ناهيك بما كانت عليه سولانج من الانسياق وراء الاوهام اسوة بسواها من النساء .

ما اكبر الفرق ، في بداية المطاف ، بين اندريه هاكبو وسولانج دنديو ومع ذلك فكلاهما تصلان في النهاية الى نقطة واحدة ، لاعتقادهما ان العناد يوصلها الى ما تريدان . وما العناد إلا معارضة المرء العمياء ،

الصفيفة ، لحقيقة يعجز عن ادراكها وعن سبر غورها . وهذه المعارضة عمل نسائي أصلاً .

يتحدث الناس احياناً عن امراض الارادة ، وفي بعض الاحيان تكون الارادة ذاتها مرضاً .

ويعد عرض جميع هذه الاسباب والاحوال ، نرى ان اصرار هاتين المرأتين على بلوغ غاية ليست مضمونة النتائج الحسنة هو مجرد ذاته اصرار يصعب فهمه . وما الفائدة من كتابة الروايات ان لم تكن لظهور الذين بلغوا سن الرشد كما هم ، وكما يراهم الاحداث ، اي مستبدين ولا يمكن فهمهم ؟

ان الدسائس التي تدبرها النساء ليتزوجن او ليزوجن بناتهن هي عادة نتيجة المصلحة الشخصية والطموح ؛ ومن المحتمل ان تكون احياناً نتيجة الحماقة ؛ وربما كانت من هذا الطراز في قضية سولانج وكوستال .

ويا لها من خيانة للحياة ان يسمى ساع ، بلا تفكير ، الى عقد هذا الزواج الخالي من الحب !

لم تكن سولانج تتألم من حب جريج ، بل من اخفاقه في مشروع ، ومن ذلك الشك الذي يوجع النساء اكثر مما يوجع الرجال . وكانت خيبتها تستخدم احياناً ، فتصبح عدوانية على شيء من الرياء . وهكذا الثور المصارع يسي خطرأ في نهاية الصراع ، خصوصاً اذا كان جريماً .

يوم كتب اليها كوستال رسالة وصف فيها بحماسة جمال النساء الايطاليات ، بينما كانت هي تذبذب وتفقد رونقها ، احست بانها عزلاء ، لانها لا تملك من مغامرات ماضيها سلاحاً تقاومه به . وقرأت يوماً مقالاً عنه يمس بشعوره فارسلته اليه بلذة وسرور . فقد كانت بحاجة الى الاحتفاظ به والى معاقبته معاً .

في اواسط تشرين الثاني ، اعلن كوستال عزمه على العودة الى باريس

في ٢٥ من هذا الشهر . وفي رسالة تالية ارجأ موعد عودته دون ان يحدد موعداً آخر . فتسلمت سولانج هذه الرسالة بهدوء . إلا انها ما لبثت ان رأت آلتها الكاتبة فاغرورقت عينها بالدموع . فقد كانت في تلك الفترة متوعكة ، وفي مثل هذه الحال يصبح خيالها مرهف الشعور ، كابناء الشعب الذين ينصرفون الى نظم الشعر عندما يكونون مرضى .

اشترت هذه الآلة الكاتبة منذ ثلاثة اشهر ، وشرعت تتعلم الضرب عليها ، لاعتقادها بانها ستضطر الى نقل مخطوطات كوستال عندما تصبح زوجته . ولما عادت من جنوى اهلكت هذه الآلة في احدى زوايا البيت .

واشدد غيظها لما علمت انه لا يحتاج اليها ، فراحت تسائل نفسها أترأه كذب عمداً لما حدد موعد عودته ، ثم ارجأ هذا الموعد ليفهمها انه مكثف بنفسه ، وليرى الى أي حد تبلغ بها مسيرته .
قالت في نفسها : « ألا يأتي يوم اصبح فيه سيدة الموقف ، ادير اللعبة كما اشاء ؟ كم اشتبهى ان اراه يخطو الخطوة الاولى ليدنو مني ، فاتراجع عنه خطوة ، واقود المناورة قليلاً »

وكثيراً ما كانت تحس انها فقدت كل احساس ، فيخيل اليها انها لم تعد في الوجود ، لانها لا تجد من يهتم بها . فالمشاجرات ، والاحتقار ، والاهانات كانت افضل لها من هذا العدم الذي يكتنفها .

كانت تازم الصمت التام فترات طويلة ، واذا بدأت جملة توقفت عن اكمالها ، كان الكلام يتطلب منها بذل جهود عديمة الفائدة . وغدت لا تحب ان ترى احداً ، وتتنفض جزعاً ويصفر وجهها كلما رن جرس الباب .

قالت لامها يوماً :

— أعلم جيداً لماذا لم اعد اريد الخروج من قوقعتي . لا ، لا ، لا ، من

الصعب جداً ان نقيم علاقات بيننا وبين الناس . فالجهود التي نبذلها في هذا السبيل ترهقنا . اننا مضطرون للعودة دائماً الى بداية المطاف حتى مع الذين نحبهم اكثر مما نحب سوامم ...

فأجابتها السيدة دنديو :

- لا تجهلين ، يا صغيرتي ، اني الى جانبك .

فقلت سولانج في نفسها : « ان محبة الاهل شيء آخر ... »

وقامت السيدة دنديو بمحاولات كثيرة لتبعت اهتمام ابنتها بالمحاضرات ، وبالتكتلات السياسية ، فكانت سولانج تجيبها دائماً : « وما الفائدة من هذا ؟ » او : « لسنا بحاجة الى تمقيد حياتنا ! » والحقيقة ان اهتمامها بأقل عمل كان يحدث فراغاً كلياً في دماغها ، كما تسحب المضخة الهواء من الوعاء . فالاعمال التي كانت « تشغلها » كلياً كانت من نوع ترتيب الثياب في الخزانة ، وحلّ خيطان معقدة ، وما الى ذلك .

انحلت كتابتها ، فصارت تهمل نهاية الكلمات ، وتنسى الحركات ، والفواصل ، والنقاط . وامسى وقوف الخادمة الى جانبها يثير غيظها ، كأنه يعكّر عليها وسواسها واجترار افكارها ، ويفرض عليها التفكير باصدار اوامر لم تحظر في بالها ، ولا يمكن اصدارها بلا شرح وثرثرة . وجفت شفتها ، وفسدت رائحة انفاسها . واخيراً ظهر دمّ في قفاها ، وآخر في فخذها .

كان البرد يضرها ، فيتغير طبعها في الشتاء وهي على ما يرام من حسن الصحة ، فكيف به ، اليوم ، وقد تضاءلت حيويتها ؟
ها هي تجلس جانبياً بالقرب من المدفأة ، رافعة الجانب المريض من قفاها ، بالقرب من لوحة تمثل السيدة فيجي لوبرون وابنتها ، والى

١ - رسالة فرنسية (١٧٥٥ - ١٨٤٢) اشهر لوحاتها العديدة تمثل الملكة ماري انطوانات .

جانبا ترقد القطتان المهودتان متعانقتين ، تحيك طوال ساعات صدره من الصوف لاحدى الجمعيات الخيرية . وكانت قد عرضت على كوستال ان تحيك له صدره فرفض باستياء شديد . وهي تشتغل الآن لانها تجد تسلية في تحريك الصنانير ، وليس لشدة اهتمامها بالفقراء . وكان هذا الشغل يستوعب كل انتباهها ، فلا تسمع امها حين تخاطبها ولا تفهم ما يقال لها . اما ساعتها اليدوية فظلت تنزلق على معصمها بالرغم من الادوية المقيّوة . وكثيراً ما كانت تنظر باهتمام الى شرايين يديها التي قال لها كوستال يوماً انه يجبها ... كانت تنظر اليها لتتيقن بدهشة من ان فيها شيئاً أحبه كوستال ذات يوم .

وفي جنوى ، كان كوستال يكتب الرواية التي جعل سولانج احدى بطلاتها . وكان يشعر بما كان بينه وبين الفتاة شعوراً عميقاً وكلياً ، فبادر الى اثباته على الورق ، ولو لم يفعل لأصيب بمس من الجنون . وراح يضع في الرواية كل ما ينتزعه من سولانج . وكان هذا نوعاً من الامتلاك اشد واقوى من الامتلاك الجسدي .

ويوم رسم خط الخاتمة في روايته لم تمت سولانج المفرغة من كل ما فيها ، بل كانت جالسة الى المائدة تتناول طعامها ، فأحست بشيء صلب في فمها ، فتناولته باصابعها ، فاذا هو تاج احدى اسنانها وقد انكسرت . انكسرت من الضعف لان جسم سولانج أضحى مفتقراً الى الكلس .

كتب شاتوبريان في « مذكرات ما وراء القبر » : « كنت اجعل السيدة دي شاتوبريان تبصق الدم ساعة اشاء ... »

وكتب كوستال انه عائد في ٢ كانون الثاني ، وقد اختار هذا اليوم هرباً من زيارات عيد رأس السنة ، وضرب لسولانج موعداً في اليوم التالي ، ٣ كانون الثاني . ولما وصل الى باريس ، وجد رسالة من السيدة دندير تطلب فيها اجتماعاً مستعجلاً به قبل مقابلته لسولانج .

ووجد ايضاً رسالة من اندريه هاكبو، فلم يفضها، بل احتفظ بها .
وكانت لديه محفظة للرسائل التي لا يقرأها ولا يتلفها، ومحفظة للرسائل
التي تكتب عليها صاحباتها : « للاتلاف بعد القراءة » .



من

انفريه هابو

سان ليوناد (لواريه)

الى

بياد كوستال

باريس

٣٠ كانون الاول ١٩٢٧

اني حردانة منذ ستة اشهر . فلا بد من اطلاعك على هذا الامر ،
 لانك لم تشرفني بالانتباه اليه . انك تحتقر حتى لامبالاتي . إلا اني لا
 استطيع ان ادع هذا اليوم ير دون ان اتسنى لك ، يا كوستال ، سنة
 سعيدة . أتراني أحط من كرامتي اذا كتبت اليك بعد سكوت استغرق
 ستة اشهر ، ما دمت لا اطلب اليك شيئاً ؟
 « فصداتي » من حيي ، ولا اجد كلمة غير هذه للتعبير عن حقيقي .
 ولن تدرك ابدأ قيمة ما رفضت بالنسبة الي . فلما حصلت على ما اريد
 منك لجملته « الحب » ا بكل ما فيه من القوة والمعنى ، بل لجملته شيئاً

١ - وردت كلمة « حب » هنا بحرف كبير في اولها كأنها اسم علم . تعظيماً
 لمناها .

بمثلكا ، مستديراً ، مكتنزاً ، لامعاً كـرغيف الخبز ، او قالب الحلوى . لكن دعنا من العودة الى هذا الموضوع .

اني اكتب اليك . وما دام باب الخزانة التي اضع فيها كل ما يتعلق بك مفتوحاً ، فيخيل اليّ اني في غرفة صغيرة ، صغيرة جداً ، واني جالسة قبالتك وحدك .

الرؤية صعبة ، لأن الجو غائم ، وقد قدّر لي ان استأنف كتابتي اليك يوم احد . وكل شيء في سان ليونار يتخذ طابع الكتابة والحزن العميق يوم الاحد اذا كانت ماطراً . وكـم من ايام آحاد امضيتها باكية وراء نافذتي !

اني هادئة ، لكنني لم اشفَ بعد . يكفي ان أسمع قليلاً من الموسيقى (عندي اليوم جهاز راديو) ، او ان يستولي عليّ الأرق ، او ان يهطل المطر ... او يكفي ان يصل اليّ شعاع من الشمس ليطرحني ، روحاً وجسداً ، في كل ما يؤلني ويشقيني . يكاد السأم يفقدني صوابي . وما اصعب ان يستيقظ المرء صباحاً وهو خائر القوى ، عديم الشجاعة ، لا همّ له إلا ان ينقضي النهار بسرعة ، كأن الوقت دواء مر ، كـريه الرائحة ، يسد المريض انفه ليشربه دفعة واحدة !

منذ تلك « العطلة » المشؤومة التي امضيتها في كـابورغ ، خلال حزيران الماضي ، لم اغادر سان ليونار إلا مدة اربع وعشرين ساعة امضيتها في اورليان . لم اعد احب الذهاب الى مكانٍ ما ، اذ ليس فيه من ينتظرنني ، او يود ان يرى وجهي . فالمرأة التي تعلم ان وجهها يعجب رجلاً ما تخلق نفسها من جديد . والمرأة التي تعلم ان وجهها موجود بالنسبة الى رجلٍ ما ، في عالم يعجب بالموتى الذين لا يبصرون ولا يحبون ، تدرك انها احرزت شطراً من الخلود .

اكرر عليك قولي اني لا اجد اقلّ غضاضة في الكتابة اليك . اني احتفظ منك دائماً بانطباع قوي ، فكيف استطيع التعبير عنه ؟ انه

شعور عميق باننا نعرف معاً اشياء لا يعرفها الآخرون ، اشياء لم نقلها
لي ، ومع ذلك لم نقلها إلا لي وحدي .

أ . هـ

(احتفظ كوستال بهذه الرسالة في خزانته من غير ان يفرض غلافها)



قال الروائي الكاثوليكي الكبير يوماً لأحد زملائه : « اصدرتُ اربعة عشر كتاباً . ولو كنت عازباً لما اصدرت إلا سبعة » .
وهذا يعني انه ضاعف نتاجه لكسب نفقات العيلة ، أفلا ترى ان النسبة صحيحة ؟

وقال ايضاً : « ان لي ثلاثة اولاد ! » وكانت لهجة زاحرة بالمرارة - المرارة الكاثوليكية الصرف . ومع ذلك فالروائي الكاثوليكي الكبير عريض الثراء ، لأن يسوع المسيح وسيلة جيدة للكسب اذا شاء بعضهم استغلاله ...

وكل ما يقوم به هؤلاء البعض من الاعمال الحقيرة او التافهة ، يمتدرون عنه متذرعين بانهم ارباب عيال ، كأنهم لم يتزوجوا إلا ليكون لهم هذا السبيل الى الاعتذار ، كاولئك الذين لم يتطوعوا جنوداً في اثناء الحرب إلا ليتباهوا ببادرتهم هذه طوال حياتهم .

كانت السيدة دنديو تشعر ، وهي في سيارة التوكسي التي حملتها الى منزل كوستال ، انها قوية الجسم كأنها في مشد من الحديد ، ولم يكن هذا المشد إلا ثقنها بانها نقية الضمير . فضميرها النقي كان محبتها لابنتها . ففي سبيل هذا الحب كانت مستعدة ان تسرق ... ونحن نعلم ان هذه المحبة كانت حقيقية وقوية . فعندما يبلغ الصبي سن المراهقة يخدم حب امه له ، اذ يصبح في نظرها مسخاً بالغ الدمامة لا تستطيع الدنو منه ،

لأنها لا تفهمه ؛ اما تطور الفتاة من طفلة الى مراهقة ، فينمي حب الام وينضج حتى انها تئيل الى مصادقة ابنتها . وعندما تصبح الفتاة امرأة يزداد حب امها لها من جديد . فنذا اصبحت سولانج امرأة غدت السيدة دنديو تحبها اكثر .

وجل ما كانت تريده من كوستال ، في ذلك اليوم ، ان يقول لها :
نعم او لا . فاذا رأته يتأمل ويراوغ قالت هي : لا .
لكنها ما كادت تراه حتى احست بانها ضعيفة امامه . فتلك كانت الزيارة الاولى التي تقوم بها الى منزله ، واذا بها كفريق كرة القدم يلعب على ارض الفريق المنافس له ، فيرتبك ولا يجيد اللعب .
وكان الكاتب قد عاش الاشهر الثلاثة الماضية خالياً من المتاعب والهجوم ، فاشرق وجهه بألوان العافية ، وامتلاً خداه ، وربما نجم هذا الامتلاء عن انه تغدّى من سولانج . ولما كانت مظهره هادئاً يدل على الارتياح والثقة بالنفس ، فقد فرض نفسه عليها بعض الشيء ، فظلت محتظة فترة طويلة بافضل ما لديها من الحجج ، واكتفت بتريديد اقوالها المعتادة ، فقالت :

— انك تذبذب خوفاً من البرد ، عوضاً عن ان تقبل بمواجهة الرياح العاصفة . انك ترفض التغلب على العقبة . فانت تخشى الوقوع في الخطأ ، وتخشى الاخفاق . فلكي يتعلم المرء السباحة ، فلا بد له من الانطراح في الماء .

— ألا تظنين ان نصف الذين ينطرحون في الماء يغرقون اذا كانوا لا يحسنون السباحة ؟

— الحقيقة انك لا تحب سولانج كفاية .

— هذا هو الصواب : لا احبها كفاية . لا تتخذي من هذه الحقيقة سلاحاً ضدي . القلب ا يجب ان يملك الرجل قلباً كبيراً جداً ليحب قلباً .

- كن مطمئناً ، فالحب يأتي في حينه . هكذا تجري الامور دائماً ...
- انت تودين اذاً مصاهرة امرىء يعترف لك بأنه لا يجب ابنتك
كفاية .

- اني اقدر الصراحة قبل كل شيء .
وجال في خاطرها ما يحول في خواطر جميع النساء ، فراحت تقول
في نفسها : « ليحفظ بصراحته لنفسه ، فهي صراحة ثقّل من قدره
وتحقّره » . ولم مرة قالت لسولانج : « صراحة الرجل شركٌ ينتزع منا
كل ما فينا من الحذر . فاذا اندرك بأنه لا يجبك حباً كلياً ، فكوني
منه على حذر ! »

ثم استأنفت حوارها مع كوستال ، فقال :
- لسنا بحاجة الى حب رومنطيسي كبير . ويبدو لي انك تحب
سولانج حباً كافياً لتقدم لها المساعدة التي يحق لكل امرأة ان تنتظرها
من زوجها .

- عفواً ، اني لا اعيش لأجل الآخرين !
قالها كوستال بقوة وحزم ، ثم استطرد :
- لو كنت اجرؤ على مصارحتك بالحقيقة لقلت لك ان حالي
طبيعية تاماً ، فالطبيعة لا تأمرني ببذل نفسي لسواي ، بل هي لا تأمر
المخلوقات إلا بان تحيا .

- سولانج طبيعية ايضاً . لكنني اؤكد لك انه لو حلّ بك
مكره ...

- ان ما اكره لا يحلّ بي ابداً .
ضحكت السيدة دنديو . ويقدر ما كانت تتضايق ، كانت تبدو
أليفةً ولامبالية ، وكان كلامها يزداد طلاقةً ومرحاً .

قالت في نفسها : « ساغادر هذا البيت من غير ان اقوم بالعمل الذي
جئت لاجله ، ومن غير ان اصل الى شيء يستحق الذكر . اني ارى

هذه النتيجة منذ الآن .

وفكرت بأنه ليس من الموافق ان تحدثه عن ارادة سولانج ، لأن هذا الحديث يحفله ، فحرصت على تخفيف لهجتها في كل عبارة متعلقة بهذه الارادة . وحرصت في ذهنها بعناية كئيّة جميع الكلمات التي لا يجوز ان تقولها ، لكن هذه الكلمات افلتت من بين شفيتها على الرغم منها ، فاذا بها تقول :

- ان لهذه الصغيرة ارادة حديدية لا تقهر . فقد قالت في نفسها :
« هذا الرجل هو الذي اريده ا » ولن يثنيها شيء عن عزمها .

هكذا لفظت السيدة دنديو ما كان يعتلج في صدرها ، كجسم اضناه الوهن فتراخي وبرّز ما فيه من المواد السّلاحية ، فسولانج وامها كانتا تتبادلان عدوى العياء والعجز عن المقاومة . واذا برّد كوستال يأتي سريعاً وقاسياً ، قال :

- يطيب لي ان ارفض .

فلزمت الصمت منعدنةً ومغلوبةً على امرها . وفي ذلك السكوت الثقيل ، سمعت جلبة كرة يدحرجها اولاد ، ووقع قوائم كلب يركض وراءها في المنزل الواقع فوق بيت كوستال .
وجعلت السيدة دنديو تدلك بايهاما التجاعيد المتكاثفة تحت عينيها .
ثم رنّ جرس التلفون ، فقام كوستال الى السّاعة .

... -

- هل أظن أن الرواية لونها من الادب ولتّى زمانه ؟ لا ، يا سيدي ، فأفأة الرواية هي فقدان المواهب . فالموهبة تقوي كل لون من ألوان الأدب . ثم انك تعلم ان الرواية بخير ، ولا خوف عليها . أفلا ترى اننا نضيع وقتنا بهذا الحديث ؟

... -

- استقبلك ؟ لماذا ؟ أما اجبتُ عن سؤالك ؟ والآن جاء دوري ، أسمع

لي بان اطرح عليك سؤالاً ؟ اليك به : اود ان اعرف رأيك في هذا الموضوع : ألم يصبح الحديث الصحفي بالهاتف من الاساليب الصحافية التي ولتّى زمانها ؟ ...

... -

- هذا الرجل الذي يقدر الناس ان لفكره بعض القيمة ، ويريدون معرفته لافادة النوع البشري به ، ربما كانت منهكاً بعمل شيء مهم ، ربما كان يفكر ، مثلاً ، او يستريح بعد التفكير ، او يصمم مشروعاً ، او يوجه شخصاً ما الى مصيره ، او يضاجع امرأة ، او يستريح بعد هذه المضاجعة . فاذا بالهاتف يناديه بشراسة ويزعجه مرتين ، مرة في فكره الذي ينقطع مجراه ، ومرة اخرى في جسده الذي يضطر الى التحرك والانتقال للذهاب الى جهاز الهاتف . اما سبب هذه الحركة المقيت فهو ان مجهولاً يريد ان يعرف رأي المفكر في هل الرواية لون من الادب ولتّى زمانه ؟ وفي اغلب الاحيان لا ينشر هذا المجهول الحديث الذي حصل عليه ، لأن مقالته طويلة جداً ، او لأن رئاسة التحرير صرفت النظر عن نشر الحديث . واذاً ، فاني اقول لك ، يا زميلي العزيز ، ان هذه الاساليب المسلكية هي - انتظر قليلاً ، اني ابحت عن كلمة لطيفة ... - هي اساليب وحشية .

ومن حين الى آخر ، كانت يُسمع صوتٌ من المنزل المجاور كأنه طلقات رشاش . أتراه كان صوت خرير الماء في الابواب ؟ اما السيدة دنديو فكانت تداعب عقدها ولا تفكر بشيء ، بل تنظر بامعان الى مصباح كهربائي على الطاولة ، أشعله كوستال بينما كان يتكلم بالهاتف ، فبدت نواته المتوهجة كأنها قلب نجم مذنب .

وما كانت ام سولانج ترفع عينها عن ذلك المصباح إلا لتحوّلها الى نوافذ البيت المجاور التي بدأت - وقد اقبل الليل - تضاء واحدة بعد اخرى ، كوجوه اشخاص قيلت لهم كلمة لطيفة ، او حدثهم احد عن

نفوسهم .

وشردت السيدة دنديو في احلامها بضع ثوان خلال الفترة السريعة التي مرت بين اضاءة تلك النوافذ ومبادرة اصحابها الى اغلاقها ، كأن المنازل المجاورة قد اباحت حياتها الحميمة لحظة للانظار ، ثم تسترت حياءً . ولو سُئلت ام سولانج عن الشعور الذي خالج نفسها آنذاك لما استطاعت ان تعبر عنه ، إلا أنه لم يكن غريباً عن تفكيرها بالبيت المجهول الذي تشتهي سولانج ان تجد فيه سعادتها الى جانب الرجل الذي تحبه ، وان تمضي تحت سقفه حياتها كلها .

ولما انهى كوستال مخابرتة الهاقمية استأنف حديثه قائلاً :

— لا ادري لماذا تقر التقاليد المتبعة اتخاذ تدابير دقيقة على يد الكاتب العدل لتحديد الحقوق المادية لكل من الرجل والمرأة اللذين ينويان الزواج ، ولتعيين الممتلكات التي يستقل بها كلٌ منها عن الآخر، ولا تعبر اهتماماً كبيراً لحقوق الفكر وحقوق الشخصية . لقد تبنّت جميع دول اوروبا اليوم منهجاً خلقياً جديداً تداس فيه بالاقدام تلك الاعتبارات التي نسميها ، انتِ وانا ، اخلاقاً ، عندما يكون الامر متعلقاً بمصلحة الدولة . وفي اعتقادي ان العمل الفني لا يقل اهمية عن مصلحة الدولة ، وهو يستحق ما تستحقه من التوضيحات . لتكون سلامة الانتاج الادبي شريعتنا العليا ١ . اني أُسيء اليك اذا تركتك معلقة بين الشك واليقين . واراني على حق في تصرفي معك ، لان هذا التصرف ينقذني من الزواج الذي قد يضر بانتاجي الفني . ان المواطنين يقبلون ، في سبيل الدولة ، ان تكون لحاكميهم اخلاق لصوص يقطعون الطرق ، فاقبلي انت ، في سبيل انتاجي

١ - ثمة شعار لاتيني قديم هو : *Salus populi suprema lex esto* ، ومعناه : « لتكون سلامة الشعب شريعتنا العليا » ، وقد اتخذ المؤلف شعاراً له بعد ان حذف منه كلمة « الشعب » واحل محلها كلمة *Operis* ، ومعناها : الانتاج الادبي .

الادبي ، انحرافي عن القواعد الخلقية التي تواضعت عليها العامة ، اذا كانت مصلحة مؤلفاتي الادبية تفرض عليّ هذا الانحراف . ان حب الفتاة لاحد رجال الفن يجب ان يكون بالنسبة اليها اشبه بجيها الموت .

وقال في نفسه : « لياخذك الطاعون ايها الام الحنون ، ما اسمح ثورتك ! » إلا انه لم يكن قد انتهى بعد من افراغ جعبته ، فاستطرد قائلاً :

— ثمة نوعان من الرجال : الذين يوجّهون ، والذين يوجّهون . فالاولون خلّاقون في الادب ، والفنون ، والعلوم ، والسياسة ؛ وبتعبير آخر هم الغزاة الفاتحون . فالكاتب يغزو الفكر بما يؤلف ، والفنان يغزو الجمال ، والعالم والفيلسوف يغزوان الحقيقة ، والسياسي يغزو السلطة . والغزاة بحاجة الى راحة الفكر التي يتعذر وجودها في الحياة الزوجية . ليتزوج اذاً الرجال الآخرون ، وليخلتفوا ابناء ليعوضوا عن تقصيرهم في انماء التراث البشري . اما الغزاة فليأخذوا من الزواج ومن الابوة ما يفيد اوضاعهم الاقتصادية وحسب .

قالت السيدة دنديو بلهجة لا تخلو من الدلال ، وعلى وجهها ابتسامة متوترة :

— دع الكلمة الاخيرة لي . فاللياقة تفرض عليك ذلك . وكانت شديدة التأثر في تلك اللحظة العصبية ، فبدأ دلالها في منتهى القبح والفظاعة . وانفجرت هذه المرة على الرغم من تحفظها ، كما انفجرت عندما تحدثت عن ارادة ابتها ، قالت :

— اما انت ، يا سيدي العزيز ، فليدك عمك الادبي ، وهو يشغلك وينغريك عن الابناء . اما انا فليديّ ابلتي . والنساء السعيدات يحببن ابناءهن حباً عظيماً ، ومن سوء حظهن انهن يحببنهم حق الجنون . وكل ما لم يعطه السيد دنديو لابنته من العطف والمحبة ، اضطررت انا الى اعطائها اياه .

اجل ، اضطررت ان احبها حب اثنين . والآن انظر ما آلت اليه ابنتي بسببك .

واخرجت من حقيبتها واحدة من تلك البطاقات التي يعطيها السيدالة لزيئهم الذين يزينون نفوسهم ، وقدمتها لكوستال ، فقراً فيها ما يلي :

٩ كانون الاول = ٥٩ كيلو و ١٠٠ غرام

١٦ » = ٥٨ كيلو و ١٠٠ غرام

٢٣ » = ٥٧ كيلو و ٢٠٠ غرام

٣٠ » = ٥٦ كيلو و ٣٠٠ غرام

ورأته يرفع رأسه وعلى وجهه امارات الجذ والاهتمام ، فقالت له :
* - أتدري في اي حال تظهر الدماامل في الجسم ؟ تظهر الدماامل عندما يكون الدم معتكراً . وقد اصيبت سولانج بثلاثة دماامل منذ الشهر الماضي . أتدري ... أتدري علامَ تدل هذه الاصابات ؟
وتساوت من حقيبتها صرّة صغيرة من الورق الحريري . فوضع كوستال البطاقة على الطاولة ، واخذ الصرّة وفتحها ، فوجد فيها سنّاً مكسورة من اسنان سولانج . فقالت السيدة دنديو :

- ألا تعلم خطورة فقدان الكلس من الجسم ؟ ألا تدرك الى اي حد يكون المرء مصاباً عندما تبدو عليه هذه العوارض : الهزال ، والدماامل ، وفقدان الكلس ؟ ان الداء الوحيد الذي تعانیه ابنتي هو داء نفساني ...

- هل لديكم طبيب ماهر ؟

- أقدر انه طبيب ماهر بالنسبة الى الاجور التي يتقاضاها .

- لم تذكر لي سولانج شيئاً من هذا في رسائلها .

- ارى انك لا تعرفها .

وراح يحاول اسكات صوت ضميره كما يضع المرء يده على فم امرأة

ليمنعها من الصباح .

وفي هذه اللحظة قرع الباب الخارجي ، فازم كلاهما الصمت ، ثم جاء الخادم يحمل رسالة فتناولها كوستال وشمها قائلاً :

- اعذريني ، فشكل هذه الرسالة لا يعجبني . ان لها وجهاً مبهوماً كوجه كتاب تهويل وتشهير ...

وبعد ان قرأها اعطاها للسيدة دنديو فقرأت بدورها ما يلي :

استاذي العزيز ا

انك تشعر مثلنا ، ولا ريب ، بان الساعة قد اذفت لاعادة النظر في اوضاع الكون . فنحن « الاستوديو ذو الرقم ٢٧ » رهط من الشباب فرض على نفسه القيام بادق الفحوص اللازمة لمعرفة طاقة الانسان . وقد فكر مجلسنا بانه من الضروري ، قبل كل شيء ، ان نفتتح مجالاً واسعاً لمناقشة القضايا المهمة التي تتطلب درساً عاجلاً ، وهي : الله ، الثورة ، الشعر . وفي اذار المقبل ، سنعقد مؤتمراً ندعو اليه شبيبة العالم باسمه دعوة اخوية . وبعد هذا الاجتماع الذي نقارن فيه بين مقرراتنا ، وازن ارادتنا ، نقدم مقترحاتنا ، ونفرضها فرضاً اذا لزم الامر . وسنقوم بتحقيق تهديدي من شأنه ان يوفر لنا ادوات العمل . فنرجو منك ان تجيب عن الاسئلة الثلاثة التالية ، مع العلم ان نشرتنا : « الاستوديو ٢٧ » ، قليلة الصفحات ، فيجب ألا يتجاوز جوابك اربع صفحات من قياس اوراق الآلة الكاتبة .

الأسئلة :

١- ما هو الله ؟

٢- ألا تظن ان الله هو الرسالة الدائمة للثورة ؟ اذا كنت تظن ذلك ، فما هي المرتبة التي يحتلها هذا الظن في حياتك ؟

٣- أتكون مجانيبة الله ومجانبة الثورة مترابطين ، تقويان معاً وتضعفان معاً ؟

٤- أترى ان مذهب « الاستوديو ٢٧ » القائل بان الله يبدأ حيث ينتهي الشعر ، يكفي ليعبث في نفسك الشعور بانك رجل اوروبي ؟

٥- ما هي أسباب ياسك ؟

وتفضل ، يا استاذي العزيز ، بقبول ، التح ...

ملاحظة . - سنطبع نشرتنا هذا المساء ، الساعة التاسعة ، أفستطيع ان نعلم
الامل بوصول جوابك قبل قوات الاران ؟

اعادت السيدة دنديو الرسالة الى كوستال وهي تقول :

- اعترف لك باني لم افهم منها شيئاً .

- لا عجب في ذلك ، يا سيدتي ، فليس فيها ما يفهم .

- أعلاميد كاتبوها ؟

طرحت هذا السؤال اذ تذكرت ان ابنها كان يكتب اشياء من هذا
النوع لما كان تلميذاً في السادسة عشرة من العمر .

فاجابها كوستال :

- لا ، يا سيدتي ، اني اعرف بعض موقعي هذه الرسالة ، وهم رجال
يناهزون الثلاثين من العمر . لكن في باريس اوساطاً يتأخر افرادها في
بلوغهم سن الرشد .

ووضع يده على جبهته ، ثم استطرد قائلاً :

- وهكذا ترين اننا لم نستطع ان نهتم نصف ساعة بالامور الجديدة
دون ان يقاطعا مرتين اولئك الذين اسميهم « المجانين » ، لانهم اناس
يفتقرون الى تلك الفضيلة الرئيسة والبالغة الأهمية التي هي حسن الذوق .
فالحياة الفرنسية كلها مشوبة بتيارات هؤلاء المجانين الذين نجد بينهم النساء
العائشات في دنيا من الاوهام ، وانصاف المفكرين الذين يعتبرون الالفاظ
كل شيء ، والبورجوازيين الذين اعتمهم اعتباراتهم الطبقية ، وابناء الشعب
الذين طغى عليهم الجهل . وهم دائماً بعيدون عن الحقيقة الواقعية لسبب
او لآخر . ومع ذلك فان لهم حق التصويت في مجلس هذه المأساة التي
نحياها . أتشعرين بعظمة هذه الاوضاع الشكسبيرية ؟ فالبطل هو الذي
يقبض بيده على المصائر ، غير انه لا يستطيع ان يقرر شيئاً ، مها يكن
تفكيره ، ما لم يتل موافقة المجانين . والذين يُذهلون في اكثر من سوام ،

هم مجانين الفكر والذكاء الذين انقضتوا علينا منذ قليل ، وملأوا آذاننا
بصخبهم بينما كنا نبحث قضية جدية ... ان جنسهم من جنسنا في اعتمى
جذوره . فهم طلاب السوربون^١ الذين تحدث عنهم رابليه^٢ ، والمتأنفات
والاطباء الذين صورهم موليار في مسرحياته ، والعقائديون الذين اشار اليهم
نابوليون . فالغلاظة الحقاء هي الطابع الابدي الذي تتسم به فرنسا .
يقال ان كل شيء عندنا ينتهي باغنية . إلا ان كل شيء ينتهي ايضاً
بفكاهة ماجن^٣ ، لكن هذا الماجن يعتبر نفسه شيئاً عظيم الامية ...
وبعد ، فإين كنا من حديثنا ؟ آه ، تذكرت ! كنا في الحديث عن
اقدان الكلس من جسم سولانج ... اذاً فقد اتفقنا ، ساتزوج بابنتك .

وكانت السيدة دنديو قد عانت برباطة جأش قراءة رسالة الشباب
لفكر وحديث كوستال عن المجانين ... قاصبح عقلها بعيداً عن المكان
لذي كانت فيه ، واعتبرت قضيتها منتية منذ امد بعيد ، ومنتية لغير
صلحتها . فلم تنتفض حين وعد كوستال بالزواج بسولانج ، كأنها فوق
تناول كل تأثير ، فاكتفت بان تقول :

— ما برحت تؤكده منذ نصف ساعة ، انك لا تستطيع الزواج

سبب عمك الادبي ، فهل غيرت رأيك من جديد ؟

— ان الموقف الذي اتخذته متين كل المتانة . إلا ان هناك مواقف

اخرى متينة كل المتانة بالنسبة الى الغرض الذي نلحن في صدده . ولا شيء

١ - مقر الدروس العامة في جامعة باريس ، الشاه الكردينال ريشيليو عام ١٦٢٦ .

٢ - فرنسوا رابليه (١٤٩٤ - ١٥٥٣) كاتب وطبيب وكاهن فرنسي . وضع قصة

خيالية بطلاها العملاق غرغنتوا وابنه بنتاغرويل . لاذع الفكاهة ، دم المزاح .

سارل مجديد الفلسفة والاشلاق في ضوء الفكر القديم ، ومزج اطرف

النوادر المضحكة بفلسفته الطبيعية ، فكان اده سائفاً ، سهلاً ، يزخر بالحوية .

٣ - استعمل المؤلف هنا كلمة : Canular ، وشرحها بقوله انها تعني المزاح في لغة

طلاب دار المعلمين .

اسهل عليّ من الانتقال من موقف الى آخر ، كما انتقل من غرفة الى اخرى ؛ فالاثاث هنا مختلف عن الاثاث هناك ، وترتيب كل غرفة يختلف عن ترتيب الغرفة المجاورة لها ، غير أن البيت واحد . ان أفضل طريقة لاستعمال البيت هي ان يقيم المرء في هذه الغرفة او في تلك بحسب مزاجه ، او الساعة التي هو فيها ، او احد فصول السنة . لماذا غيرت رأيي الآن ؟ لأن هذه (واراها سن سولانج) لم تعد مزاحاً ماجناً . فمتدما تذبل قفازة وتفقد صحتها لان الرجل الذي تحبه تركها فريسة للشك ، لا تكون مسألته نافذة يمكن الاغضاء عنها . ان سولانج تعالج مسائل حقيقية غير مسائل اولئك الصعاليك الذين يريدون « اعادة النظر في اوضاع الكون » ، وكلّ منهم يرتجف خوفاً امام بواب البناء الذي يقيم فيه .

قال هذا ومزق رسالة الشباب المفكرين اربياً . ثم قال :

— ليس سبب عذاب سولانج من الاسباب المضحكة كأسباب ثلاثة ارباع الآلام النسائية التي يعانها البشر . وانت ، اذا كنت كثيفة لان ابتك تفقد الكلس من جسدها ، فلا شيء في الدنيا معقول اكثر من كابتك . اما انا فحين اقول لك : « لتكن سلامة الانتاج الادبي شريعتنا العليا » ، اعلم حق العلم ان موقفي محترم وقوي ، لكنني اعلم ايضاً ان ثمة حالة يصبح فيها هذا الشعار مزاحاً ماجناً . وفي مثل هذه الحال اخرج من المزاح الماجين واتزوج . سأتصل غداً بالكاتب العدل واكلفه وضع صيغة عقد الزواج ، واطلب اليه ان يتصل بالكاتب العدل الذي تنتدبونه انتم لهذه الغاية ...

ورن جرس الهاتف في البهو ، فانقضّ كوستال على الحظ وقطعه مزججراً : « ليصمت البلهاء الآن ! »

ولحقت به السيدة دندبو الى البهو كأنها هرّة يحمل عصفوراً في فمه . ولم تكن تشتهي إلا ان تنعم برؤية فريستها على حدة ، في اعماق الحجر

العائلي . وقد ادركت ان الكلام اصبح عديم الفائدة ، فلم يبق عليها إلا ان تنصرف .

وكان الماء يجرّ في المرحاض المجاور ، لان مجاريه كانت معطّلة ، خربير التافورة في صحن دار مغربية .

صافحت السيدة دنديو كوستال ، وضغطت على يده بقوة وهي تقول له : « انك رجل شهم على كل حال » .

وازداد اضطرابها فاستطردت قائلة :
- اتمنى لك ليلة سعيدة .

فاجابها ، وقد بدأ يستعيد قوته :

- اني اتمناها لنفسى ايضاً .

واحست انها متضايقة ، وان وجودها مع كوستال يضايقه ، فمشت الى الباب قائلة :

- ساخاطبك غداً بالهاتف .

احس كوستال انه مخدوع حين قالت له السيدة دنديو انه رجل شهم ، فقال في نفسه : « هذه قفزة الاحمق الى الهوة ^١ » .

١ - في اللغة الفرنسية عبارة تدل على التهور هي : *Le saut dans l'abime* ، ومعناها : التفرز الى الهوة . وقد تلاعب المؤلف بالالفاظ فكتب : *Le sot dans l'abime* ، فتغير المعنى واصبح : « الابله في الهوة » ، من غير ان يتغير اللفظ .

من

اتدريسه هالينو
سان ليونارد

الى

بيدار كوستال
باريس

١٠ كانون الاول ١٩٢٧

ركبتُ الدراجة الهوائية بعد ان هجرت هذه الرياضة مدة سنة ،
فارتطمت ببنيك في الحديقة العامة . وها انا اعاني ألماً في ركبتني ،
وأخشى ان اكون مصابة باحتقان زلالي . هذه نتيجة ادعائي القدرة على
« الاختلاط بالعالم الخارجي » ، وانا غير مؤهلة له .

تركتني استنقع في جهلي ، في عجزني عن القيام بعمل مفيد ، في
اضطراب اعصابي ، في جفائي ، بينا الذكاء الحقيقي يوسع مجالات الحياة
ولا يضيّقها ، يُخصب العمر ولا يعقّمه .

لو عشت في ظل حبنا لتشعبتُ ، ولوسّعتُ حلقات الحياة حولي ،
كما تتسع حلقات الماء حول حصة ألقيت فيه . ومع ذلك ، كن خالي
البال ، مرتاح الضمير ، فشقاوي كان مستحكما بي قبل ان اعرفك ، وظل
مستحكما بعد هجرانك . ان اللعنة المهيمنة عليّ لشاملة ، فحدها الاذني

هو ارتطامي ببنك الحديقة ، وحدّما الأعلى هو عجزني عن الاختلاط بالناس . لقد عشت طويلاً في الكتب ، فلم اعد قادرة على خلق مجال للاتصال بالخلوقات البشرية .

اشجع نفسي دائماً ، فاقول : « سأفتح غداً هذا المجال » . واحزم امري فاصمّ قائلة : « سأبشر عملي عندما ابلغ الحادية والثلاثين من العمر ... يوم ٢٣ نيسان . ومن الآن الى هذا اليوم ، لا فائدة من بسذل المحاولات ، ما دمت قد قررت ان اصبح امرأة جديدة بعد ثلاثة اشهر » .

اني اعطي نفسي هذه المهلة بدافع الجبن المستولي عليّ ، وغايتي منها الحصول على القليل من الراحة الوهمية . وانا على يقين ياني ساعد ، في ٢٣ نيسان ، الى ما كنت عليه من العجز والحرمان ، مع اني شابة ، متعافية ، وليس في وجهي ما يثير القرف ، على الرغم من كل ما يخامر ظنك . فكيف تسمي حالي متى ذبلت وغدوت مريضة ؟

يقولون لي : « تزوجي » . بيد اني غير صالحة للزواج ان لم احب حباً عظيماً . لن اخضع جسدياً وجنسياً لسيطرة رجل ، إن لم يكن قد سيطر عليّ معنوياً من قبل . وما دام الحبيب الوحيد المتفوق قد تهرب من حيي ، فلن ابحت عن حب جديد . يساورني القرف الشديد كلما فكرت باختلاق حب لا حقيقة له ، او بالتمويه على نفسي بحب اعرفه وهماً تافه المصدر . ويؤلني شعوري باني اقود عملية الحب واوجها لاني الجانب الاقوى فيها ، ثم يؤلني ان لا اعلم لماذا احب ، وان يكون حيي مقتصراً على حاجتي اليه .

يقولون لي : « انك بلا عمل ، قاذبي الى اورليان ، وحتى الى باريس ، واشتغلي » . ولاني لم اتعلم مهنة ، فلا بد لي من القبول بوظيفة في مكتب . والحياة في المدينة كثيرة النفقات ، لا تترك لي من راتي اكثر من المبالغ الزهيدة التي اجدها الآن بين يدي ، تاهيك بان الحياة في

المدينة لا توافق الصحة كالحياة في الريف ، ولا تترك لي مجالاً من الوقت لاعمال الخصوصية ، فضلاً عن كونها متعبة ترهق الذهن والحواس . ولا اعتقد اني اجد في المدينة ، اكثر مما اجد في الريف ، انساناً يعلموني تحطيم الجليد الذي يكبلني ، او انساناً يعلموني كيف اتصرف اذا حالني الحظ وتمكنت من تحرير نفسي ، وكيف اتصرف لانعش حياتي بـ « حب ثانٍ » . كانوا يقولون في ايام الحرب : « قام المقاتلون بمحاولة ثقب واختراق ؛ اما انا فاراني عاجزة عن اختراق نطاق الانفراد الجهنمي الذي يحيط بي . اني تأهت على الهوامش ، لا على هوامش حياة الرجال ، بل على هوامش الحياة بأسرها . انظر خفية » ، اتصت وراء الابواب . وما انا شكسة ، عديمة الحدق ، اذا كنت على علاقة طيبة برجل لا اراه إلا قليلاً ، فاني اجتنب الالتقاء به للمي بان سوء تصرفي ينفّره مني حتماً .

النساء ؟ انهن يكرهنني . ثم اني لا اهتم بهن مطلقاً .
الرجال ؟ اني لا اعجبهم ، وهذا واقع حالي .
اذا كان الرجل متوسطاً ، وافق انه لا يُقرقني ، فانه يعتبرني ذكية ومفكّرة اكثر من اللزوم . وقد اتعني احدهم باي متصنعة !
أمتصنعة أنا ؟

في الصيف الماضي ، خلال العطلة المدرسية ، قلت يوماً لشقيق احدي صديقاتي ، وهو طالب : « انك لا تعمل شيئاً من الصباح الى المساء . اقرأ ، دوّن ملاحظاتك ، أغن نفسك بالمعرفة » . فكانت عبارة : « أغن نفسك » ، موفقة جداً في اثاره الهزء والسخرية . ويبدو انها من العبارات التي يحترها خريجو دار المعلمين . اما الرجل الذكي الوحيد الذي التقيته في حياتي ، فانت تعرف اكثر مني ما هو حظي منه ...
الاولاد ؟ قلت لك مرات عديدة اني لا اجد فيهم ما يجذبني اليهم . فانا من صنف النساء العاشقات ، لا من صنف الامهات . وبين الصنفين

فارق كبير، على ما اعتقد . فبين النساء من تستطيع ان تصير اما مرات عديدة وان تكون عاشقة ، وبينهن نساء وقتيات اذا احببن رجلاً ، لا يجبين من خلاله إلا الابناء الذين يأملن المجاهم منه . وعلى الرغم من اني لست من صنف الامهات ، أراني شديدة الاسف لاني لم اصبح اماً . وما يؤلمني ويشيرني اكثر بكثير من حرمانى الامومة ، اني لم أحصل على تلك الاشياء الجوهرية ، ومنها المعرفة الكبرى ، واعني بها معرفة الحياة في احوال ما ازال اجهلها كل الجهل ، وما الامومة إلا حالة من هذه الاحوال .

هذه هي كآبتي المزمنة ، الناجمة عن الحرمان . اما الجديد في حياتي فهو ما حدث لي وما شعرت به في تشرين الاول الماضي . فقد اضطرت الى الذهاب مع عمي الى اورليان لتوقيع بعض المعاملات المتعلقة بتركة احدى عماتي . وبينما كنت جالسة في المحطة بانتظار القطار ، رأيت اطفالاً يلعبون ، ثم دنوا مني وراحوا ينظرون اليّ بمحبة واضحة وثقة تثير الدهشة ، ويضعون ايدهم الصغيرة على ركبتيّ . لم يشعروا باللعنة الحالة بي ، فكان لعطفهم عليّ تأثير عميق في نفسي . غير اني لزمت الصمت ، ولم أدّر كيف اخاطبهم . ولو قلت لهم شيئاً لما لبثوا ان ابتعدوا عني . فاني لماجزة عن الاحتفاظ حتى هؤلاء الصغار . وكانت احدى امهاتهم جالسة الى جانبي ، وكل ما فيها يدل على انها تود التحدث اليّ . إلا اني تهربت من الحديث .

لو حدثتني لخرجت من الاعتراف لها باني عزباء . ولو كذبت وقلت لها ما حدثتني النفس بأن ا قوله ... لو قلت لها : « انا ايضاً ام ولي طفل مثل هذا » ، لفضحت نفسي ، ولاتضح كذبي ، لأنني لا اعرف شيئاً عن شؤون الامومة ، فكيف اتحدث عن القمط ، والحزام ، واوقات الرضاعة ، وانا اجهلها كما تجهلها انت ؟ وما الذي استطيع التحدث عنه غير الكتب والحب ؟ اني لا اعرف شيئاً من شيء ، لا احسن السباحة ،

ولا سواق السيارة ، ولا ركوب الخيل ، ولا الغناء ، ولا العزف على البيانو ، ولا الطهي ، ولا الخياطة ، ولا ركوب الدراجة الهوائية إلا اذا شئت ان ارتطم بشيء ما . عندما افهم برغسن ' يخيل اليّ اني في مستوى برغسن . اما اذا حاولت عمل شيء من المربيات فهذا موضوع آخر ، ومسألة فيها نظر .

نهضتُ من المكاث الذي كنت جالسة فيه بالحطة ، وابتعدت عن الاطفال ، وفي نفسي مرارة اليأس . وتراني الآن كلما سمعت طفلاً ينادي امه : « ماما » ، احس كأن خنجرأ يغوص في قلبي . هؤلاء النساء اللواتي افضلهن بصفات عديدة ، وبينهن كثيرات من المحققات ، هنّ اطفال ، بينما انا ادور بلا انقطاع حول الجنات المقفلة في وجهي ، واسير منفية عن البشر ، لا احلّ في مكاث إلا واحمل اليه جواً من الصقيع ، والشبهات ، والتفاهة المضحكة ...

الويل للنساء اللواتي لا بيت عائلي هنّ ! الويل هنّ كلما طاردن ازواج النساء الاخريات واولادهن . تلبية لحاجتهن الى الحب ! انهن كالكلاب الشاردة ، وكالقطط اللاجئة الى غير اصحابها . فعندما اقبض على هر جارتنا ، واضمه الى صدري ، واقبله بجمرة ، ينظر اليّ بدهشة ، ويبدو كأنه يفهم سبب محبتي .

وبعد رحلتي الى اورليان ، ارسل اليّ الكاتب العدل ، كما ارسل الي عمي ، حصتي من تركة عمي ، وقدرها الف وخمسة فرنك ، فكان هذا

١ - هنري برغسن (١٨٥٩ - ١٩٤١) فيلسوف فرنسي وضع نظريات جديدة في الحدس ومعطيات الوجدان ، واعتمد في جدله على العلم والمنطق . وأبرز ما في نظرياته تجريد معطيات الوجدان من قيود المكان والزمان . اشهر مؤلفاته : « معطيات الوجدان الفورية » ، و « المادة بالذاكرة » ، و « التطور الخلاق » ، و « ينبوع الاخلاق والديانة » . كانت عضواً في الاكاديمية الفرنسية . واحرز جائزة نوبل عام ١٩٢٧ .

الأرث هديّةً هبطت عليّ من السماء !

تسلّمته وأنا كبيرة الاهتمام بالأولاد ، وبأسفي المرير لاني محرومة من الامومة . فخطر في بالي فوراً ان اقدم هذا المال لروضة الاطفال الايتام التي تتولى ادارتها عندنا راهبات القديسة « اوبورتون » . ان مبلغ الف وخمماية فرنك ثروة محترمة بالنسبة الى سانت ليونار . فاصبح « المحسنة ! » التي تفتح لها ابواب الروضة متى ارادت ، ولا يُرفض لها طلب . عجزت عن دخول الانسانية دخولاً طبيعياً بسائلي العادية ، فقررت ان اشترى حق هذا الدخول ، وان ادفع مبلغاً من المال ليحق لي الاعتناء بهؤلاء الاطفال كأنهم ابنائي . اردت ان ادفع ثمن سبب يبرر وجودي . وكانت فكري في منتهى الفطاعة حقاً ، لكن ما حيلتي ما دعت لا اجد سيلاً آخر لارواء غليلي ؟

وبعد ان فكرت ملياً في هذا الامر ، بدأت أرى ما قد ينتظرني في وقت قريب . فالراهبات يقبلن تقدمتي بسرور ، ثم يعملن على تنحيتي واقصائي عن الروضة . لماذا ؟ لاني في هذه البيئة الصغيرة لا استطيع ان اكون إلا شكسة ، عديمة الفائدة . فهي ليست المكان الصالح لي . ولا بد للراهبات من ان يتساءلن : « ما الذي تريد ان تعمله هنا ؟ » لانهن لا يدركن حقيقتي ، لا يدركن حاجتي ...

اواه ! رأيت هذا كله بوضوح : رأيت ارتباك الراهبات المحسنات بين واجب اللياقة المفروض عليهن نحو « المحسنة » ، وبين ما يشمرن به من البعد عني ، وهو بعد له اسبابه وجذوره العميقة ، لاني لست منهن ، ولاني لا استطيع الانتماء الى جماعة ما من البشر . فعدلت عن تقديم المال . ف عندما اثبت بالآخرين لاغث منهم سعادتي واجد منهم مقاومة ، تظل المصيبة هيّةً ؛ اما ان يطرحني خارجاً الذين أسعى الى اسعادم وحدهم ، فهذا ما لا يطاق .

ولأكن جديةً وصادقة . فانا اعلم حق العلم اني لم اكن ابحت عن

سعادة اولئك الاطفال ، بل عن سعادي . اني ابحت دائماً عن سعادي ، ولا تهمني سعادة سواها . ولو قدمت هديتي لما كان الاطفال إلا وسيلة اخرج بها من نفسي ، من حقيقي . ومن المسلمم به ان التفاني في سبيل الآخرين ليس من طبيعي . ان افضل ما تستطيع الفتاة عمله عندما تبلغ من العمر ثلاثين عاماً وتسعة اشهر ، هو ان تصبح اختاً كبرى ، وان تساعد الآخرين . ويبدو ان الاشقياء يجدون في عمل الخير قوةً تخفف آلام شقاؤهم على ما يقال . لكنني اعتقد ان المرأة لا تقدم على هذا التفاني إلا اذا كان لها من ماضيها ما يشجعها - اذا كان لها ماضي امرأة نالت شيئاً من الحياة ، فجاءت تطرح في هذه الحياة التافهة ، وفي هذه العناية بالاشخاص التافهين ، قشرة من حياتها ، بعد ان امتصت كل ما كان فيها من العصارة .

اتاح لي هذا الحادث الصغير ان افهم فئة من الناس ، وان اشفق عليهم ، واعني بهم الذين يملكون مبالغ ضخمة من المال ويبدؤونها بمنةً ويساراً ، فلا يتمكنون من بلوغ السعادة . اما الذين لا يملكون شيئاً ، لا مال ولا سعادة ، فصينتهم أشد وادهى . إلا ان من تحل به هذه المصيبة يتعزى قائلاً : « لست سعيداً لاني لا املك مالاً » ، فيحافظ على حسن ظنه بنفسه . ومن لا يملك مالاً ولا يملك السعادة يقول : « ان فيّ شيئاً يبعد عني الناس ومباهج الحياة » .

من الفرنكات الألف والخمسية ، ما ازال احتفظ بألف ومائة . انفقت اربعمائة لشراء ثوب ، ولتجليد بعض الكتب ، ولشراء كتب جديدة . اشترت جميع مؤلفات « سانت بوف »^١ . اردت ان استبدل

١ - شارل اوجطين سانت بوف (١٨٠٤ - ١٨٦٩) كاتب ونقاد فرنسي . بدأ حياته الادبية رومانياً فنظم قصائد وانشيد ، ثم كرس قلبه للنقد والتاريخ الآداب . اشهر مؤلفاته : « صور ادبية » ، و « بور رويال » ، و « احاديث يوم الاثنين » .

المال ب حياة ، فاختفت على الرغم من جميع جهودي ، وما استبدلته إلا
ب « ل ا ح ي اة » . وهكذا يحاول المرء احياناً ان يكون شيئاً آخر غير
ما هو ، ثم يتراجع . فاقولّ الاعمال صعوبة هو ان يظل المرء ما هو .
ان الكلب يعود الى ما تقياً ويأكله من جديد .

أ . هـ

(رُضمت هذه الرسالة في ملف خاص من غير ان يفرض غلافها)



بعد ان قال كوستال : « نعم » ، للسيدة دنديو ، عاد الى قاعة الاستقبال في منزله ، وارتمى على احد المقاعد الوثيرة . وكانت الفكرة الاولى التي تبادرت الى ذهنه عن كونه « خطيباً » على شيء من التفاوض .

كان الباب المؤدي الى البهو مفتوحاً ، ومجاري المياه في المراض تتابع خريرها الشبيه بحرير نافورة مغربية ، فقال في نفسه : « إيه ! يا عزيزتي سولانج ، ان هذا الحرير في المراض سيكون في نطاق اختصاصك » .

ووقع نظره على بطاقة الوزن الملقاة على الطاولة ، فتناولها وقرأها من جديد ، فاحس بموجة من العطف تفيض من اعماقه ، وقال : « يا لها من صغيرة مسكينة ! لكن منذ الآن ستستعيد سمعتها الغابرة كأننا نفخناها بمضخة هواء ! »

. واستمر الصراع بين عقله وقلبه . فما استجاب يوماً لداعي الخير والسخاء ، إلا انتابته ازمة حادة من الكتابة . وكل مرة افسد عليه ملذاته وافراحه شعوره بأنه قام بالواجب ! فقد قام بعمل يدل على الشهامة منذ سبع سنوات ، ومنذ سبع سنوات ما برح يلوم نفسه على ما فعل ؛ واقدم على بادرة طيبة منذ اثنتي عشرة سنة ، ومنذ اثنتي عشرة سنة ما انفك يلوم نفسه .

رأى ، ذات ليلة ، في المنام ، ان الحرب نشبت ، وان الحكومة طلبت متطوعين ، وانه تطوع ، وبينما كان يسير في العرض مع الجنود الذاهبين الى جبهة القتال ، كانت دموعه تجري بغزارة على خديّه . ولم تكن هذه الدموع ناجمة عن فظاعة الرحيل ، بل عن فظاعة اختياره لهذا الرحيل ، وهو القادر على البقاء بعيداً عن الخطر . ذلك كان « عمل الخير » الذي يؤله ويحزّ في نفسه .

ولما تفوّه بالـ « نعم » المتعلقة بالزواج ، توقع ان تحل به ازمة من الكتابة والانهيار المعنوي ، إلا انه لم يشعر بشيء . فقد قضى الأمر ، وتبدد الشرّ المرتقب في جوّ من الشك والغموض . وجل ما شعر به ، في هذه المناسبة ، انه اصبح في موقفٍ حرج ، وان عليه ان يواجه الواقع ، وان يتدبره بالتّي هي احسن ، وان يستخلص منه افضل النتائج . هذا ما كانت تتطلبه منه الرجولة الحقيقية . وعلى هذا الاعتبار ظل هادئاً بالرغم من اقدامه على عمله الجنوني .

وراح يقول في نفسه : « على كل حال ، ستنتهي هذه المشكلة بعد سنتين . ابي اليوم في الرابعة والثلاثين من العمر ، وفي مثل هذه السن مات يسوع المسيح . جاء في الكتب انه مات في الثالثة والثلاثين ، لكني افترض انه صغّر عمره سنةً حسب العرف والعادة . وفي السادسة والثلاثين اكون قد استعدت حريتي . والمعروف عن طيباريوس^١ انه بدأ يقنعم بمهاج الحياة لما بلغ الخمسين من سنه . »

وتشئى كوستال عشاءً دسماً ليكتسب قوة تساعد على مواجهة التجربة المقبلة . واقسام طوال السهرة ينتظر مخابرة هاتفية من سولانج ،

١ - امبراطور روماني ملك من سنة ٤٢ الى سنة ٣٧ ق.م. تبناه اغسطس قيصر ، واشتهر بالمرونة والحذق في ادارة شؤون الامبراطورية ، إلا انه كان مستبداً قاسياً .

ويفكر بصوتها المرتعش سروراً . وكان يبسم مرتاحاً فتكاد الكلمات التي سيقولها لها تخرج مسبقاً من بين شفثيه : « لك التهئة ، يا صغيري ، فقد انتصر عنادك ! انت بغلة البيت العائلي التي يتغنى بها الناس الطيبون !... ومنذ اليوم ، لا بد لي من اخفاء مخطوطاتي عن ناظريك ، كما كان يفعل تولستوي مع زوجته ... »

لكن جرس الهاتف لم يرت . فدهش كوستال ، واحس بشيء من الحيرة ، ثم فكر : « ربما كانت مدعوة الى تناول العشاء خارج البيت » .

وفي اليوم التالي ، لما اتصل هاتفياً بالكاتب العدل ، الساعة التاسعة والنصف ، ليتفق معه على موعد ، لم تكن سولانج قد اتصلت به بعد . واستمر صمتها بعد الغداء ، فراح يخاطب نفسه قائلاً : « ما برحت متشبثة بي منذ ثمانية اشهر لتسمع مني كلمة « نعم » ، فلما لفظت هذه الكلمة لم تُسرر بها . لو كانت لي معرفة بنفوس الناس تساوي قرشين لحزرت مسبقاً ما يحدث الآن . لكنني لا املك من المعرفة ما يساوي قرشين . والمعلومات « النفسانية » التي يضعها الروائيون في مؤلفاتهم أصبحت معروفة ، فما هي إلا ذر رماد في العيون من ألفها الى يائها . لن انسى هذه الصدمة مها يكن المستقبل حافلاً بالمباهج ؛ لن انسى اني ، حين اعطيتها ما كانت تتوق اليه نفسها بكل ما فيها من حرارة ، لم تفكر بان تتناول سماعة الهاتف لتقول لي كلمة شكر .

« هي البعيدة كل البعد عن اجواء العاطفة والخيال اصبحت الآث في قلب مغامرة جذيرة بان تكون موضوعاً لرواية ؛ وانا الشديد الحذر اوقعت نفسي في ورطة كنت بغنى عنها . ان المتردين ياطلون ويناورون طوال اشهر عديدة ، واخيراً يستولي عليهم العياء ، فيتخذون قراراً اعتبارياً ، ويسبرون في الاتجاه الأشد خطراً . فالفرار الى الخطر هو ردة فعل الضعفاء . وكل ما اعرفه عن نفسي يقنعني بانني لست متردداً تستبد

به الحيرة ، ولا ضعيفاً . غير انها جرّتي الى ميدان ليس هو ميداني ، وهذه هي اساءتها الكبرى اليّ . مها يكن الضابط في القوى البرية شجاعاً ، فقد يصبح عاجزاً عن العمل اذا وُضع في طائفة او في غواصة . لكل منا جوهره الخاص ، ومجاله الخاص ، ولا يجوز اخراجه منها .

كثيراً ما تستولي الدهشة على بعض المفكرين عندما يلمسون حماقة بعض القادة العسكريين الذائعي الشهرة ، وبعض مارشالات فرنسا عندما يكونون خارج نطاق اختصاصهم . غير ان هذه الحقيقة يجب ان تظل سرّاً ، وإلا حُرم من يبوح بها ارتداء الثوب الاخضر^١ ، وهذا هو الشقاء الاكبر الذي يعانیه المفكرون . اذا نظرنا الى غالياني^٢ ، من خلال ما قاله فيه ليوتي^٣ ، رأينا انه لم يكن من هذا النوع . فقد روى لنا ليوتي نادرة عن غالياني جديرة بالتسجيل والحفظ ، خلاصتها ان ليوتي كان يوماً في تونكان^٤ يتأهب لخوض معركة في اليوم التالي . ولما شرع يتحدث عن الخدمة والاستعدادات العسكرية ، قال له

١ - فوب من ينتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية .

٢ - جوزف غالياني (١٨٤٩ - ١٩١٦) مارشال فرنسي ، خدم في السودان وتونكان ، ونظم جزيرة مدغشقر ، وعيّن حاكماً عسكرياً لباريس عام ١٩١٤ ، وساهم في انتصار القوات المسلحة الفرنسية في معركة المارن . تولى وزارة الحربية من عام ١٩١٥ الى عام ١٩١٦ ، ورُقيّ الى رتبة مارشال عام ١٩٢١ ، ابي بعد وفاته بجنسة اعوام .

٣ - لويس هوبير ليوتي (١٨٥٤ - ١٩٣٤) مارشال فرنسي ، لمع في الهند الصينية ، ومدغشقر ، والجزائر . من عام ١٩١٢ الى عام ١٩٢٥ ، نظم الحماية الفرنسية في المغرب ، وصارت هذه الحماية بقوة خلال الحرب العالمية الاولى ، بالرغم من جميع المحاولات التي قسام بها الألمان لبيسطوا نفوذهم على افريقيا الشمالية . تولى وزارة الحربية من عام ١٩١٦ الى عام ١٩١٧ ، وكان عضواً في الاكاديمية الفرنسية .

٤ - من مناطق الهند الصينية ، وتعرف اليوم باسم فيياتنام . كانت مستعمرة فرنسية .

غالياني: «دع عنك هذا الآن، فالأوامر قد صدرت، وكل ما يجب عمله قد تم، ولا فائدة من العودة الى البحث والتدقيق. انك مثلي في ميسس الحاجة الى الاحتفاظ بقدرتك على التفكير. فلتحدث عن ستيوارت مل^٣، وسنرى ما يحدث غداً». قال هذا، واخرج من معطفه كتابين، احدهما لستيوارت مل^٢، والثاني لدنوتزويو^١.

تلك بادرة لا تبدو إلا من رجل عظيم. واراهن على انه كان ينظم قواته افضل تنظيم، ما دام ينظم نفسه بمثل هذه القوة. كان يسيطر على الاحداث كما يسيطر على نفسه.

وكان من المقرر ان يلتقي كوستال سولانج في ذلك المساء. وما دام قد اتخذ قراره، فليغم، على الأقل، ما يغنمه الناس عادة من القرارات المتخذة، اي راحة الفكر، وحرية التصرف في شؤون اخرى.

من الساعة الثانية الى السابعة بعد الظهر، أكب على تنقيح روايته الاخيرة، كأنه لم يظراً على حياته شيء جديد. وبلغ من حرية التصرف حد التفكير بطريقته في حب النساء، فوجد لروايته عنواناً هو: «الاحتقار في الحب».

ولما وصلت سولانج الى منزله ارتعش من رأسه الى قدميه، فقد كان ثوبها فضفاضاً عليها، خصوصاً حول نحورها وردفيها. ويا لوجهها كم تغيرت!

١ - جون ستيوارت مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) فيلسوف انكليزي من المدرسة الاختبارية، وضع دراسة ضخمة عنونها: «المنطق بالاستقراء والاستنتاج».

٢ - غيبرالي دنوتزويو (١٨٦٣ - ١٩٣٨) كاتب ايطالي شعري النفس، تغنى بالحب وبالإحساس السادة. اشهر مؤلفاته: «انتصار الموت»، و«ابن الشهرة»، و«عذارى الصخور»، و«النار»، فضلاً عن قصائد عديدة امتازت بالحرارة ورفافة الشعور. كان من اشد الداعين لدخول ايطاليا الحروب العالمية الاولى الى جانب الحلفاء.

رقّ عنقها ، والتصق جلدها بعظم فكّتها ، وتراخت ملاحظها ، وزادها تبرّجها دمامةً . فلا عجب اذا كانت قد احست بمحاجتها الى التبرّج . وكانت تلك المرة الاولى التي رآها فيها متبرّجة . لكن لا تسل كيف تبرّجت ! فقد طرشت وجهها بالبودرة بلا عناية ، فلات بها اذنيها . فلما خلعت قبعتها مسحت بها جانباً من جبهتها التي اصححت بلونين ، احدهما اصفر والآخر ابيض ، فكانت جبهة تجلّس فيها عَلمُ البابوية . اما تسريحتها فكانت تسريحة زوجة شابة ، ارادت ان يسبق مظهرها الحدث السعيد .

قام اليها وضحا برفق ، وبنوع من العطف ، ثم جلسا على مقعد طويل ، فامسك يجلد مرفقها بين ابهامه وسبابته وشده قليلا ، ثم جعل يمازحها بارتباك ، قال :

— يا صديقتي المسكينة ، ما الذي حلّ بك ؟ منذ هذا اليوم سأراك تستعيدين عافيتك واكتناز جسمك . ستسمنين كخطيبة يهودية في تونس ، يعلفها ذورها علف الدواجن المعدّة للولائم ...
ابتسمت له قليلا ، ثم عاد وجهها الى خموده السابق ، وران عليها الصمت .

لم يدر ما يقول لها . وكان يبدو له ان من شأن ما حدث بينها ان يفجّر احاديث طويلة وكلمات عديدة ، لكنه لم يفجّر شيئاً . فاذا به متصنع ، مرتبك ، خجول امام « زوجته » . وكان هذا وضعا لم يجد نفسه فيه إلا مرة واحدة ، في بداية حبها ، لما ذهب معها الى الاوبرا الهزلية .
قال لها :

— اخبريني ، أمسرورة انت ؟
فلم تجب . لكنه احس بيدها الباردة تنساب الى يده وتستقر فيها ، كما تأوي الافعى الى جراب الحاوي .
وبعد قليل نهضت قائلة :

- أسمح بان ارتدي معطفي ؟
 — أشعرين بالبرد ؟
 — ليس الجو حاراً في منزلك .
 — اشتغلت من الساعة الثانية الى الساعة بلا حركة ولم ابرد ...
 — ليست صحي علي ما يرام ، يا صديقي ، فارجو ان تعذرني . اما
 بانت فان العافية تتدفق منك . ايطاليا كلها مصورة في وجهك !
 ولم تنتظر منه جواباً ، بل سبقته الى البهو . وما كاد يفكر بعبارتها
 الاخيرة حتى لمس ما فيها من التوبيخ الحفي ، ومن البرودة ، اجل ،
 برودة الدم ، وبرودة القلب .
 ولما جلسا الى مائدة الطعام تنهد قائلاً :
 — سنقوم برحلة صعبة ، محفوفة بالاحطار . فعلينا ان نقود سفينتنا
 على طريق الحياة الطويل ، وان نجتنب الغرق .
 فادارت وجهها اليه ، وحدجته بنظرة فيها الكثير من الشفقة ،
 والاباء ، والعياء ، وقالت :
 — طالما اشتهيت اقناعك بان هذه الرحلة ليست بخيفة بقدر ما تظن !
 — لا ، لن تكون خيفة . ثم اننا بحثنا هذا الموضوع كفاية ، ولم
 يبق لنا فيه ما يوجبنا الى ذكره . لكن لي بعد كلمة اخيرة : اطلب
 اليك وعداً اريده من اعماق اعماقك ، واناشد افضل ما فيك من المزايا
 والجوهر ان تعديني بان لا تحاولي الاساءة اليّ يوماً ما ؛ وانا بدوري
 اقطع لك وعداً مماثلاً في هذه الساعة . اذا كانت في الدنيا كلمات
 صحيحة وبالغة منتهى العظمة ، فكلمتي هذه منها . إلا اني اسائل نفسي :
 أعظيمة حقاً هذه الكلمة ؟ كم لفظ الناس كلمات مثلها منذ أن كان
 العالم !
 — قطعت لك هذا الوعد العميق مرةً ، وها انا اقطعه لك من
 جديد . وبعد ، فدعنا من هذا الموضوع ، فانت علي حق في دعوتك الى

الابتعاد عنه .

تناولا طعامها صامتين ، ثم طال صمتها .

وكان كوستال يخاطب نفسه قائلاً في سرّه :

« وقعة الخطبة هذه لا يقوى عليها النسيان . ومن الواضح ان كلمة « نعم » التي قلتها لامها لم تفرحها . اشوش حياتي واضيع ايامي لاجلها ، فتذهب بإدري سدىّ ولا تمنحها شيئاً من السعادة . وهذه قاعدة عامة في تصرف النساء . يجازف الرجل بحياته وبسمعته بين الناس ، فيخطف فناة قاصرة في ساعة حماسة ، او بعد اسابيع من الاستعداد ، والقلق ، ووضع الخطط ، وحين يضمها بين ذراعيه ، بعد ذلك العناء الطويل ، تبدو كأنها هي التي تجود عليه باللقاء ، في كثير من البساطة ، ورباطة الجأش . ومن المؤسف حقاً انها لا تدرك ، او تتجاهل ، ما بذله صاحبها ليصل بها الى هذا اللقاء .

« ومهما يكن من الامر ، فاننا سنسافر الى جنوى لتمضية ايام العسل . هذه قضية مفروغ منها ، ولم يبق علينا إلا تقرير المسائل البسيطة التي لا اهمية لها . ومن الموافق ان نذهب الى جنوى . وبقدر ما يقل الحديث بيننا ، تزداد حاجة سولانج اليّ ، وتبقى لي فسحات من الوقت لاهتم بالاشياء العزيزة عليّ ، وهي ، طبعاً ، اشياء اخرى ، غير سولانج » .

كانت الآنسة دندير تتناول طعامها في صمت تام . ومن حين الى آخر كانت ترفع يدها كأنها تقي بها عينيها من النور ، غير ان غايتها الحقيقية من هذه الحركة كانت اخفاء ما حلّ بوجهها من الشحوب .

لا ، لم تكن تشعر بالسعادة ، لان انتصارها كان مهيب الجناحين . تأملت طويلاً لتتال ما تشتهي ، فلما بلغت غايتها كانت مرهقة ، فلم تنعم بالفرح الاكبر . ثم انها كانت مرتكزة ، منذ ثمانية اشهر ، على مقاومة كوستال ، فلما استسلم ، فقدت توازنها .

استسلم؟ اجل، استسلم! وها هو الآن الى جانب شخصيته الحقيقية؛
ها هو خجول ومرتبك امام سولانج!
ما كان اضعف هذا الملقب بـ «الرجل القوي» في اخبار الصحف!
أترأه يستطيع الدفاع عن بيته الزوجي، وعن مصالحي عائلته، اذا ظل
منقاداً كما هو الآن؟

ربما كانت سولانج قد احترمتها لعجزها عن ترويضه كما تشاء. وهي
تحترمه الآن، ولا ريب، لسبب آخر: فقد ادركت انه لم يقدم على
ما اقدم عليه إلا مدفوعاً بعامل الأريحية. إلا ان هذا الاحترام كان
مضطرباً، قليل الصفاء. فالصراع الدائم في الرجل بين أريحيته وأثرته،
بين دمه ومنيته، يخلق فيه جواً من البلبلة والتشويش يرهب المرأة،
ويبهرها، ويثير شفقتها.

وفي تلك الفترة، كانت الأنسة دنديو في مرحلة الشفقة. كانت
تجتز افكارها في ذهنها وهي تأكل بصمت، وتبذل جهداً كبيراً كيلا
تحك يديها ومعصمها. فننذ بضعة أيام اصبحت بحكاك نجم عن توتر
اعصابها وفقر دمها، فخذشت كفيها تحت الابهامين وما بين اصابعها من
شدة الحك.

وهكذا انقضت الوقعة الاولى من عهد الخطبة، وكانت وقعة لا
تنسى. كانا يأكلان وامامها شبح رهيب ذو رؤوس عديدة: رأس
السأم، ورأس الانزعاج، ورأس الواجب، الخ... او كأنه تمثال
القومندور في وليمة الحجر^١.

١ - اشارة الى مشهد من تمثيلية «دون جوان»، ار وليمة الحجر» لموليار.
وفيه خلا دون جوان باحدى ضحاياه، وكان تمثال ابينا هناك، فدعاها
الى تناول الطعام معها على سبيل الامعان في الاستهتار، فتحرك التمثال
ملياً الدعوة. ويعتبر هذا المشهد من اشهر مشاهد الرعب التمثيلية.

قال كزانوفا^١ ان الامراء كانوا يعانون السأم دائماً في معاشره خليلاتهم . أفبتقتصر هذه المصيبة على الامراء ؟
 لم يكن كوستال ، تلك الليلة ، راغباً في امتلاك هذه الفتاة الكثيرة ، الشاحبة ، الذابلة ، المصابة بالدمامل ، مع انه كان يشعر من حين الى آخر بحرارة عابرة تلهب دمه وتثير شهوته لحظة سريعة كلها عذوبة . وهي ايضاً لم تكن راغبة في الوصال ، لا لأنها لا تجد فيه شيئاً من المتعة ، بل لانها كانت تدرك الحبية التي سيُخنى بها كوستال إن هو اقدم على مضاجعتها ، وهي على ما رأينا من الضعف والشحوب . إلا انها بدأت تحسب حساب الغد — بدأت تستعد لتكون بارعة التصرف : استحمت مرتين ، ففتح الماء البارد عينيها المتعبتين . ولما اعتذرت بانها مصابة بالدمامل ، وبانها تفضل الخروج من البيت والقيام بنزهة « في مكانٍ ما » ، وافق على طلبها بطيبة خاطر . واتفقا على الذهاب الى المكان الذي لا مفر منه : الى السينما . لكن اي فيلم يشاهدان ؟ تلك كانت المشكلة ! واخيراً قرّر رأبها على شراء مجلة « اسبوع باريس » لمعرفة الافلام التي تعرض في مختلف دور السينما .

يجهد الناس نفوسهم اكثر من اللزوم ليقتلوا حياتهم ساعةً بعد ساعة . إلا أنهم يعجزون عن القيام وحدهم بهذا القتل ، فيحتاجون الى من يوجههم ويساعدهم . وقد أنشئت مجلة لهذه الغاية ، تدل الباريسيين بكل دقة وانتظام على الوسائل التي تمكّتهم من اضاعه اوقاتهم . انها مجلة تقدم بمهنتها على الوجه الاكمل ، وهي حسنة التبويب ، عملية النزعة ،

١ - اسمه الكامل جيوفاني جياكومو كزانوفا دي سنغال (١٧٢٥ - ١٧٩٨) . مفامر ايطالي ولد في البندقية ، واشتهر بالحوادث الغرامية المدهشة حتى ضرب المثل بقدرته على الاغراء والفتنة . روى قصة حياته في « مذكرات » ترجمت الى اكثر لغات العالم .

يُجد القارئ فيها بسهولة ما يبحث عنه . ومن المدهش ان الذين يتولون تحريرها واصدارها فرنسيون .

لما خرجا من البيت ، جعلت سولانج تتصفح « اسبوع باريس » ، ثم قالت :

- هناك فيلم « السيد فان المدهش » ، والناس يتحدثون عنه كثيراً .
- فيلم اميركي !... أتريدن ان اتقياً عشائي؟... اي خطيئة تترتكب بحق الفكر افطع من وضع الكمال التقني والفني في خدمة البلاهة والسخافة ؟

- وما رأيك في « شرطة الاخلاق » ؟

- كم مرة يجب ان اقول لك اني لا استطيع ان اشاهد فيلماً فرنسياً . ألم تجدي فيلماً انكليزياً ؟ فالافلام الانكليزية تنقذ شرف السينما . ومثلو السينما الانكليز ، من رجال ونساء ، هم والروس الاولوت في اوروبا ؛ انهم يمثلون على الطراز الرفيع بطريقة طبيعية ، ولا يعرف اسماءهم احد ، بينما العالم بأسره يردد اسم قبحاء من هوليوود خالية من المواهب ، ولم تشتهر إلا لأن الذين اطلقوها بذلوا الملايين في سبيل الدعاية لها .

- هوذا فيلم باللغة الانكليزية اسمه « رنباو » ...

- فلنذهب اليه .

ولما وقفت بها سيارة التاكسي امام الدار التي تعرض هذا الفيلم في حيّ مونبرناس ، التقى كوستال نظرة على الواجهة ، وقال :

- إيه ! يبدو لي ان هذا الفيلم عاطفي ، وعندما يجتهد الانكليزي ليكون عاطفياً ، فلا بد له من الوقوع في السخافة والابتذال . يجب ان اعلم أولاً ما هو موضوع هذا الفيلم .

وطلب الى الفتاة التي تبيع اوراق الدخول ان تسمح له بالقاء نظرة على البرنامج ، فسألته :

- أتريد ان اقطع لك ورقتين ؟
- اشترى ورقتين اذا اطلعت على البرنامج واعجبني ما فيه .
- لا يُعطى البرنامج إلا للذين حجزوا مقاعدهم .
- لا اطلب منك ان تعطيني البرنامج ، بل ان تبيعني اياه .
- ان البرنامج لا يساع ، بل يُعطى عطاء . اشترِ ورقتين اعطك اياه . اعمل ما يعمله الجميع .

فكاد ينفجر غيظاً . ثم استدار ومضى في سبيله يحمر وراءه سولانج .
ولما اصبح في الشارع ، قال :

- أليس هناك فيلم تجري حوادثه في الغابات والادغال فنجد في مناظره ، على الأقل ، ما يغنيننا عن القصة ؟

- بلى ، هناك فيلم « ساحر سكرامنتو » ، واطنه من نتاج اميركا الجنوبية ... (كذا) ؛ وهناك ايضاً « ليلة في وايكيكي » . هل وايكيكي ...

فقاطعها بنزق قائلاً :

- نعم ، وايكيكي جزيرة في اوقيانيا . هكذا يقولون . فلنذهب الى وايكيكي . ايها السائق ، خذنا الى وايكيكي .

وانطلقت بهما السيارة الى الشانزليزيه . ومن حين الى آخر كان يأخذ يدها بحركة عصبية . وما كادا يصلان الى امام دار السينما حتى نظر الى الصور المعروضة في الواجهة وقال :

- لم تخبريني بان هذه البغي القذرة تمثل في هذا الفيلم ما اجملها متكررة تتخذ اوضاعاً فنية في الغابات البكر ! ... لا ، يا سولانج ! فكّرني بي كما يطيب لك ، لكن اعلمي انه يتعدّر عليّ ان اشاهد هذه

١ - هذا الفيلم فرنسي ، وقد 'شدعت سولانج باسمه فاخطأت ، وكان خطأ ما سبباً لتهم كروستال وسخره .

القردة طوال ساعتين . هذه تجربة تفوق قواي ، ولا قبل لي بها . عودي الى البحث في « اسبوع باريس » . ألا تجددين فيلماً روسياً ؟ اذا وجدتِ فيلماً روسياً فاني ادعك بالذهاب اليه ، وبمشاهدته الى نهايته .

— هناك فيلم « نوتيو نهر الفولغا » .

— هذا ما كنا تبحث عنه .

وانطلقت بها السيارة من جديد ، فشرعت سولانج تدندن بلحن نشيد النوتيين ، كما كانت في جنوى تدندن بلحن « سولي ميو » . ففكر كوستال بان في كل امرأة قجباء مستعدة دائماً للظهور ، وبان ظهورها يبدأ عندما تبدأ المرأة تدندن بالألحان .

وفي بولفار الايطاليين ترجلا من السيارة ، وألقيا نظرة على الاعلانات ، فتبين لهما ان جميع الممثلين فرنسيون ، وان الفيلم روسي الموضوع ، غير انه من انتاج مدينة جوانفيل الفرنسية .

وقفت سولانج امام احد الاعلانات ، ووقف كوستال ينظر الى اعلان آخر على مسافة بضعة امتار منها ، فصفّر لها لتأتي اليه كما يصفر القواد لاحدى بغاياها ، فانتفضت وسألته :

— أندخل ؟

وكان العياء ظاهراً في ملامحها يزيد قسماً وجهها توتراً ، فاجاب :

— ابسداً !... لن اشاهد المهازل الفرنسية .. لن اشاهد متشردين

تافهين ، ومتنكرين بشباب امراء روسيين ...

وجعل يضرب الارض بقدميه من شدة الغيظ . وكثيراً ما كان يعبر عن غضبه بهذه الطريقة ، كالاطفال وكلوك الفرس .

قالت له :

— لندخل ، اذاً ، الى احد المقاهي .

وكان دمتل قفاها ينخسها ويؤلها لشدة ما خضسها ركوب التكسي ، ناهيك بان هذا الرجل ارهقها ، ارهقها حتى الموت بما فيه من نزوات

الطفل المدلل ، إن لم تكن نزوات العازب المزمع ، او نزوات الفنان المتحذلق . واتعمتها دقته في التوقيت كأنه فيلياس فوخ^١ ... بقدر ما اتعبها رماد سيكارتته الذي كان يتساقط في كل مكان : على معطفها وعلى قفازها ، كأنه الروث ... واتعمتها اخيراً غلاظته ، وقلة تهذيبه .
اجابها بعنف :

— لا ، لم تتجول في جميع احياء باريس لننتهي الى الجلوس في مقهى . لتتابع سيرنا في البولفارات ، فهناك دور سينما عديدة ، وقد نجد فيلماً جديراً بان نشاهده .

تأبطت ذراعه ، فاستفطع بادرتهما هذه ، وخيّل اليه انها تقول له : « اني قابضة عليك ، فالى اين المفر ؟ » واطبق يده على معصمها ، فما احس بشيء من المتعة ، كأنه قبض على جانب وسادة من المطاط . ولو لامست يده معصم امرأة اخرى من اولئك اللواتي يملأن الشارع لارتعش جسمه وثار في الشهوات ... لم يكن ينظر الى سولانج ، بل الى نفسه ، الى اعماقه ، ثم الى النساء الاخريات اللواتي لا يملكهن . ولم يكن يحب الانسة دنديو . كل ما في الامر انه احب فترة عبرت من حياة الانسة دنديو .

استرعى انتباهه اعلان مضيء عن فيلم نمساوي ، فتوقف . ولما اقتربا من مدخل السينما رأيا الناس صفاً طويلاً ينتظرون دورهم لشراء بطاقات الدخول . فاعلن كوستال انه مستعد لمشاهدة هذا الفيلم ، غير انه يرفض الوقوف بالصف لينتظر دوره ، ثم قال :

— لا بأس اذا انتظر المرء دوره ليحضر مسرحية ، او حفلة

١ - بطل قصة «دورة حول الارض في ثمانين يوماً» لجول فيرن . وميزته الارلى حرصه الشديد على توقيت تنقلاته بكل دقة مها تراكمت على طريقه الصعوبات .

موسيقية ؟ اما ان يقف بالصف على باب السينما ، فهذا ما لا ارضى به .

والمعروف عن الفرنسيين انهم شديدا الحرص على التمييز بين اصناف الانتاج الادبي والفني ، فثمة اصناف نيلية ، واصناف اقل نبلا ، الخ ...
وتابعا سيرهما ، فراح كوستال يفرغ الغيظ المتراكم في صدره ...
راح يفرغه ضحكا وتكيتا ومزاحا . كان رجلا يؤمن بالانضباط ويطبقه على حياته . كان رجلا يعتقد ان كل ساعة من العمر لها قيمتها ، ويجب ان تؤدي الى كسب شيء ، او الى عمل شيء ، فكيف تراه صرف الساعتين الماضيتين ؟

اجل ، لا بد له من الضحك والمزاح ، اذا كان لا يريد ان يستولي عليه الغضب .

في بولفسار « بون نوفيل » ، رأيا سينا صغيرة تعرض فيلما روسيا ماثوه روسيون . إلا ان الدار حقيرة ، ورسم الدخول اليها ثلاثة فرنكات .
قال كوستال لصاحبه :

— لا استطيع ان ادخلك الى سينا من هذا النوع ا
وكان يأمل ان تجيبه : « لا اهمية لرسم الدخول ، ما دمنا قد وجدنا فيلما يعجبك » . غير انها ضحكت ، وكانت ضحكتها تعني الموافقة على قوله ، مما يدل على انها لم تكن خالية من ذلك الحب السافل للبخ ، ومن ذلك الخضوع الارعن لما يجري « حسب العرف والعادة » !
قال لها :

— لنعد من حيث جئنا .

وعادا يسيران في البولفارات ، وقد بلغ النيظ في نفس كوستال حدود الانفجار . فهذه السهرة لا تطاق إلا اذا انقلبت الى مهزلة . ان رجل الفن الحقيقي يتم احيانا بالدور الذي يقوم به في مناسبة معينة اكثر من اهتمامه بشخصيته الحقيقية . وفي مثل هذه الحال يجب عليه ان

يقول للذين حوله ما يقوله ابن مرسيليا في القتال : « امسكوني كيلا اضرب ! » وعلى الكاتب ان يظل جدياً في نظر الشعب ، مها يكن خفيف الروح ، ميالاً الى المجون ، لانه اذا تخلى عن جده خسر هيئته ، على الرغم من قول فكتور هوغو :

« يظل الارب عظيمًا عندما يقمته ضاحكًا » .

وكانا قد وصلا الى جوار سيدنا في حي « مادلين » تعرض افلام الاخبار العالمية ، فقالت سولانج :

— ما رأيك في هذه ؟ ليس في الاخبار ما يزعج .

فاجاب ، وهو يسحب ساعته من جيبه وينظر اليها :

— الساعة الآن الحادية عشرة والنصف . وانت متأمة من دمّل قفاك . وترتكب خطيئة اذا تأخرنا في ارسال هذا القفا المريض الى الفراش . ثم ما الفائدة من دخولنا الى السيدا للاقامة فيها نصف ساعة ؟ وكانت هذه الكلمات من النوع الذي لا يتمخض به سوى دماغ زوج عتيق من عباقرة الحياة الزوجية . فكادت سولانج تحتنق غيظاً ، وقالت في نفسها : « آه ! انه نُخلق ليكون زوجاً . واستعداده للقيام بهذه المهمة اعظم بكثير مما يظن ا » وبعد ان جرّت نفسها بضع خطوات هوت جالسة على الدرج الحجري الى جانب درابزون كنيسة « مادلين » .

وجلس كوستال الى جانبها على الحجر ذاته . وكان المارة عديدين في تلك الساعة ، فجملوا ينظرون بدهشة الى ذينك الشخصين الحسنين الهندام ، الجالسين على درج كنيسة مادلين ، كما يجلس الريفيون المتعبون على ادراج المعارض في هذه الليلة الباردة من كانون الثاني . فاطلق كلامها معاً ضحكة مرحة ، ثم خلع كوستال قبعته ووضعها مقبولة بين ركبتيه قائلاً :

— ارجو ان يلقي فيها المحسنون صدقاتهم .

وجعل يقلّد المتسولين فيقول :

خمسة قروش ،

خمسة قروش ،

لنقيم بيتنا الزوجي !

وظلاً جالسين بعض الوقت . غير ان ضحكها كان قد خمد واضمحلاً ، فلزما الصمت . ثم شرعت سولانج تمزق « اسبوع باريس » ارباً ، وتضعها بكل عناية الى جانبها على الحجر . ورأى كوستال انه من الضروري ان يحول دون انقلاب تلك الفترة الى الكأبة ، فصاح بسرور :

— اجل ، اني رجل فكر وقلم ، واني أفضل هدية 'تقدم الى فتاة مثلك ! لقد دفعتني قوة خفية ، خارجة عن ارادتي ، الى بناء السهرة الاولى من ايام خطبتنا كما تبني التمثيلية المرحة او الفلم السينمائي . اعترفي بان ابتكاراتي الفكاهية كانت موفقة . وها انت تشتركين معي في هذا العمل ، وتبتكرين هذه الجلسة على الحجر . وما اطرف طريقتك في تمزيق « اسبوع باريس » ، فقد جاء فيها اللون العاطفي بعد اللون الهزلي ... لا ريب في ان كلاً منا خلق ليتفاهم مع الآخر .

فرددت قوله بهدوء وعدوبة :

— اجل ، كل منا خلق ليتفاهم مع الآخر .

ورافقها الى بيتها . إلا انه لم يصل معها الى سطح الدرج كما كان يفعل في ما مضى . لقد اصبحت احاديثها الطويلة ، ساعة الافتراق ، في عالم الماضي البعيد . وقبل ان يفترقا سأله :

— متى نلتقي ؟

لم يجب فوراً ، بل جعل يقيس نوع العذاب الذي يبعثه هذا السؤال عندما يطرحه علينا شخص لا يهمن امره ، ولا يحرص على الاحتفاظ به . آه ! ما اجل وما اعذب ان يفترق المرء عن شخص من غير ان يكون مجبراً على الاتفاق معه لضرب موعد آخر !

ولما عاد الى منزله ، نظر الى وجهه في مرآة المنسل ، فرأى لطخات حمرة حول شفتيه ، فمسحها بالمنشفة فتاوتت .

وراح يفكر بان سولانج لم تكنفِ بتحمير شفتيها - وكانت تعلم انه يكره هذا النوع من التبرج ويحتقره - بل استعملت حمرة من الصنف الرخيص ... فما اقبج ان يرتكب المرء حماقة وان يكون احق في ارتكابها اتبأ لها ! تركته يتجوّل معها اربع ساعات في شوارع المدينة ، وهذه الحمرة حول شفتيه ! فلما انها لم ترّ الحمرة ، وهذا أمر يدل على انها بلهاء ، او انها رأتها ولم تنبّه اليها خوفاً من إغضابه ، وهذا ادمى بكثير من البلاءة .

قال في نفسه : « اعطى في الوف القبل فما ظهر عليه شيء . وكانت قبلة واحدة من فتاة حمقاء كافية لتفضحه ا »

وتذكر ضحكتها حين حدثها عن السيئا الرخيصة ، فتبين له بوضوح ما تسّم عليه هذه الضحكة من السخافة ومن عنجبية المرأة التافهة التي لا تذهب الى سيئا رسمُ الدخول اليها ثلاثة فرنكات .

وتراءت له تلك اللطخات الحمر على شفتيه كأنها بقايا دم تقيأها فم جريح في الحرب ... وخيّل اليه انه هو ايضاً جريح ، وان جرحه بالغ الخطر .

ذهب وراءها لوقته كثور يذهب الى الذبح .

سفر الامثال ، الاصحاح السابع ، الآية ٢٢ .

– هل بين الناس من تتحدث اليه اقل مما تتحدث
الى زوجتك؟ – لا احد تقريباً .

اكسينوفون^١ ، علم الاقتصاد ، الجزء الثالث ، الفصل

الاول .

والآن ، اليّ بالديانة والحرفات ، بالأدب والتاريخ ! ولنتحسس حساسة
تستحق الذكر ! كيف انتقد الثقافة ، بعد اليوم ، ما دامت تحلتي مرارة
حياتنا اليومية ؟

في المكتبة الوطنية ، بينما كان الموظفون يفرغون قوارير العطور ولا
يتمكنون من التغلب على رائحة النتانة التي تفوح من رجال الفكر ، كان
كوستال يفرس كتباً طال وقادها في الغبار كزجاجات الخمر الممتقة ،

١ م مؤرخ وفيلسوف وقائد آثيني ، ولد حوالي سنة ٤٢٧ ق.م. وتوفي حوالي سنة
٣٥٥ . تلمذ على سقراط ، ولع في حرب البيلرونيز حيث قاد تراجع الجيش
الآثيني . ثم قاتل مواطنيه في كوروني فنفوه ، ولم ينفوا عنه إلا بعد عشرين
عاماً . ألّف كتباً قيمة ، منها : « انا باز » ، و « كبرو بيديا » ، و « ذكريات
سقراط » ، و « علم الاقتصاد » .

ليطلع على العادات والتقاليد والحرفات المتعلقة بالزواج ، في العصور القديمة ، والقرون الوسطى ، وبلاد الشرق ، الخ ... فقد اراد ان يعصر بعناية واقع الزواج ليستخلص ما فيه من الشعر الحقيقي والزائف حتى القطرة الاخير .

كان ممسكاً بقلمه ، يلخص ما يقرأ ، ويكتب ملاحظاته ، ليكون « الشيء » الذي ينوي بناءه متين الاساس ، قادراً على الصمود في وجه التجارب .

ولما خرج من المكتبة الوطنية ، ذهب الى مكتب الكاتب العدل ، وكان كاتب آل دنديو قد خاربه هاتقياً .

ولم يستطع الكاتب العدل إلا ان يصارح كوستال بان السيدة دنديو كانت مثال التساهل في هذه القضية . فهي ايضاً لها « صفاتها السلبية الرفيعة » : لا شريرة ، ولا مغرورة ، ولا مغرصة ، ولا انتهازية . ولكن كوستال لاحظ انه لا يقل ترفعاً عن السيدة دنديو . واذا كانت هي لم تسأل عن ثروته وممتلكاته ، فهو لم يسأل عن قيمة الاسرة التي يدخل فيها . فربما كانت السيدة دنديو ربيبة احد بيوت البغاء ؛ وربما كان المرحوم اخوها قد سافر الى مدغشقر لان سجله العدلي غير ناصع البياض . وقد رضي الجانبان بان يتم عقد زواجهما في الظلام . لكن من المزعج ان تكون السيدة دنديو كريمة الى هذا الحد : فالرجل النبيل ، عندما يأخذ ويعطي في سوق التجارة ، يحرص على ان تكون الخسارة في جانبه .

وعلا بنصيحة الكاتب العدل الذي هاله جهل كوستال في شؤون الزواج ، ذهب هذا الى دائرة شيخ البلد ، فاعطاه الموظف المسؤول فيها ورقة صفراء تتضمن « معلومات عامة تتعلق بالزواج » . غير ان هذه الورقة المثلثة بالنبوغ الاداري الفرنسي لم تكن مفهومة . كانت شبيهة بالبيانات المتعلقة بالضرائب . والشيء الوحيد الواضح فيها ان الزواج نوع

من اصدار « الاسهم » .

وعاد كوستال الى الكاتب العدل ليحصل على تفسير لما في الورقة الصفراء . ففي جميع هذه الامور يستطيع الاستعانة بنصائح الناس . إلا ان هناك قضية واحدة لا يستطيع ان يطلب بشأنها نصيحة من احد هي قضية ابنه .

ان سولانج التي لا تحب الصبيان ان تحب برونيه . وبرونيه سينقم على سولانج ، او انه سيحبها اكثر من اللزوم ، وهذه سعادة كبرى . غير ان من يحترم ابنه لا يعرضه لمثل هذا الخطر . ومما يكن من الامر ، فان وجود هذه الغريبة بين الابن والأب شيء في منتهى الفظاعة ! لماذا جعل من ابنه سراً مكتوماً ؟

لأنه يحبه ، ولا يريد ان يكون موضوعاً للتساؤل ، او ان تكون تربيته لهذا الابن مادة لمناقشة . لذلك أصر اصراراً شديداً ، اصراراً يفوق التصور ، على الاحتفاظ بهذا السر ، كما يحرص بعض الشعوب على حجب النساء عن عيون الناس .

اما اذا تزوج فسيبتدل كل شيء ، ويتعذر ابقاء برونيه بعيداً عنه . واذاً ، فسيتعمر برونيه في هذا الخليط من التافهين ، ومع هذه المرأة الشابة الخالية من الذكاء ، الخالية من الجوهر ، السخيفة ، البلهاء ، ناهيك بالتحالات والعمات وابناء الاعمام ، فلا يظل نسيج وحده ..

ويعد ، فلماذا يكون كوستال قد ذلل الصعوبة الكبرى عملاً بقول الحكماء ؟ ولماذا جاهد ونجح في الحصول على ابن من دون ان يرتبط

١ - « أيجوز الاذعان للمرأة املاً بالجناب البنين ؟ » ، الجامي في كتابه بهارستان .
- المؤلف .

والجامي الذي استشهد به المؤلف في هذه الحاشية هو مولانا نور الدين عبد الرحمن الجامي (١٤١٤ - ١٤٩٢) آخر شعراء العصر الذهبي في بلاد فارس . نظم الشعر على غرار الفردوسي ، ووضع ملحمة « يوسف وزليخا » ، واهداهما الى السلطان حسين ميرزا ، وفيها اخبار ملوك فارس .

بإمرأة ، ما دام عازما الآن على ادخال هذه المرأة في حياته ؟
كيف يستطيع ان يخبر ابنه بمجيء هذه الام ؟ بل كيف يمكنه ان
يفرضها عليه ؟

ان المسألة سهلة بالنسبة الى سولانج . فهو يستطيع ان يقول لها :
« اندرك بان لي ولداً » . واذا كان هذا لا يعجبها ، فما عليها إلا ان
تعدل عن الزواج . اما برونيه فكيف يتدبر الامر معه ؟
أ يكتب اليه : « اني عازم على الزواج ، وزوجتي كذا وكيت ،
وستكون سعيداً معها ، الخ ... » ؟

هذه فظاعة لا يجوز الاقدام على ارتكابها . لا بد اذاً من الذهاب
اليه ، وبصحبة سولانج . فما اصعب هذه المقابلة ، وما اقساها !
وراح عقله يدور حول هذه الفكرة ولا يهدأ حتى رسخ في يقينه
انه كان عليه ان يستشير ابنه قبل ان يرتبط بوعد .

لقد قفز فوق العقبة التي كانت تحول دون تصميمه على الزواج ، فلم
يعد يتردد ، ولم يعد يتألم ، ولم يعد يفكر . إلا انه لم يقفز بعد فوق
عقبة اخرى هي قضية علاقة برونيه بسولانج . وحيال هذه العقبة ما
يزال يتردد ويتألم . ولان سولانج اسهل منالاً بالنسبة اليه ، فقد قرر ان
يبدأ بها ليحل هذه العقدة .

اما الطريقة التي خطرت في باله فهي ان يدعو سولانج في اليوم
التالي الى تصفح مجموعة صور ، متدرباً بأنه يريد ان يعرفها الى افراد
اسرته ، حتى اذا رأت صورة برونيه قال لها انه ابن احد ابناء عمه ، ثم
اتخذ قراراً بالنسبة الى ما يلاحظ فيها من ردة الفعل ، فاما ان يطلمها
على الحظر اليقين ، او يلزم الصمت .

وكان الخطيبان يمضيان بعد الظهر معاً مرةً كل يومين ، فينظر كوستال
الى هذه الغريبة اللاصقة به ، الى هذا الوجه الذي بدا له في جنوى كأنه
ذائب في الحب ، هذا الوجه الساجي كأن صاحبه نائمة في اليقظة ، وقد

اصبح الآن بارداً ، وجافاً ، وقاسياً... وحق كتابة هذه الفتاة تغيرت
فاضحت مستنة كأنها تتعمد النخس .

وكان قد نسي قول السيدة دنديو : « ان سولانج عديمة الارادة ، ففي
وسعك ان تفعل بها ما تشاء » ، ولم يعد يتذكر إلا قولها : « لهذه
الصغيرة ارادة حديدية ، وقد صمتت على القول في نفسها : « هذا هو
الرجل الذي اريده » .

وقاده هذا التفكير الى الاعتقاد ان السيدة دنديو وابنتها تأمرتا عليه
وارقعتا به .

اذا 'حقنت غدة' الخروف الدرقية بمصل مقوي فانه يعض حديد
فقصه كالأسد ؛ اما اذا 'حقنت غدة' الرجل القوي بمصل الزواج فانه
يضعف ويصبح كالحمل الوديع . وحين 'يرهق' الرجل بالسأم ، ويحشى
بالمهوم ، والمسؤوليات ، والوساوس ، ويضطر الى اتخاذ مقررات ، ويدور
على نفسه ، فانه يقع في النهول ، وتتهار فيه كل عزمته ، فيفقد قدرته
على مقاومة الارادة المسيطرة عليه ، حتى لو كان يعلم انها ارادة شريرة .
والنساء يعرفن هذه الحقيقة ، فادخال المرأة الى مكان ما لا يعني إلا
ادخال الفلق والمتاعب اليه . وعمل المرأة في هذا المجال شبيه بعمل السفينة
الحرية التي تنشر الدخان وتتقدم وراءه الى هدفها .

كانت كوستال ، في ما مضى ، « مسحوراً » ومكبلاً بكثافة السأم
المنبعث من سولانج . وها هو الآن يمتقد انها سحرته من جديد بارادتها
المتفوقة على ارادته ، ويشعر بضعفه وعجزه كأنه يرافق شخصاً مغامراً
شديد الخطر ، اسرع منه حركة ، وامضى عزيمة ، واوسع حيلة في ازالة
الضرر بالآخرين .

وعندما يحاول الرجل إيهام الناس بأنه مسلح وهو اعزل ، فانه
يضيف الى شعوره بالعجز شعور الخجل باقدامه على الغش والخداع .
ولم يعد كوستال يجرؤ على مصارحة سولانج بما يريد ان يقول لها ،

خصوصاً في ما يتعلق بابنه . وكانت الايام تمر وهو حريص على كتمان سرّه .

واصبح يشعر بانه مضطر الى بذل جهود كبيرة لاحتمال قربها الى جانبه . فاذا نظرت الى عينيه بقوة وصراحة ، لا يقول في نفسه ، كما كان يقول من قبل : « ما اجل ولاءها ! » بل يقول : « انها تتحداني . انها تحاول ان تأتيني من فوق لتسيطر عليّ » . وكان يُخيّل اليه ان نظره يمسح بحضورها ، وانها تقرأ في ملاحظه حقيقة سيطرتها عليه . وفي بعض الاحيان كان يحس ان قواه كلها قد تلاشت امامها . فتفوقها الطاغى عليه كان يبعث فيه النعاس .

يقال ان في بعض مناطق الجزائر وجنوب فرنسا تقليداً بان يدوس الخطيب اصابع قدم الخطيبة في حفلة الخطبة ، ليثبت انه هو السيد في الحياة الزوجية ، أفلا يجوز ان تدوس الخطيبة على قدم الخطيب احياناً ؟ ومنذ ان اصبحت سولانج منحرفة الصحة ازدادت عنايتها بنفسها ، وحرصها على ان تكون دائماً مرتاحة ، فكانت تأكل اكثر من المعتاد ، بعد ان حظر الطيب عليها شرب الخمر والقهوة بسبب داملها .

وربما كانت تشعر بالمرارة والحيرة على الرغم من انتصارها ، الى جانب شعورها بالأمان ، لانها لم تعد تخشى عدول كوستال عن الزواج بها ، مع ان امها لم تكن مطمئنة ، بل كانت كثيرة الشكوك تخشى المفاجآت . ولعل هذه الحالة النفسية جعلت سولانج تبادر الى الانتقام من كوستال ، عن قصد او عن غير قصد ، فتادت في اطمئنانها ، وراحت تحثه على بذل المال بلا حساب .

وتضايق كوستال منها حتى كاد ينفجر لما رأى انها لا تستطيع ان تقيم معه نصف نهار من غير ان تطالب بالذهاب الى المقهى . فمها تكن مشاغلها كبيرة الاهمية ، فلا بد من التخلص عن كل شيء للذهاب الى المقهى وتناول الشاي . وهذا التصرف العجيب شبيه بتصرف الهر الذي

يكون راكضاً وفي ركضه ما يدل على الحزم والتصميم ، فاذا به يتوقف فجأة ليجلس ويلحس قفاه .

وكان تناول الشاي يستغرق ساعة ، مما يثبت ان سولانج لم تكن تقصد به إلقاء الوقت .

وبعد تناول الشاي ، كان كوستال يبدأ البحث عن مطعم لتناول العشاء ، فيعمل ما عمله قبلاً في بولفار « بون نوفيل » امام دار السينما الرخيصة ، اي انه يتظاهر بان هذا المطعم او ذلك « غير لائق بهما » فتوافق سولانج فوراً على وجهة نظره ، كما فعلت تماماً بالنسبة الى تلك السينما . ولم يخاطر في بالها مرة واحدة ان تقول له : « لا بأس ، فلندخل ، او فلنذهب الى مكان آخر ، فالمهم ان نكون معاً » . وقد ايقن انها تفضل المطاعم الفخمة ، او التي يقال انها فخمة ، وهو الذي كان يعتقد ان حب البذخ اول دليل على ان النفس ليست في مستوى محترم من النبيل الحقيقي ومن سلامة الذوق ، وقد رسخ في ذهنه ان هذه القاعدة عامة ، لا يشذ عنها إلا افراد نادرون .

من يدري كيف يتصرف اصحاب المطاعم الفخمة ؟ ربما كان الخادم يبول في الحساء ، والاجير يبصق في المرق ، والمستخدم يفسل اصابعه القدرة بالليمونة الحامضة التي يعصرها في الطعام ؛ وربما كانت الخدمة سيئة ، مزعجة ، ترغمك على الانتظار طويلاً ؛ وربما كانت الاسعار باهظة حتى الفضيحة ؛ إلا ان هناك اشياء مطلية بذهب زائف ، واعمدت من الرخام الكاذب ، وسلّة انيقة توضع فيها زجاجة الخمر ، وموسيقى كلها ادعاء فارغ ، ولوائح مزركشة تحمل اسماء الطعام ، وفوق هذه الاسماء كلمات لادباء عاطلين عن العمل ، لا يهمهم ان تتعمر اسماؤهم بثل هذه الترهات .

لا ! لا ! لا ! لا شيء افظع من مطعم كبير اشهر بالبذخ والفخامة . ومع ذلك كانت سولانج تجد الهناء والسعادة في مثل هذا المكان ، ولا

تضجر لربقبت فيه طوال بعد الظهر .

تبادرت هذه الافكار الى ذهن كوستال فقال في نفسه : « ان لهذا المطعم مزية حسنة هي ان فيه موسيقى تسمح لنا بالصمت وتتقذنا من التحدث . ولا ريب في ان موسيقى المطاعم اخترعت خصيصاً للازواج » . وكانت سولانج تأكل بكثرة وشاهية ، وتختار دائماً الاطعمة الباهظة الثمن كأنها تنفذ خطة مرسومة ، ليقال انها من اسرة عريقة الحسب والنسب . اما كوستال فكان يراها تقشّر الموزة بالشوكة والسكين كيلا تلوث اصابعها الثمينة ، فيقول في سره : « هذه اناقة كاذبة ، يحاول السخفاء بها ان يظهرها بمظاهر الاشراف والنبلاء فيدلّوا على انهم من حثالة الناس . وها هي سولانج اللطيفة ، النحيفة ، الخفيفة التي لا يشعر بها مقعد السيّدنا عندما تجلس عليه ، تأكل كالغول ولا تشبع ! »

وكان يغريها باسلوبه الساخر لتتناول مزيداً من الطعام ، وليرى الى اي حد يبلغ بها النهم ، فيقول لها : « لا بأس اذا طلبت صحفة من الحلوى المصنوعة بالدراغن . وما رأيك في هذا القرص المغمّس بالروم ؟ » فاذا هي مترددة ، حائرة بين رغبتها في الأكل وخوفها من أن يُهزأ بها . وكان خوفها يتغلب في اكثر الاحيان على رغبتها ، فتمد شفيتها بحركة تعني « لا » ، بينما عينها تقولان « نعم » . إلا انها كانت دائماً تختتم هذه المناورة بقولها : « حسناً ، لا ارفض ... ما دام هذا يسرك » .

في تلك الاثناء كان قرّفه منها يبلغ حده الاقصى ، خصوصاً لما كانت تعتذر قائلة : « يجب ان آكل كثيراً لأعود كما كنت » . فيعلتق على اعتذارها قائلاً في نفسه : « انها على حق ، فهي خالية من المخزوت الاحتياطي » .

وفي اواخر الوقعة ، كان يتكتف قبالتها ، وينظر اليها بصمت ، وهي تزرد ، وتزدرد بلا انقطاع . وكلما لقت عليه نظرة استفهام اشتهى ان يقول لها : « انتظر منك ان تأكلي قشرة الجبنة ! »

وكان يفكر بكآبة ويأس ان المال الذي يستنتجه من ذكائه وفنه وجهوده يذهب هدراً الى مصارين امرأة ، فيخاطب نفسه قائلاً : « أيمكن ان يكون المرء نهماً وجديراً بالاحترام ؟ اعتقد اني كنت افضل ان يبذل هذا المال في شراء ادوات التبزج والزينه » .

وهكذا كانت تمر الساعات ، ويتلاشى الوقت الذي لا يقدر بثمن ، فيردد الكاتب كلمة الاسكندر لما جرفته مياه نهر هيداسب^١ : « ايها المجتمع ، ما اكثر الاعمال التي يضطر المرء الى القيام بها ليستحق ثناءك ! » يقول البعض في انتقاد « الدونجوانية » : « ان امرأة واحدة تكفي ، شريطة ان تتعمق فيها ، وان نستخرج منها انعاماً تزداد روعة يوماً بعد يوم ! » وهذا اقتراح مغرٍ حقاً ، لكن كيف السبيل الى امرأة على شيء من العمق لتتعمق فيها ، ولتستخرج منها الانعام الساحرة ؟ وما العمل اذا كانت للرجل امرأة واحدة وفارغة ؟ ... اني افضل الفاً وثلاث نساء فارغات على امرأة وحيدة فارغة . وهذه سولانج متشبثة بي الآن ، وهي لا تحبني ولا تحب عملي ، ولا تحب الحب » .

ما الذي فعلته لتنسجم معي ؟ لا يستطيع المرء ان يحب شخصاً آخر إلا اذا كَيْفَ حياته بالنسبة الى هذا الشخص ، اي اذا اضاف اليها شيئاً ، او حذف منها شيئاً ، لاجله . اما سولانج فانها تدنسني اذ ترغمني على تناول طعام يستطيه الشرهون ، ولا اجد فيه اقل لذة ، بل امقته ؛ وتجريني الى اماكن فخمة لا تمجيني ، بل استفظعها الى اقصى جد . ان في المرأة ، في جميع النساء ، وحتى في افضلهن خلقاً ، شيئاً من البغي يتوارى حيناً ويظهر احياناً ، ويتجلى عندما تدندن باحد الألحان وهي راكبة في السيارة التلكسي .

تريدني ان اكون مثلها ، اي ان آكل دائماً ، وان اتابع الاكل ، وان

١ - نهر في الهند يُعرف اليوم باسم « نهر جلام » .

اجلس مسترخياً في المقعد الوثير ساعات طويلاً . تريد ان تجعل مني رجلاً فرنسيساً عادياً ، وبورجوازيّاً له كرش صغير ، يشرب كأساً من الحر قبل الطعام ، ويدخن السيكار ، ويركب السيارة . فهذه هي في نظرها « الحياة الجميلة » .

انها باردة ، وتريد ان تخصني من شدة غيرتها عليّ . انها خادمة الهمة ، وتريد ان تفقدني كل نشاط . ما اكثر جولاتها في الاسواق لشراء اشياء لا فائدة منها ، ثم للذهاب الى السينما ، او الى المسرح ، او الى مكان آخر ، شريطة ان يكون زاخراً بالسخافة والتفاهة . فالهمم في نظرها ان تخصني هنا ، وان تجعلني أبه هناك ، على ان يجري كل شيء بحكمة وروية ، كيلا يرانا احد ، لاننا في مرحلة حداد ، ولان الفتاة الحزينة تدوس بسرور ذكريات ابها العزيز .

هذه هي الحضارة التي صنعتها النساء ، فالانسان فيها ينظر الى الآخرين ، وينظم حياته بالنسبة الى الآخرين ، ويرتعد خوفاً مما يتبادر الى اذهان الآخرين ، ثم ينصرف الى الأكل ، الى البلع بلا انقطاع . انها تهتم الآن بتثبيت وضع يدها عليّ ، وبيده عملية الامتصاص . تزعم المرأة دائماً انها تعطي ، غير ان عملها الوحيد هو الأكل والبلع . ولكي ندرك حقيقتها ، يكفي ان نتذكر الوضع الذي تنخذه في اثناء الرضاعة ، وهو وضع ضعفدي مضحك .

تحسني سولانج انساناً مُخلق خصيصاً لها . وهذا حلم كل امرأة . وتظن ان مهمتي الوحيدة هي ان اجعلها سعيدة ، وان اقدم لها مرتبة اجتماعية مرموقة ، وضمانة مادية ثابتة ، واداة دائمة للعمل والتسلية ؛ كأن العناية الالهية عهدت اليّ بان ابعد عن هذه الفتاة اسباب السأم .

هذه الفتاة البسيطة سابقاً ، او البسيطة المزيفة ، كم بلعت من قواي ، ونشاطي ، ومادتي ، ووقتي ، ومالي ! انها تبتلع كالوادي . فهي المرأة الوادي ؛ انها وادي في غناقتها ، وادي باعضائها ، وادي بمادتها وجوهرها ، محصنة دون

العالم ، لا ترى إلا ما هو في متناول يدها ، محاطة بجدران هي أحياناً حبهما ، وأحياناً غريبة عن الحب ، وفيها أيضاً ما في الأودية من المناخ المرهق الذي يذيب العافية .

كيف يستطيع الرجل معايشة امرأة لا يدري ما يقول لها ، ولا يعلم إلى أين يذهب معها ، ينتقل من مكان إلى آخر بلا سبب ، يحاول عبثاً أن يخرج شيئاً من عقله أو من قلبه ، ويمضي قسماً من أوقاته في السيارة التكبسي ، لأن المرأة التي تعتبر نفسها محترمة لا تتحرك إلا بالسيارة لتملأ عيون الناس ، لتأثني اسخف ما في العادات والتقاليد . فابسط امرأة بين النساء تحسب نفسها مدى الحياة ملكة سبأ في ذروة عزها . والنساء لا يعلمن كم يكون الرجل مرتاحاً ومسروراً إذا سمحن له بأن يعاملهن بلا تكلف ولا مجاملات ، وكم يرجحن من الهناء في هذه المعاملة .

كيف استطيع العيش دائماً مع امرأة واحدة ، لا تتغير ولا تتبدل كأي طير البجع ؟ وكيف يمكنني أن اسمع باستمرار قرقعة حقيبتها كلما فتحتها واغلاقها ؟ أن هذه القرقعة تثيرني فأكاد انفجر غيظاً ، كما كان يغيظني حفيف المروحة التي كانت إحدى صديقاتي الإسبانيات تفتحها وتغلقها ثلاثين مرة في الدقيقة ، وكان هذا السبب الوحيد الذي أثار نقمتي عليها فهجرتها .

وأدهى ما في الأمر أن كل يوم من هذه الأيام الضائعة التي تدرّس الفكر ، وتسحق الروح ، يكلفني مئات عديدة من الفرنكات ، من هذه الفرنكات التي تقض مشاكل عدد كبير من المحتاجين ، وتكفي لشراء أشياء مفيدة ...

وفي مساء أحد هذه الأيام الزاخرة بالثرثرة ، والتفاهة ، والعقم ، الحافلة بالنشاط المبذول في محاولات مضنية للاهتمام بآراء سخيفة تبديها امرأة « محبوبة » أو محسوبة كذلك ... في مساء أحد هذه الأيام ، بعد

ان حاول كوستال ان يجعل من سولانج امرأة ذكية وممتلئة بالحياة ، وهي الخادمة الذكاء ، الخالية من الحيوية ، وبعد ان قال مئات من الكلمات العديدة الجدوى التي تركت في فمه طعام الطين والرماد ، عثر في احدى مفكراته على كلمة لعزيزه الأب دي سان سيران^١ هي : « اذا تحدث الكاهن الى احدهم حديثاً لا لزوم له ، ولا فائدة تُرجى منه ، فهذا سبب كافٍ لمنع الكاهن من اقامة الذبيحة المقدسة في اليوم التالي ، لأنه يكون في حال الخطيئة » .

وما كاد كوستال يقرأ هذه الكلمة حتى قال في نفسه : « ما ابرع هؤلاء الكهنة ، ففي وسعهم ان يصالحوك بمثل هذه الاقوال الحكيمة مع الدين المسيحي مها تكن قليل الاكتراث بهذا الدين . حقاً ان حياة النسك في الدير اصفى جواً وافضل مناخياً من الحياة الى جانب خطيئة ! »

غير ان كوستال تعمد ان يعامل سولانج باكثر ما يستطيع من الحرية ليعوّض عما كان يحلّ به من السأم والغيبط ، حتى انه كان احياناً يصفحها بيده اليسرى اذ يهم بالابتعاد عنها كأنه يريد ان يتهرب اكثر مما يريد ان يعطي من نفسه . ولم يعد ينظر اليها ، بل اصبح يمتنب للنظر اليها ، فثمة نساء يعايشن الرجل ، ويضاجعن ، ولا ينظر اليهن ، ثم لا يعرف منهن اكثر مما يعرف عن البحر مسافرٌ امضى رحلته كلها في حجّرتة ، وما القى على البحر نظرة واحدة .

وكانت سولانج قد حافظت على تبرجها وعلى تلك التمشيطة التي تبدو فيها كأنها « امرأة شابة » ، منع ان كوستال افهمها انه لا يطبق هذا التبرج ولا يجب هذه التمشيطة . وقد تمادى يوماً في صراحته ، فقال لها :

١ - اسمه الحقيقي جان درفوجيه دي هوران . لاهوتي فرنسي (١٥٨١ - ١٦٣٤)
خدم في دير بور رويال وكان له فيه تأثير كبير .

« قبل ان اقبلك نظفتي وجهك من هذا الطلاء » ، فلم تأبه له لأنها كانت تحب ان تبقى كما هي ، وتعتقد انه حان لها ان تفعل ما يطيب لها بعد ان تحملت ما تحملت من العذاب .

لم يعد كوستال يشتهيها جسدياً ، وكان يعلم انها هي ايضاً لم تعد تشتهي . فالشهوة الجنسية تدعم الزواج الى حين ، اذ يقابل كل يوم من ايام الحصام او الصمت وصال يستغرق عشرين دقيقة من الليل . اما اذا تلاشت الرغبة في الحصول على هذا التعويض ، فكيف يستمر الزواج ؟ وفي هذه الغمرة من القلق ، لم يشأ ان يخامرها ظن بان دماغها وشحوب وجهها هي سبب نفوره وبرودته . وقد ساوره الخجل لكون حبه لها قد تقلص لما ذبل جمالها . وتأثرت مرة في اعماق نفسه لانه نظر اليها من قريب ، فوضعت يدها امام عينيه لتتجذب عنه ما في وجهها من الغضون التي حفرتها الكتابة . وفي مثل هذه المواقف كان يحتضنها ، ويداعبها باعصاب متوترة قليلة الاحساس كاعصاب مرضى جيباج ، وليس في مثل هذه المداعبة شيء من المتعة .

ولما كانت تلقي رأسها الى وراه وتفتح فمها في اثناء الوصال ، كانت تخاطر في باله افكار عجيبة ومضحكة ، كأن يقول في نفسه : « ماذا ؟ أتريد ان انتزع من فمها ضرساً نخر فيها السوس ؟ » كم يتعب المرم نفسه حين يتظاهر بانه مغتبط بالوصال ، يجني منه المتعة الكبرى الى اي حد يتمكن جسده من تلبينه في تمثيل هذه المهزلة ؟ لا بد من يوم يحزن فيه هذا الجسد كالجوان ويرفض العمل رفضاً باتاً .

يظل البعير على الناقة ربع ساعة مفكراً بغير ما يعمل ، فيضربه الجمال بالعصا ، فيعود الى عمله مرسلًا جمجمة مدوية ، ثم يعود الى

١ - منطقة فرنسية مؤلفة من ٣٣٠ قرية ودسكرة ومزرعة ، فيها مستشفى للمصابين بالامراض العصبية .

تأملاته السابقة ، فيضربه الجمال من جديد ويبعث فيه الحمية لتابعة الجماع ،
إلا انه لا يلبث ان يعود الى التأمل ...

وكان كوستال شبيهاً بهذا الجمل . فقد اصبح الواصل سخرة مزعجة
بالنسبة اليه والى سولانج معاً ، حتى كاد يقرف من عمل الحب ، إلا
اذا كان يريد ان يغوص في الفجور غوصاً جنونياً لا مبرر له .
إلا ان الاحسان كان يفرض عليه هذه التضحية ، كما يفرضها عليه
اللطف ، والواجب . فشیطان الشر يزجر فرحاً وهو يحمل الشمعة فوق
هذا التمرين البالغ ذروة الفطاعة .

في الساعات القليلة التي كانت سولانج تبتعد خلالها عنه ، كان ينقضّ
على عمله انقضاخ السكرير على الخمر ، والمدمن على المحذرات . فقد كان
جائعاً الى العمل المنتج ، لأن هذا العمل كان ينقذه ، ففيه كان يعلم
الفترات التي عاشها مع سولانج ويصفيها . ان الفن هو خلاصة الحياة ،
يطهرها من حثالتها ونفائيتها ، ويقدم لها دماً طاهراً نقياً . فلو لم يعمل
في الصباح لما استطاع احتمال سولانج بعد الظهر وفي المساء دون ان
يرض . ومن حسن حظها ان صفاء ذهنه وقدرته الخلاقة لم يفقدا شيئاً
من قوتها ، فلا تكاد خطيبته تزول من وجوده ، ما عدا عمله الادبي
الذي دمجها فيه ، حتى يعود رجلاً قوياً كما كان .

وكان يرجي دائماً اطلاق سولانج على مجموعة صور اسرته ، ليؤجل
حديثه معها عن ابنه . وقد تأخر في الكتابة الى برونيه . وخطر في
باله يوماً ان يركب الطائرة الى لندن حاملاً كل ما لديه من رسائل
سولانج ، وصورها ، وما كتب عنها في مذكراته الحميمة ، وان يضع
هذه الاشياء تحت انظار ابنه ، وان يحدثه ساعتين عن سولانج ، ثم
يسأله : « أتريد ان اتزوج بها ؟ فاذا كنت لا تريد ذلك فأن الوقت لم يفت
بعد ، واستطيع ان اهجرها ! » مع العلم ان برونيه كان في الخامسة
عشرة والنصف من العمر ، وادراكه ادراك ولد في الثالثة عشرة او

الرابعة عشرة . غير ان هذه الفكرة ما لبثت ان تبخّرت وتلاشت ،
لانه لما خطب سولانج كان قد بلغ اقصى حد من حدود ارادته ، فاذا
به الآن يترك امره لمشيئة القدر .

وكان الخطيبان في هذه الاثناء يهبطان الى الاعماق ، كأنها غريقان ،
وقد بدت على وجهيهما ملامح عالم آخر ، ويفوصان في الظلمات ، لا
يس احدهما الآخر ، مع ان المسافة بينهما لم تكن تتجاوز بضعة امتار .
وذات يوم ، لمعت في السماء بارقة امل خاطفة ، فقد سأل احدهم
كومتال ، وكان علجاً كسائر علوج الحي الرابع عشر في باريس : « من
هذه الفتاة الفاتنة التي رأيتك معها في غابة بولونيا ؟ » فادرك الكاتب
ان بعضهم سيرى زوجته فاتنة ، فاعتز وتباهى .
ان جميع الناس ينتقدون العالم ، والعالم راسخ في قلوب جميع الناس .

٧

من

اندرينه هالبو
سان ليونارد

الى

بيار كوستال
باريس

٢٢ كانون الثاني ١٩٢٨

اني وحيدة ! نعم ، وحيدة ، تعال حالاً . ها انا افتح لك الباب .
كم انت مفرور ، تفوح منك رائحة الشتاء والجليد المنعشة ! يجب ان
ادفستك . اخلع معطفك ، وقبعتك ، وعصبة عنقك ، لاراك جيداً ،
يا من تصوّرتَه منذ امدٍ بعيدٍ لاملأ به حياتي . احبك ان تمدّ
اصابعك الخمس معاً الى قفازك الكبير المصنوع من الجلد والفرو ، فهذه
حركة يختص بها الرجل القوي ... ماذا ارى ؟ اشرفت الشمس على الثلج !
فلنخرج . انتظري لحظة قرب سبيل الماء ريثما اغيّر ثيابي . اي ثوب
تفضّل ان ارتدي ؟

قريبي الصغيرة هادئة ، هادئة . اني مسرورة للغاية لأنك عرفتها اخيراً .
جميلٌ منك ان تكون مقداماً فلا تخشى ان يرانا الناس معاً . فلنسر
طويلاً حتى يرهقني التعب والتمس منك الرحمة . أمقرورة انا ؟ لا ، اني

دافئة بك . انا مستاءة لانك نظرت باعجاب الى ابنة جارنا برناردو ؟
الغيرة شعور لا يساور إلا النساء التافهات . لا تخاطبني . انك لا تحادثني
إلا عن نفسك . وما الذي اودُّ ان أعرفه عنك بعد ؟ اني اعرفك كما
اعرف جيمي . جلُّ ما اريد ان احتفظ بك قليلاً ، لا لشيء إلا لانتعش
بك ، لاحس باني احيا ملتصقة بك . لنسر صامتين . فانت الرجل
الوحيد الذي لا اشعر بالسأم وانا انى جانبه . وكيف يجد السأم الينا
سيلاً ما دمنا نحيا ، نحن الاثنتين ، وروحانا متعانقتان ؟
انك تجعلني سعيدة ، في منتهى السعادة ، وانت على حق ، فقد
اصبحت جديرة باحسانك . ما أَلَدَّ هذا اليقين بانك فهمتني اخيراً ! فقد
ادركت ، بعد تردد طويل ، انك تحبني .

الحياة جميلة !

تقام اليوم حفلة ، في قرية مجاورة لقريتنا ، احتفاء بعودة ابن عمي
من الخدمة العسكرية . واني مضطرة الى صحبة عمي لتمضية يومي الاربعة
والخمس فيها . وفي هذين اليومين ساهجر قراءة « سانت بوف » والاستماع
الى الراديو ، وسالتقي عدداً كبيراً من ابناء الاعمام والاخوال .
يقال ان معاشرة البسطاء تريح النفس من اتمامها . في هذا القول
هراء . فقبل ان احبك كنت احتمل هذه السخرة بشيء من الصبر ؛
اما اليوم فانها ترهقني ، ولا اقوى على احتلالها طويلاً . يوم الجمعة اعود
اليك ، فنقوم بنزهة ثانية .
اقبلك .

أ

(وضعت هذه الرسالة في الملف الخاص بها من غير ان يفيض غلافها)

كان كوستال مدعواً لتناول الغداء في منزل سولانج . فقد عقد خطبته منذ عشرة ايام ولم يرَ السيدة دنديو ، خلال هذه المدة ، إلا مرتين ، عند الكاتب العدل ، ولم يتحدث اليها إلا في شؤون « الاعمال » .
 اما اليوم فانه يواجه موضوعاً دقيقاً اعتبره في بادىء الامر بسيطاً ، وحاول معالجته بشيء من المرح ، غير انه احس ان هذا الموضوع مهم ، وانه يتطلب معالجة جديّة ، وخلصته هي : كيف يدعو حاتسه عندما يخاطبها ؟

أيقول : « يا امي ! » لهذه المرأة الحقاء ، المغمورة ، المتبدلة ؟ لهذه الكراكوزة ؟ لهذه البغلة ؟

ما إن بلغ هذا الحد من تفكيره ، حتى جعل يخاطب نفسه قائلاً : « لست من السخافة بحيث اعتبر كلمة : « ام » ، مقدسة ، ففي العالم نساء من مختلف الاصناف والطبقات ، واكثرهن امهات . اذاً ، في العالم امهات من مختلف الاصناف والطبقات . إلا ان امي كانت من النوع الممتاز ، فكيف اتادي هذه الغريبة كما كنت أنادي امي ؟ هذا ما لا اريده ، وما لا استطيعه . فكلمة : « ماما » ، لا تخرج من بين شفتي اذا اردت توجيهها الى السيدة دنديو . اذا قلت لها : « يا سيدتي العزيزة » ، اهنتها ، واذا ناديتها : « يا صديقتي العزيزة » ، أتجاوز حدود العلاقة القائمة بيننا ، لاننا لم نصبح بعد « صديقين » . فما العمل ؟ الحلّ الوحيد الذي لا ارى

سواء هو ان لا اتادها مطلقاً . أفليس هذا الحل منطقياً ومريحاً ؟
وكان ذلك الغداء فترة عذاب مرير بالنسبة الى كوستانال ، لأنه عجز
هذه المرة عن الهرب الى عمله ، وعن الغوص في التعب الخلاق ، فاستلقى
على سريره ، على هذا السرير الذي كانت منذ ساعات ينام عليه ويحلم
بتينك المرأتين . فالاشباح الخفيفة التي تقض مضاجعنا ليست اشباح الموتى ،
بل اشباح الاحياء .

جلس يفكر بأنه من الضروري ان يحدد موعد الزواج ، وبأنه لا بد
من اتخاذ قرار نهائي بشأن برونيه ، فقال في نفسه وهو يتميز غيظاً :
« ما الداعي لهذا التعب ؟ لماذا افرض على نفسي ما لا اطيع ؟ لا ارى
لهذا الزواج مبرراً » .

في بداية هذه الازمة ، كان الخطيب المرتمي على سريره من شدة
العياء يعلل نفسه بالأمل ، فتشرق على وجهه ابتسامة عابرة ؛ اما الآن
فقد توارت تلك الابتسامة لأنه احس بأنه مريض ، مريض في جسده ،
وربما كان سبب هذا المرض ما يعاني من الاضطراب الروحي ، او تلك
السيكارات التي كان يدخنها بلا انقطاع منذ ثلاث ساعات ، وهي مصنوعة
من تبغ رديء طعمه كطعم شعر القفا .

نهض ليتناول زجاجة الكولونيا ، فرأى صورة وجهه في المرآة ...
ففي عشرة ايام اكتهل هذا الوجه وكاد يشيخ ، وارتسم في قسائه
طابع الكآبة .

قال يخاطب نفسه : « سأهزل بينا هي تسمن . هذه سنة الطبيعة ،
فاتصالي بها يصب فيها ما يذهب مني » .

ورأى نفسه دميماً ، فقال : « لا ، لا تستطيع ان تحبني ، وكل ما
نقوم به مهزلة ، لا يمكن ان يكون إلا مهزلة سخيفة » .

واحس بدوار ، واكفهر وجهه ، فاستلقى على سريره من جديد
وهو يقول : « يجب ان اسكر قبل ان اذهب الى مكتب الشيخ لعقد

الزواج ، فقد تستيقظ في غريزة المحافظة على البقاء في اللحظة الاخيرة ، وقبل فوات الأوان . لو كنت تستطيع القول ، كما قلت مرات عديدة : « هذه فترة على هامش الحياة لا تلبث ان تزول » ، لكان يهون الأمر؛ ولو كان الزواج صحبة رجل جلف في القطار تنتهي بعد عشر ساعات ، لحف عيب المصيبة ؛ لكن لا ، فسترفض سولانج الطلاق ، واني اقرأ هذا الرفض في وجهها منذ الآن ، وراه في تبدل هنداها ، وتغير تسريحتها وخطها . ومن المحتمل ان اتملّق بها في النهاية لكثرة ما اعطيتها . اني اغذي العطف الزهيد الذي اكنّه لها ، ولو تركته وشأنه لتلاشى واراخي من وقره ؛ غير اني قوته بالاحسان كما يُقوّى المعدن بعمد آخر لتصنع منه التقود ، وتكون تقوداً متينة . ان الشرّ مقيم فيّ ، وهو هذا الاحسان الذي ارزح تحته فيسحقني » .

انتصف النهار ، ولم يكن كوستال قد اغتسل بعد ، ولا حلق ذقنه ، ولا ارتدى ثيابه ، فنهض ثانية ، إلا انه اضطر الى الاستلقاء على سريره من جديد .

يا لها من مأساة !

كيف يفرض على نفسه العيش مع اناس ، لو اقام معهم ساعة وقت الغداء لاضطر الى ملازمة الفراش وعلى وجهه اصفرار الموت ؟ كيف ينزلق الى هذا المصير الرهيب ، ما دام الوقت لم يفت بعد ، وما دام يستطيع ان يقول : « لا » ، فينجو بنفسه ؟

اتصل هاتفياً بالسيده دنديو ، واخبرها انه سيتأخر لانه متوعك ، فظنت انه لن يأتي ، اذ كثيراً ما كانت تلجأ الى هذه الحيلة ، وتزعم انها مصابة بألم في معدتها كيلا تتناول الطعام من زوجها عندما تكون نائمة عليه .

إلا ان كوستال صبّ ماءً بارداً على صدغيه ، وتلشق ككولونيا ، فانتعش ، وفي الساعة الثانية عشرة والنصف استطاع ان يفتسل ،

وفي الساعة الواحدة والنصف وصل الى بيت سولانج ، فاستقبلته السيدة
دنديو قائلة :

- اعتبر هذا البيت بيتك منذ اليوم .

فازم الصمت ، لان هذا القول من النوع الذي لا جواب له إن لم
يكن خارجاً من اعماق القلب .

وكان على احدى الطاولات اطارٌ يحتوي صورة كوستال وصورة
سولانج . فبعد ان قال الكاتب : « نعم » ، بيوم واحد ، طلبت اليه
السيدة دنديو صورة من صوره لم تنشر في الجرائد ، ووضعتها في هذا
الاطار الى جانب صورة ابنتها . وامام هاتين الصورتين الزاخرتين بالمعاني
الرمزية ، راح يفكّر بذلك الـ « هو » وتلك الـ « هي » اللذين اكتشفت
صورتهما بالقيساف في خرائب بومباي . اما هي فموس ، واما هو
فعلج . انها مثال الزوجين الابديين منذ القدم . وهما ، بالنسبة الى
الحياة الزوجية ، كلوحة « عائلة كارلوس الرابع » لغويا بالنسبة الى
العيلة ^١ .

اما في ما يختص بشؤون الملعف فكان كل شيء على ما يرام . فقد
ارادت السيدة دنديو ان تجعل من هذا الغداء وليمة الخطبة ، فاعدت
الكافيار ، والدجاج ، والكمء ، وزجاجات من الخمر مغرية تشير الشهية .
فالناحية المادية من المأدبة لم يكن عليها غبار ؛ اما الناحية المعنوية فكانت
مؤسفة ، كما هي الحال في الافلام الاميركية . وجعلت السيدة دنديو

١ - فرليسيكو دي غويا (١٧٤٦ - ١٨٢٨) مصور اسباني كبير اشتهر برسم
اللوحات التاويجية ، ومنها لوحة عنوانها « كارلوس الرابع وعيلته » . والمعروف
عن كارلوس هذا انه كان عاملاً اسبانياً اقترن بابنة عمه ماري لويز دي بارم ورضع
لسلطانها وسلطان صاحبها الدايمية غرودي الذي فرض استبداده على المملكة .
وقد تنازل كارلوس عن عرشه وتاجه لثابوليون بونايرت عام ١٨٠٨ ، واعتكف
في روما حيث وافاه الاجل . وكان مثال الرجل الذي حطمته عيلته .

تروح ، وتجيء ، كالبلغة النشيطة ، وتبدي اهتمامها بكل شيء . اما سولانج فكان وجهها متجهماً ، متوتراً ، كما كانت يوم زارها كوستال للمرة الاولى ، فثقلت دور الفتاة التي لا تعرفه ، ومثّل دور الرجل الذي لا يعرفها :

– صباح الخير ، يا آنسة .

– صباح الخير ، يا سيّد .

وما إن تبادرت هذه الذكريات الى ذهنه حتى زيجر في سرّه :
« ليت الارض تنشقّ وتبتلعني ا » إلا انه ما لبث ان غم شيئاً من الطمأنينة وراحة البال لما تبين له ان المرأتين لا تريدان التحدث عن الزواج .

وبعد الغداء ، ساد بينهم صمتٌ مزعج ، ولم يجحد احد ما يقوله . ولا عجب ، فهذه قاعدة عامة في الصالونات والاستقبالات الاجتماعية .
وكانت المرأتان قد فكّرتا بكل شيء ، فاعدتا الراديو والفونوغراف لهذه المناسبة ، وادارت السيدة دنديو اسطوانة لموزار^١ ، ثم نظرت الى ما حولها متحدية ، كأنها تهدد بسحق من يحتج على ذوقها الرفيع . فاذعن المدعوون الاثنا عشر لقواعد العرف والعادة في تذوق الفن ، وتعلقت انفسهم بالانغام المنبثة من الفونوغراف . ولم يكن من المحتمل ان لا يعجب احد بموزار من اناس عام ١٩٢٨ . ففي هذا العام ، كان اقطب المجتمع يعظّمون موزار ، كما كان اقطب الفكر يعظّمون

١ - ولفانغ اماديس موزار (١٧٥٦ - ١٧٩١) موسيقار نمساوي ، ومن اعظم المؤلفين في هذا الفن ، خصوصاً في التعبير الموسيقي عن المآسي . اشهر مؤلفاته : « عرس فيغارو » ، و « دون جوان » ، و « الثنائي المسحور » ، و « لشيد الموت » الذي يُعزف في المآتم . وله ايضاً صحفونيات دينية عديدة . كان سيداً كبيراً من سادة النغم . توخى في تأليفه الصفاء ، والاناقة ، فبلغ ذروة العظمة من خلال اللطف والبساطة .

راسين ١ .

وحاولت سولانج ان تنسجم مع ذلك الجو الحافل بالوقار الموسيقي ،
فجعلت تداعب قطبها الرمادية ، فارسلت همدرة ملأت بها القاعة ،
وراحت تتأمل صاحبتها كما يتأمل المؤمن لهيباً مقدساً . إلا ان هذا الجلال
لم يحل دون اهتمام الفتاة بنفسها ، فاخذت توجهه الى كوستال ، من حين
الى آخر ، نظرات خفية كنظرات البنات الصغار والمعجول .

وانفجرت السيدة دنديو مؤنّبة : « دعي هذه القطعة وشأنها ! » فحِيل
الى الكاتب ان ام سولانج عادت الى الماضي ، اذ كانت تمقت زوجها
ويعتلج في نفسها الغيظ كلما رآته يداعب القطط بلطفٍ ومحبة .

واخيراً ، تفتت ذهن السيدة دنديو عن اكتشاف ناجح : لم تجد كلمة
تقولها ، فتناولت احد كتب كوستال وشرعت تقرأ فيه بصوت مرتفع
مقطعاً كانت تقول انها « تعبهه » .

اما الكاتب فراح يسائل نفسه : « الى متى تستمر هذه اللعبة ؟ »
واغض عينيه من شدة العياء . فبعض الكتاب يعتبرون قراءة كتاباتهم
بصوت مرتفع ضرباً من الفحش والفجور .

وأطبقت السيدة دنديو الكتاب متلهّلة : « عظيم ! مدهش ! » ثم
عبّرت عن اعجابها بصيحات مدوية تدل دلالة ساطعة على انها من
سيدات المجتمع الحقيقيات ، وقالت لكوستال :

— والآن ، أسمح لي بان أسألك ما تعني بهذه الجملة التي لم افهمها
جيداً ؟

١ - جان راسين (١٦٣٩ - ١٦٩٩) شاعر فرنسي اشتهر بنظم المآسي
المرحية . كرمّس حياته للمسرح ، ووضع « اندرومال » ، و « بريتانيكوس » ،
و « سيرينيس » ، و « بازيد » ، و « ميتريدات » ، و « إيفيجيني » ،
و « فيدر » ، و « استير » ، و « عتكلية » . وتعتبر هذه المسرحيات مثال الكمال
الكلاسيكي بسهرتها ، ووضوحها ، وتسلسل حوادثها تسلسلاً طبعياً .

وقرأت الجملة من جديد ، فلم يتذكر الكاتب فوراً ما عني بها ،
لأنه كتبها منذ عشر سنوات ، ولأن السيدة دنديو قرأتها وحدها
فانتزعتها من سياق الحديث الذي وردت فيه . فاعترف بكل بساطة
بأنه لا يتذكر ما عني بهذه الجملة . وكان في اعترافه كأنه يخاطب اناساً
اذكياً . فانفجرت المرأتان ضاحكتين ، فادرك ان الام وابنتها لا
تتحسنان الجو الذي يعيش فيه ، ويتنفّس هواءه ، ويحيا به .

وتذكر جملة قالتها سولانج لامها يوماً ، ونقلتها الام اليه بكل امانة ،
وهي : « لو كان بقالاً يبيع بضاعته بالجملة لاحبته كما احبه الآن . وكم
افضل ان يكون بقالاً ، لأن عدد النساء اللواتي يطاردنه يصبح اقل
مما هو الآن ... »

وكانت السيدة دنديو مضطرة الى مغادرة البيت ، فبقي الخطيبان
فيه وحيدين .

اذا كانت عبارة : « متى نلتقي ؟ » مدمرة للاعصاب ، فان عبارة :
« ما الذي يجب ان نعمله الآن ؟ » ، لا تقل عنها قدرة على التدمير .
اقترحت سولانج ان يذهبا الى منزله لثرى مجموعة صور تمثل الهندسة
المصرية القديمة كان قد حدثها عنها ، فقال في نفسه : « من البديهي ان
الاهتمام بهذه الهندسة لا يخطر في بالها ، إلا انها تريد ان تقتل الوقت ،
وان تتظاهر بانها تهتم بما يهمني » .

ومضت الى غرفتها لترتدي ثيابها . وكانت حتى ذلك الحين تحظر
عليه دخول هذه الغرفة لحجلها بما فيها من اشياء حدثتها التافهة التي
كانت متشبثة بها لا تستطيع الاستغناء عنها ، ناهيك بما فيها من قلة
الترتيب والفوضى الدائمة .

اما هو فقد راودت ذهنه النظرية التالية : « تعتبر سولانج هذا المكان
مقدساً أكثر منها . واذا كان بين الناس من لا يحترم نفسه ، فانه يحترم ،
ولا ريب ، الادوات التي تستعمل لاقامة الشعائر الدينية ، وينقل الى

الاشياء الخارجة عنه الاهتمام الذي يجب ان يمحصره في نفسه .
وختم نظريته قائلاً : « كثيراً ما وضعت برنامجاً لعملي ، وحددت
فيه اوقاتي بكل دقة ، فاصبحت عبداً له ، اكره كل جديد غير منتظر
حتى لو كان موافقاً وممتعاً . »

وبينما كان في منزله يتصفح مجموعة صور الهندسة المصرية ، خطر
في باله ان ينتقل الى مجموعة صور اسرته . واشتدت رغبته في عرض
هذه الصور اشتداد دوي القنبلة الهابطة من الجو ، ثم انفجرت القنبلة ،
وأتشخذ القرار الحاسم ، فجيء بالمجموعة وبوشر تصفحها .

فلما رأت سولانج صور ابيه وجدوده ، قالت فيهم اقوالاً حسنة ،
وتكلمت عليهم بعدوية ولطف . وبقدر ما كان كوستال يقلب الصفحات ،
كان يشعر بهدوء عجيب يصعد من اعماقه ، هدوء غامض الاسباب ،
مجهول العوامل ، احس الكاتب فيه كأنه يقوم بمباراة ركض على مسافة
مائة متر ، لا يتنافس ملء صدره إلا في نهايتها .

واخيراً قلب احدى الصفحات ، فظهرت صورتان من صور ابنه ،
فقال :

— هذا ابن احد اعمامي . يقولون انه يشبهني ، واني كنت مثله ايامَ
حدائتي ، فما رأيك ؟

— لا ا كنت ، ولا ريب ، اجمل منه بكثير .

— ألا يعجبك ؟

— اقول بصراحة : لا . ففي ملاحظه ما يدل على انه انا في ، يحاول
الحصول على ما لا يستحق ، وهذه صفة لا تعجبني .

فقلب كوستال الصفحة .

واحس بهدوء عميق شامل اسبغ عليه فيضاً من الارتفاع والطمأنينة .
وكانت هذه طمأنينة تجتاز مدخل الميناء فترتاح من العاصفة .

وتذكر ، في هذه اللحظة ، جملة قالتها له في جنوى : « من حسن

حظك ان ليس لك ابناء . ولو كان ثمة من يراقبه لرأى ان وجهه ،
الذي كان بالامس متجهماً ، متوترأ ، كئيباً ، قد اشرق ، وصفا
لونه ، وفاض عليه البشر ، كوجه شهيد في اللهب ، يتسم عندما يلفظ
الروح مستبشراً برؤية وجه ربه .
وللمرة الاولى، منذ عودته من جنوى، ضمّ سولانج الى صدره بجمارة
وحب حقيقيين .

في اليوم التالي ، كان كوستال ينتظر وصول سولانج الى منزله في الساعة الخامسة بعد الظهر . وكان قد وجّه اليها صباحاً بريقة هذا نصها : « تعالي الى منزلي الساعة الخامسة بعد الظهر ، وكوفي شجاعة ، يا صغيرتي . فساطلمك على خبر مزعج جداً بالنسبة اليك » . ثم قطع خط الهاتف .

وكان كلما تذكر وجهها ، خيّل اليه ان هذا الوجه عائم على سطح الماء ، وان فيه نظرات توسّل واستجداء تقول : « رحماك ! انقذني ! » غير انه كان يضربه بالمجداف ليغرقه في اللجة ، ويقول لنفسه : « اجل ، اني اقتلها ! » ونظر قليلاً الى المرأة ، ثم استطرد قائلاً : « ان وجهي لوجه قاتل ، وعملي وحشي فظيع ، لكنني على حق . اني مائة مرة والف مرة على حق في اقدامي على هذا العمل ، ولا بد لي من تفضيل نفسي عليها لاني لا احبها » .

وقرعت الباب ، فراح يفتحه لها . وكان شديد التأثر . إلا انه لم يستطع اخفاء ابتسامة عريضة شاعت في جميع قسبات وجهه . ولم تكن ابتسامة عطف ، بل ابتسامة طور وعيث ، حتى انه رقف لحظة وراء الباب قبل ان يفتحه ليعيد الى ملامحه شيئاً من الجد والرصانة .

ثم فتح الباب ، فاذا بسولانج غير متبرجة ، لا بوردرة ولا حمرة . فادرك انها فهت غايته من دعوتها . وجد كلامها لحظة كمن اصيب بيجرح ،

فوقف ينتظر ظهور الدم .

وفي صمت تام ، بلا سلام ولا كلام ، قادهما الى غرفته . وكانت الكهرياء مطفأة ، فلم يشعلها . وتهاكت على احد المقاعد خائفة القوى تلك التي حدقت يوماً الى قرص الشمس ، وتدلّت حقيبتها على ساقها ، ثم سقطت على الحضيض . فجثا الى جانبها ، وجعل يقبّل يديها الباردتين ، وقد بدت فيها شرايين شديدة الزرقة كأنها انهار متعددة الفروع والروافد تمر تحت جسر سوار الساعة اليدوية ، فخيّل اليه انها قطة فقدت جرائها ، فجلس يحك رقبتها لتنسى مهماتها وتهمدر .

ورأى على حذائها الاسود غباراً باقياً من اليوم السابق ، فقال في نفسه : « انها مهملة ، وبيتها خالٍ دائماً من الترتيب » . ثم لثم وجهها مرات ، فما بادلتها قبلةً واحدة ، ولم يدر أنالجم جودها عن الاستياء ام عن الانهيار التام ؟

وكان وجهها ابيض في الظلام كجبل الجليد في الليل . فالضربة التي تلتقتها على رأسها جعلت نظراتها شاردة ، مضطربة ، عميقة الغور . وما كان اجمل الحركة التي عبّرت بها عن حزنها مرات عديدة ، اذ رفعت ذراعها قليلاً ثم تركتها تسقط على مسند المقعد في صمت ثقيل . اما الرجل فحين يقوم بثقل هذه الحركة اليائسة يشد بقبضته كأنه يريد ان يلصمكم .

وكان كوستال بارعاً في تخفيف حدة التوتر كلما تأزمت الاحوال ، يستدرج المرأة الغاضبة بلطفه وكياسته حتى تبسّم على الرغم منها . اما حيال حركة سولانج المعبّرة عن اقصى حدود اليأس ، فقد احس بعجزه ولزم الصمت . لكنه لم يلبث ان احس بان جفونها مبلّلة بالدموع ، فقطع الصمت قائلاً لها : « اذا كنت ترغبين في البكاء فلا تكلمي نفسك » . فنهضت فوراً ، وانطرحت على السرير . وانطرحت على بطنها كالفتيات

الصغيرات ، واجهشت في البكاء ، ثم صاحت :

- لا ! لا ! لا اريد !

- ما الذي لا تريدن ؟

- لا اريد ان اخسرك !

وانهالت عليه تقبله ، وتلمّس يديها قسماً وجهه ، وتداعب شعره ،
وتدخل يدها بين سترته وقمصه ، وكلما لمس في اذنها : « يا صغيرتي
الحبيبة ... » ، اجابت بكلمة واحدة : « نعم ... » وهكذا الهر ، كلما
خاطبته اجابك بمواء واحد قصير .

لمست في اذنه بصوت خافت يكاد لا يسمع :

- قلبي ... قلبي غريق !

تلاشى كل ما كان فيها من القساوة خلال الايام الاخيرة ، فغدت
تذوب لطفاً وعدوية ، ككلب يحس بانه يموت ، فيهب ذنبه في حركة
وداع مؤثثة .

وكانت تعلم ان كل شيء قد انتهى ، فشمعت بان حبها يزداد احتداماً
بعد ان خف ، نوعاً ما ، على اثر عودة كوستال من جنوى .
كانت تحبه بقوة ليساعدها حبها على المضي في عذابها الى آخر حدود
الأس ، وكانت تحبه لانه لم يعد حملاً وديماً بين يديها ، بل جعل يقاومها
واصبح سيداً من جديد .

ولما توقف عن الكلام ، بعد ان سرد اقواله المعروفة ضد الزواج ،
كأنه يخاطب نفسه في حلم ، قالت له :

- أتذكر قول بولس في كتابه « عظة الصيف » : « مهما تمنع في
تعذيبي ، فلن آتي عملاً يسيء اليك » ؟ هذا ما اقوله لك الآن . مها
بذلت من المحاولات فلا استطيع ان استاء منك ، ولا ان انقم عليك .
لا أقوى على قهر حيي لك . كان يجب ان تكون شريراً معي لانجوى من
هذا الحب ، لكنك لم تكن قط شريراً ...

اجابها بهدوء :

- انا ايضا غير ناغم عليك .

وكان يفهم جيداً ما يقول ، إلا ان سولانج لم تفهم ، فانتفضت

قائلة :

- ما كان ينقصني إلا ان تنقم عليّ !

- كنت استطيع ان اكون شريراً اكثر مما كنت ، لو استعملت ما

اعطيني من السلطة في سبيل الشر . إلا اني اعطيتك نواة احلام عذبة

لايام شيخوختك . وسترين كم ستكون احلامك جميلة يوم تفرخ هذه النواة

وتزهر . أريتك بلداناً لا تعرفينها ، وعلمتك فنّ الحياة ، وجعلت لك

مصيراً . بفضلني انا اكتشفت نفسك ، وغصت في طبيعتك حتى بلغت

اعماقها ، بينما هناك نساء كثيرات ما برحن تأثبات على الطرق يبحثن عن

نفوسهن .

- هذه الحالة التي اوصلتني اليها هي التيه على الطرق . وكم يؤلني

التفكير بانه كان من المحتمل ان نجد معاً السعادة في الزواج ، وباننا لم نقم

بهذه التجربة ، وباننا تألمنا وتعذبنا سدى !

- لم تتألمي سدى . فالرجل وحده يتألم للاشيء ، لا المرأة . أجل ،

عذبتك ، فماذا تريدن اكثر من هذا العذاب ؟ ان المرأة بحاجة دائمة

الى العذاب . من يجرمها العذاب يقتلها . وثمة نساء أصبن بالجنون

لانهن لم يتعذبن ، اعني لم يتعذبن عذاباً طبيعياً . لو استطاعت النساء ،

يوماً ما ، ان يلدن ابناءهن بلا ألم لفقدن عطف الامومة ومحبتها .

لذلك ترين جميع النساء تقريباً شقيات . وهذا افضل لهن . وبعد ،

فما قيمة ياسك ؟ فكري بالملايين الثمانية من البشر الذين هلكوا

في الحرب . فكري بانه كان من الممكن ان تموت امك ، بدلاً

من اهتمامك بزوال رجل من حياتك لا تعرفينه إلا منذ ثمانية

اشهر .

— ألا يكفيني عذابي حتى تريده بمديثك عن موت امي ؟
غير ان حركاتها كانت تناقض اقوالها ، لانها كانت توبخه وهي تداعب
وتقبّله ، وتدير اليه وجهاً يشع بالحب والاخلاص . إلا انه لم يكن يفهم
هذا النوع من التعبير . قالت له :

— كنتُ ، أيامَ حداثتي ، استنكر عمل القديس مرتينوس لانه لم
يعطِ الفقير إلا نصف ردائه . ما الفائدة من نصف الرداء ؟ وانت لم
تعطني سوى نصف ردائك . وهذا لا يجوز . كان عليك ان تعطيه كله ،
او لا تعطي منه شيئاً .

— اعطيت ما استطعت .

ولم يكن صادقاً ، لانه اعطاها ما استطاع بقدر ما رأى انها
تستحق العطاء .

استطردت قائلة كأنها لم تسمع جوابه الاخير :

— لو عشتُ الى جانبك لكانت لي شخصية لا استطيع تكوينها
وانا بعيدة عنك . لولاك لكنتُ شيئاً زهيداً . هذه حقيقة اعرفها
واعترف بها .

وبعد سكوت قصير ، استأنفت حديثها قائلة :

— لكنني اسوي شيئاً على كل حال !

— ماذا تريد ان افعل لاجلك ؟ أتردين ان نتابع علاقاتنا كما
كانت ؟ اسمعي : اني اقترح عليك ان تحقق جميع المشاريع التي خططنا
لمستقبلنا ما عدا الزواج . وبكلمة اخرى ، اني مستعد ان اخصص لك
غرفة في منزلي تقيمين فيها بضعة ايام كل اسبوع . وهذا يعني الزواج
يكل ما فيه من الممانى ، من غير تحديد موعد للعقد الرسمي .

— تريد ان اكون خليلتك ! طبعاً ، هذا الحل يوافقك انت ،
اما انا فانه يهدم حياتي . اكاد لا اصدق انك جادٌ في هذا
الاقتراح .

– أولستِ خليلتي منذ ثمانية أشهر؟

– لم اسألك قط ، في باريس على الأقل ، اما في جنوى فلم يكن احد يعلم حقيقة امرنا . وليست هذه المساكنة ممكنة هنا ... ثم ، يوم اقنا في جنوى كان يمكن القول اننا خطيبان ، اما الآن فلا . لا ريب عندي ان ثمة نساء عديدات يقبلن باقتراحك ، فكن واثقاً باني لست من طبقتهن . لست مستعدة ان اكفيء امي على عطفها وتفهمها وتساؤلها بقبول هذا النوع من الحياة الذي يجعلني واياها على هامش الحياة ، ويوصل في وجهينا جميع الأبواب ، ابواب اسرتنا وابواب المجتمع جميعاً .
فتساءل كوستال في سرّه : « اي مجتمع ؟ » واحس باحتقاره لسولانج يحتمل نفسه من جديد .

واستطردت الفتاة قائلة :

– وفضلاً عن ذلك ، فان عمي « ميركاديا » يجرم امي ارثه اذا علم اني اعيش معك بلا زواج . من المدهش انك لا تفكّر بهذه الامور . فمن هن النساء المحقاوات اللواتي عرفتهن في حياتك ، يا صديقي المسكين ؟

يُستخلص من هذا القول ان الأنة دنديو كانت تتحدى التقاليد وقواعد اللياقة اذا رأت ان هذا التحدي ضروري للحصول على الزواج ، ثم تصبح بورجوازية محافظة اذا كان الحب وحده يدفعها الى التحدي .

رُسرّ كوستال باذنه اكتشف فيها هذه الازعة الانتهازية ، فقال لها بعذوبة ولطف :

– يبدو لي هذا الكلام جديداً بين شفتيك ، ولا استطيع إلا ان اوافق عليه . وعلى هذا فلم يبقَ عليك إلا ان تتزوجي . أتريدين ان ابحث لك عن عريس ؟

– أجبون انت ؟ ستمضي سنوات وسنوات قبل ان اتزوج . فمن

يدعوني الى الزواج الآن كمن يطلب اليّ ان احمل وجهي مبروماً الى وراء ، الى ناحية الظهر . الزواج بك هو الوحيد الذي لا اعتبره نوعاً من الموت . وليست المأسة الحقيقية في انك لا تحبني ، بل هي في كوني لا استطيع ان احب سواك . كم من النساء لم يلتقين قط برجل ذكي ! اين اجد رجلاً مثلك يتمتع بهذا الجوهر من النضج في هذا المظهر من النضارة والرواء ؟ اين اجد رجلاً يفهمني ؟

هذه الصيحة الاخيرة ، التي تحدث تأثيراً عميقاً في النفس لو اطلقها رجل من وزن ارسطو^١ ، او من مستوى هنري برانكاريه^٢ ، جعلت كوستال يشمئز لانه سمعها من فتاة عادية . وكان متأثراً في تلك اللحظة ، ففاص في بئر من الكآبة كثيراً ما تحاول النساء طرح الرجال فيها ، كلما حاولن جعل معاملة الرجال لهن جسدية ، فتبوء محاولتهن بالاختفاق .

وكان كوستال من ابعد الرجال عن الرغبة في « تنشئة » النساء وتعليمهن فنون الحياة ، فلم يفكر قط إلا بتربية ابنه . وكان اهتمامه حق بهذا الابن متقطعاً لا لحمة له ولا مشاركة فيه . وقد أثرت فيه سولانج لما قالت له : « اشعر الى جانبك بان لي شخصية مرموقة » ، لانها لم تكن كاذبة في مديحتها هذا ولا متزلفة . اما الآن فقد اصبح هذا القول يزعجه ، لانه يذكره بالمقالات المضحكة التي تنشرها الصحف في صفحاتها النسائية ، ويرد بها قلم التحرير على رسائل القارئات بأهضاء « المرشدة سيلفيد » ، او « ابنة العم حنّنة » ، ليعلم « الاخوات العزيزات » كيف يكون شخصياتهن .

١ - فيلسوف يوناني (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) كان معلم الاسكندر المقدوني الكبير وصديقه . له مؤلفات عديدة في المنطق والسياسة والطبيبات والفيزياء ، ويعتبر رائد الفلسفة الكلاسيكية .

٢ - عالم رياضي فرنسي من اعظم علماء عصره (١٨٥٤ - ١٩١٢) .

وهذه المحاولات التي تبذل لاعطاء المخلوقات التافهة شيئاً من الاهمية هي من الاعمال التي تثير الدهشة وتدعو الى الرثاء .

قال لها :

- أنتعدين اني فهمتك ؟

فاجابت :

- بكل تأكيد !

فاستولى عليه الدهول ، لأنه لم يكن يجد فيها ما يفهم او لا يفهم .

ثم سألها بكثير من اللؤم :

- أختلفة انت الى هذا الحد عن سائر النساء ؟

- ألم تلمس فيّ هذا الاختلاف بعد ؟

فكرر كوستال بان كل امرأة تحسب نفسها مختلفة عن سواها مهما

تكن شبيهة كل الشبه بجميع النساء ، فقال لسولانج :

- ليس المهم ان تكوني مختلفة عن النساء الاخريات ، بل ان تكوني

مختلفة عن نفسك . اما انت فتظنين دائماً ما انت ، لا تتغيرين مقدار ذرة .

وكان في الغرفة وعاء فيه ازهار تتساقط اوراقها كورجل يرمي نساء

من حياته ، فاستأنف كوستال حديثه قائلاً :

- ما اسخف تصرفات المرأة !

وخطر في باله ، كما يخطر في بال جميع الرجال ، ان سولانج مستعدة

لان تستسلم لكل رجل يشتهيها ، لانها استسلمت له ، فقال :

- ان المرأة لا تتعلّق بالرجل الذي تحبه إلا اذا كانت خالية من

الذكاء . فكوني ذكية قليلاً كاهل الصغير الذي يرى الباب مشقوقاً ،

فيفتحه بيده ليخرج . اجل ، تعلمي كيف تخرجين . ففي العالم رجال

كثيرون مثل كوستال يستطيعون الانسجام معك على احسن ما يرام .

اما نحن فمن الواضح ان احدنا لم يولد للآخر . وفي وسعك ان تكوني

على حذر في المستقبل ، برفع النظر عن الفوائد التي جنيتها من تجربتك

معي . كان الآخرون يفكرون عوضاً عنك حتى الآن ، فعليك منذ اليوم ان تفكرري بنفسك ولنفسك . فالغاية التي تسعين اليها ليست الحب ، بل الزواج . وانا مستعد ان اشترك معك في خيانة زوجك بقدر ما تشائين .

— واذا احسست اني لا استطيع ان احيا حياة مزدوجة ؟ فانت تعلم اني لن اخون زوجي مهما يكن الامر ، فليس هذا سبيلي في الحياة .
— وماذا تريدان اذاً ؟ ماذا استطيع ان افعل لاجلك ؟
وخطرت في باله فكرة رجل ، فكرة غليظة ، خشنة الى اقصى حد ،
إلا ان الحوادث التالية اثبتت انها فكرة ممتازة ، قال :

— تعلمين اني واثق كل الثقة باننا لو تزوجنا لما كان لنا مفر من الطلاق ، فقد كنت احلم بالطلاق بقدر ما احلم بالزواج ، فالطلاق هو العمل الاساسي والأهم في الزواج ، عليه يجب ان نلقي اتكالنا ، واليه يجب ان نوجه اهتمامنا ، واني لأرجو ان تجعله الكنيسة سراً مقدساً كالزواج ...

ابتسمت له ، فسرّه هذا الشعاع من نور الشمس بعد فترة طويلة من الظلام ، اذ حسب ابتسامها دليلاً على الانسراح كما يعتقد علماء النفس ؛ لكن ليس بين السخفاء من هو اسخف من عالم نفساني ، أفلا يتسم المرء احياناً من شدة الألم ؟
واكمل حديثه قائلاً :

— ... لهذه الاسباب قلت لك يوماً اني ساقدم لك خاتم الخطبة في حفلة الطلاق ، لا في حفلة الزواج . فاسمحي لي بان اقدم لك هذا الخاتم الآن . انه مرصع بحجر وحيد من الألماس . وهذا رمز لصديقك كوستال الذي يحتّم عليه مصيره ان يظل وحيداً .

— لا استطيع ان اقبل منك خاتماً في هذه الساعة !
ففتح صندوقه الحديدي ، واخرج منه خاتماً جميلاً كان لامه التي

قالت له وهي على فراش الاحتضار : « أما خواتمي فقدمها لصديقاتك الحميات » .

كانت الغرفة ما تزال غارقة في الظلام . فما كادت سولانج تأخذ الخاتم حتى انارت الكهرباء لتراه ، فادرك كوستال ان حالتها قد تحسنت . ومدّت يدها كأنها تريد ان تعيد الخاتم اليه ، فسأها :

— ألا تريدينه ؟

فلزمت الصمت .

قال لها :

— التمس منك ان تقبله !

فابرزت شفيتها كما كانت تفعل لما كان يقدم لها صنفاً من الحلوى في المطعم ، ثم قالت :

— لا بأس ! اني اقبله . غير اني لا اعتبره هدية ، فهذا غير لائق بي ، بل اعتبره تذكراً منك .

— طبعاً ! فانا لا اقدمه لك الا بمثابة تذكار ، ولم افكر بانه هدية .

فحرّكت الخاتم لتفحص بريق الألماس ، ثم قالت :

— من المؤسف ان صنعة الذهب قديمة ولم تعد دارجة .

— ساوصي لك على خاتم حديث وارصعه بهذا الحجر .

وقال في سره : « يا لها من بغي مسكينة ! انها الفتاة التي قالت

عنها انها اكثر من مرة انها لا تحب الحلي . وما هي تتعهر لتحصل

على الزواج ، ثم تقبل ثمن تعهرها لتداوي به خبيتها . انها لا تحتلف

بشيء عن عامة النساء . أجل ، ليس في العالم امرأة لا تتعهر . ثم انها

طفيلية ، نفعية ، فمئذ ثمانية اشهر ما برحنا نخرج معاً الى المدينة ، فما

فتحت حافظة نقودها إلا مرة واحداً لتشتري خيطاناً بخمسة قروش .

فلم يبقَ عليّ إلا ان اعطيها شهادة بانها تستحق ٥ على ٢٠ في القابلية

الجنسية ، وان ادوّن على هذه الشهادة اوقات الدخول الى مخدعها والخروج

منه . لكن ، هل كنت ارجو الوصول الى افضل من هذه النتيجة ؟
اصبحنا الآن متعادلين : لا عليّ ولا لي .

يوم كانت « الفتاة المرشحة لتصبح زوجته » ، ثم امست خطيبته ،
جعلته في جوٍّ بالغ السمو لا يألفه ولا يستطيع البقاء فيه . اما الآن وقد
غدت بغياً فانه يجد الى جانبها الضمائم والارتياح ، ويعود في معاشرتها
الى حياته الطبيعية .

دفع لها خاتماً ثيناً كما يدفع السجين رشوة لحارسه كي يتسنى له
الفرار . هذا هو المقدّر للمرأة في هذه الحياة .

وعاد اليه اسلوبه الساخر الحبيث في الحديث ، لأنه لم يكن ليهتم
طويلاً بأعماله الشريرة ، فقال لسولانج :

— متى تزوجتِ ، قولي لزوجك انك ورثت هذا الخاتم من جدتك
التي كانت تزين به يدها في الحفلات الراقصة التي كان يحييها الامبراطور
نابليون الثالث . ونبهي امك الى هذا الامر لثلاث تقول الحقيقة فنخونك .
— تخونني ؟ يبدو لي ان الخيانة من شأنك انت !

— جميع افراد اسرتي اقدموا على الخيانة . خانوا ليخونوا ، كما
حاربوا ليحاربوا . هذه النزعة متأصلة في دمنا منذ خمسة قرون . ولو
كنت من بنات فرنسا لعاملتك معاملة اخرى لكونك امرأة اخرى .
يطيب لك التفكير بانك حدثت فريد ، فلو كنت حدثت فريداً حقاً لما
اقدم رجل على خيانتك .

وبقساوة فظة ، طلب منها ان تخلع ثيابها . فقد اشتهاها في تلك
اللحظة للمرة الاولى بعد عودته من جنوى ، لانه لم يعد يخشاها ، ولانها
اصبحت في نظره بغياً .

قالت ، كأن شيئاً لم يحدث بينها : « أتريد ان أحلّ شعري ؟ ... »
أخذها مرتين بحماسة كأن شهوته موجة عارمة لا قبيل له بمقاومتها .
واحست هي ، للمرة الاولى بعد عودتها من جنوى ، انها جنت من

الرسال متعة كبرى .

كانت رخوة ومتخاذلة لما كان هو عاشقاً شارد الفكر ، وخطيباً متخوفاً من كل شيء ، فاضحت شلعة محتدمة لما اصبح حازماً في قراراته ، قوياً في مداعباته . ثم انها لم يكونا في تلك الفترة إلا خليلين ، فرأيا أن يقوموا بعملها في هذا النطاق على الوجه الأكمل .

ولما همت سولانج بالذهاب ، اخذت علبة السواكير التي كان كوستال قد أفرغها ، ووضعتها في حقيبتها لتكون لها آخر تذكار من ايام خطبتها . فقال لها الكاتب :

— ان الذين يحتفظون برسائلي او بعلب السواكير الفارغة التي ارميها ليتظاهروا برقة العواطف ، يثيرون استيائي حتى الجنون كالذين يصلون لاجلي . اخذت الخاتم ، وهو يكفي .

وانتزع منها علبة السواكير لي طرحها في سلّة المهملات .

وبعد العشاء ، اتصلت به السيدة دنديو هاتفياً ، وتحدثت اليه حديثاً كان مثال الحكمة والرصانة . فقد تخلّت ، هي وابنتها ، عن كل شيء ، بسهولة مدهشة ، كما قبلتا في ما مضى كل شيء بسهولة مدهشة . وهذه هي فضيلة الازعان التي تتحلّى بها النساء الفرنسيات . اما ارادة هذا النوع من النساء التي تتبجّح بها كثيرات ، فانها ركيكة سريعة الاهتراء . فالام عندنا تمنع ابنها اربع مرات عن ارتكاب حماقة ما ، وفي المرة الخامسة ترفض التدخل في شؤونه ، فيستطيع ان يكسر ساقه بكل راحة بال .

وفي نهاية المحاربة الهاتفية ، سأل كوستال : « أيجب عليّ ان احافظ على علاقتي بسولانج ، وان التقيها من حين الى آخر ؟ » فاجابت السيدة دنديو بالنفي .

وكان يود ان ترد الام عليه بهذا الرفض ، لأنه كان يفكر بالذهاب الى المغرب ليزور صديقه خديجة التي لم يرها منذ ثمانية عشر شهراً

تقريباً .

وعلم ان احدى البواخر مزمعة على الابحار في اليوم التالي الى الدار البيضاء ، فركب القطار وتوجه الى بوردو من غير ان يرى سولانج ، وهو يقول في نفسه : « لا احسن الفرار وحسب ، بل احسن الفرار في الوقت المناسب وقبل فوات الاوان » .

ثم جعل هذه الحادثة بين هلالين ، واعتبرها في ذمة الماضي .

اصبتُ بالشبهة ،

الله ارادها لي ؟

ابتهلت الى يسوع

فشفيت منها .

- هذه العبارة من الازجال الشعبية الفرنسية المفضاة التي يتمدّد قلبها بامانة الى العربية ، ويردها البسطاء عندما يصابون بالشبهة لاعتقادهم ان لها كرامة سحرية شافية ، وهي :

J'ai l'hoquet .

Dieu m'l'a fait .

P'tit Jésus ,

Je n'ai plus .

من

اندرية هابو

سان ليونار

الى

بيار كوستال

باريس

٢٧ كانون الثاني ١٩٢٨

اشتريتُ من احد محلات الآثار القديمة في مدينة اورليان قطعة من ورق الأرزّ الصيني عليها صورة عصفور مرسومة باليد . وهذه التحفة هي الشيء الوحيد الجميل في غرفتي ، وحتى في منزلنا كله . فجميع الصور الاخرى نسخ لا قيمة لها .

اني انظر الى صورة العصفور ولا ارتوي ، ثم افكر بان رجلاً رسمها ، واتذكر تمثالاً من الخشب رأيتسه يوماً في متحف دينري ، يمثل افعى ملتفة على سلحفاة ، وقد بدا جسم الاعمى منبسطاً قليلاً حيث يضغط على بيت السلحفاة ، فكان ذلك كافياً ليعطي التمثال مظهرأ من مظاهر الحياة . وعلى مسافة الوف الكيلومترات ، منذ مئات السنين ، صنع رجلٌ آخر هذا التمثال من الخشب .

كنت احسب الفن من الكماليات العديمة الفائدة التي تهم تلاميذ

المدارس والنساء ، لاني ربيت في بيئة خالية من الثقافة ، ولم تكن الدروس الابتدائية التي تلقيتها كافية لتنير عقلي وتغيير افكاري . ولما بدأت ادرك ان الانتاج الفني مقتصر على الرجال اقتصاراً يكاد يكون كلياً ، وانه اسمى تعبير عن نشاط الرجولة ، انتابني ذهول لم يزل تأثيره في نفسي حتى الآن .

واليوم ، عندما ارى تحفة تحرك احساسني ، او اقرأ صفحة تصبغ وجهي بالاصفرار ، افكر بان رجلاً كتب هذه الصفحة ، ورجلاً آخر ابدع تلك التحفة ، فيملأني شعور عميق بالاحترام وعرفان الجميل ، وارى ان علينا ، نحن النساء ، ان نلزم الصمت . فلوحة العذراء في متحف اوتون^١ ، ولوحة اندروماك ممسكة بابن هكتور^٢ ، ولوحة ماوغلي^٣ وهو يودع الادغال ، وكاتدرائية شارتر^٤ ، والبارتينون^٥ - هذه التحف كلها

١ - مدينة فرنسية على نهر لوار فيها ابنة رومانية قديمة ، وكاتدرائية فضحة ، ومتحف شهير .

٢ - زوجة هكتور بن بريام ملك طروادة وام استياناكس . بعد سقوط طروادة وهلاك زوجها اصبحت أمة لبيروس بن اخيل الذي خيّرهما بين ان تقتلن به او ان يقتل ابنها ، فصمتت على الاقتران به لانقاذ استياناكس ، ثم على الانتحار بعد حفلة الزواج فوراً لتظل امينة على عهد هكتور ، إلا ان بيروس قتل قبل الزواج ، فنجت من الموت . تفتى بها هوميروس في الايلاذة واعتبرها مثال الأمانة الزوجية ، واتخذ الشاعر الفرنسي راسين من قصتها موضوعاً لتمثيلية من اشهر تمثيلياته .

٣ - بطل « كتاب الادغال » مؤلفه ديارد كيلنغ ، نشأ مع الذئاب وعاش حيوانات الادغال كأنه منها .

٤ - شارتر : مدينة فرنسية فيها كاتدرائية تعتبر من روائع الفن الهندسي في العالم ، ومن اجمل الآثار القديمة وانماها . رقى تاريخها الى القرن الثاني عشر .

٥ - هيكل قديم في آثينا ، بني في القرن الخامس قبل الميلاد . وهو من اجمل الآثار المعروفة في العالم .

ولدت من الحب ، من ذلك الحب الذي يحذقه الرجال ويعطونه بطريقة غير العناق والضم بين الذراعين . لكن ، ليمتد الفن في نفسي ذلك الحب الذي تمخض به وابدعه ، يجب ان اتذوق ، ولو مرة واحدة ، عناق رجل لاعرف ما هو ، ولاستطيع بعدئذٍ أن اصرف عنه اهتمامي .
لو أخذني رجل مرة واحدة بين ذراعيه ، لكان عالم الفن كله لي ، ولانطلقت في مجراه العذب الواسع المتدفق بين الفتات والمخلوقات والاشياء ، عوضاً عن بقائي على ضفتي . ان رفضك القاسي ، رفضك الذي لا يرحم ولا مبرر له ، حرمني كوناً فسيحاً ، ومع ذلك احس ، في هذه اللحظة ، اني غير ناقمة عليك .

في اليوم التالي . - انك تعلم كيف تجري الامور معي : يجب ان ابوح بما في صدري . لن احاول التمويه ، بل اصارحك بانك آلمتني . في تحريف الماضي عرفت من الصحف انك سافرت الى ايطاليا ، ففهمت قصدك ، وادركت انك تريد اطالة المسافة التي تفصل بيننا . ثم ان السفر يساعدك على صرف ذهنك عن التفكير بي . وقد اخترت حديثك في الراديو اليوم الذي كنت فيه عند عمي ، وليس في بيته راديو . واتذكر جيداً اني كتبت اليك : « خلال يومي الاربعاء والخميس ساعيش بعيدة عن الكتب والراديو ، وستكون هذه الفترة صعبة عليّ ! »
وصل عمي . فالى اللقاء . ساعود الى اكمال هذه الرسالة بعد قليل .
اسمع هذه الحكاية .

منذ ساعة تقريباً ، كنت عائدة الى منزلنا مع عمي ، فلما وصلت الى المفترق بين شارع الجمهورية وشارع الدباغين ، احسست كأنني تلقيت قبلة . وكان احساسني بها قوياً حتى ان وجهي اصطبغ باحمرار الحياء . ولا ريب في ان نسمة قوية من الهواء هبتت وشفعت شفتي ، فبعثت في هذا الشعور . ولأني امرأة مائة بالمائة ، اي اني استحق الدوش

البارد^١ في فترات حماسي الغرامية ، فقد آمنت بصحة تبادل الافكار .
واخيراً وصلت الى البيت ، فماذا قرأت في الجريدة ؟ قرأت ان حديثك
في الراديو أرجىء الى بعد غدٍ . أفي وسعي ان اعتقد ، او أكون
مغرورة اذا اعتقدت ، انك احسست بتبكيت الضمير لما قررت القاء
حديثك في يوم لا اتمكن فيه من الجلوس الى جهاز الراديو لاسمك ،
فأرجأته الى بعد غدٍ ؟ اذا كنت قد حذرت الحقيقة فاذكر عبارة
« تبكيت الضمير » في الجملة الاولى من حديثك . قل ، مثلاً ، : « سيداتي ،
سادتي ، كان من المحتمل ان اعاني « تبكيت الضمير » لو لم اتمكن ، الخ... »
كتبت هذه الرسالة بسرعة ، بسرعة ، وهرعت الى صندوق البريد
لاضعها فيه كأنها ستصل اليك على الفور ، مع العلم انك ستسماها غداً
صباحاً ، فتعطيك قليلاً من السرور ليومك كله .

أ.

'رفقت برسائلي هذه قطعة من قماش الثوب الجديد الذي يعده لي
الحيّاط لتشتري ثوباً مثله لصاحبك في هذه الايام .

(رُضمت هذه الرسالة في الملف الخاص بها من غير ان 'يفض غلافها)

١ - طريقة متبعة في مستشفيات الامراض العصبية لتهدئة اعصاب المجانين عندما
تنتابهم ازمات حادة من الهيجان ، ولاسيما الهيجان الجنسي .

من

اندرسه هاكيو
سان ليونارد

الى

بيار كوستال
باريس

٢٩ كانون الثاني ١٩٢٨

كوستال ، عزيزي كوستال ، لست خطيباً . لست موهوباً في الخطابة .
انتظرت الموعد الميعن لحديثك بالراديو ، وكنت اخشى ان تبدأ قبل
الوقت بخمس دقائق .

منذ الساعة السابعة جلستُ انتظر، فتعلمت من حديثك ان اللابونيين^١
يأكلون السمك مغمساً بالنفط ، وان السيد كلود فارير^٢ « كاتب كبير » ،
وان معجون « فيبو » للشعر يمتع حتى الصوف . فما اكثر ما اتعلمه
بفضلك !

١ - شعب متخلف يعيش على صيد السمك وتربية الأيائل في المناطق القطبية الشمالية .
عدده حوالي ٣٠ الف نسمة .

٢ - اسمه الحقيقي فريديريك برغون فارير (١٨٧٦ - ١٩٥٧) ، روائي فرنسي
كان ضابطاً في البحرية . اشهر مؤلفاته : « التمدنون » ، و « المركلا » .

انتظرت عبارة « تبكيت الضمير » تلفظها شفتاك ، فما سمعتها . ومن المحتمل ان تكون فاتتني لأن لفظك سييء . إلا اني وجدت في حديثك ما ادوي به خبتي لما ذكرت ما ورد في كتابك : « ارجوان » ، من قول الأم لابنتها : « احبك حباً عظيماً لا اجد فيه مجالاً لايوح لك به » ، ورأيت ان لا شيء في حديثك يوجب ايراد هذه الجملة ، فاعتبرتها موجبة منك اليّ ، وتبادر الى ذهني انك تعمدت قولها لي .

اجل ، ان لفظك سييء . فانت عصبي المزاج ، يستولي عليك النزق ، فيصبح صوتك قاسياً ، ويندفق كلامك كالسيل الجحاف .

أتدري ما هي افضل كلمة قلتها في حديثك ؟ انها الكلمة التي قلتها بصوت خافت للموظف الذي سجّل صوتك ، فقد سألته : « أتراني اتكلّم بسرعة ؟ » وسمعتك مائة الف نسمة من المستمعين ، على الرغم من ان صوتك كان خافتاً للغاية .

خطر في بالي اني اسأتُ باطلاعك على اني ساستمع اليك ، فقد يكون علمك بهذا الامر سبب ما انتابك من الاضطراب . اني اشوش حياتك . فرسائلي تفقدك شطراً من وقتك ، وربما كان تفكيري بك يسيء الى مشاريعك الغرامية ، لاني احبك لنفسي . اما متعتك انت فخذها من سواي . يجب عليك ان تبذل كل ما أوتيت من القوى لتملّص مني ، فاصفح عني .

يا للغرابة !

كنت اعتبرك علجاً جميلاً على جانب من الذكاء ، يدهاه غليظتان ، قاسيتان ، فاستطعت التخلّص عن تفوقي الحقير ، هذا التفوق الذي رضيت به فترةً من حياتي في معاشرتي للرجال الضعفاء ، وهم الوحيدون الذين عرفتهم قبل ان اعرفك . إلا اني اشعر بقوة تدفعني اليك لاسعفك ، وآخذ بيدك ، كلما رأيتك تتعثر وتكاد تسقط . اغتبط حين تكون مسروراً ، لاني اجد في سرورك ما يعزيني في حياتي الخاملة . واعتقد اني

اغتبط اكثر حين تعمل اعمالاً تسبب لك بعض الانزعاج ، او حين تكون منزعجاً ، لاني اشعر باقترابي منك وباني غدوت اختك في العذاب . فقلبك الاصم ، هذا القلب الذي يُصمُّه دائماً ضجيج انتصاراته ، قد يرضى بان ينصت اليّ قليلاً اذا خفت هذا الضجيج . ولا ريب في ان حديثك الهزيل ، في راديو باريس ، قد خيَّب المعجبين بك . وفي مختلف انحاء فرنسا يتساءل الناس اليوم : « لماذا يتكلم ما دام لا يحسن التكلم ؟ » وربما رأى البعض ، كما رأيت انا ، ان معنى حديثك ، فضلاً عن منبها ، ليس على شيء من الجمال . ومن واجبي ان انبهك ، يا صديقي ، الى انك بدأت تردد آراء ابديتها في ما مضى . ويخامرني شعور عميق بان ثمة الوفاً من الرجال والنساء ابتمدوا عنك قليلاً . ولهذا السبب احس اني اقرب اليك بكثير مما كنت قبلاً . اني مخلصه لك ، أمينة على عهدك . وما احسن حالنا حين يكون كلانا معزولاً عن الناس ، تشد الالفة احدنا الى الآخر بين جماهير المستهترين الذين يتخلون بسرعة عن احبائهم !

يا للشيطان ! هوذا عمي يدعوني الى العشاء . انه يصيح « ديدي !... ديدي !... » كأي طفلة . فيا لي من طفلة بلغت من العمر ثلاثين عاماً وتسعة اشهر ! ولو كنت انت تناديني هكذا لهان الامر .

الساعة التاسعة ليلاً

اشعلت الضوء لاروي لك هذا الخبر : لما اطفأت النور في غرفتي ارتفعت ذراعاي وتعاقدتا كأنها تضمان جسماً حبيباً ، فتالتق وجهي ابتهاجاً وخطبتك قائلة : « اني هنا ، الى جانبك ! »

الساعة الواحدة صباحاً

يا حبيبي المعبود ، اكتب اليك بانتظار فنجانت الازهار المغلية على امل ان يزيل عني الأرق فانام . وقد اغتنمت هذه الفرصة لاقول لك كم احبك .

فيسا حبيبي ، ويا اعز الناس عليّ ... لا أستطيع ان اموت قبل ان اقول لك هذه الكلمات العذبة . وكيف اموت دون ان اكون قد قلت شيئاً ، او عملت شيئاً ؟ كيف اموت دون ان انا ما ينال احقر الناس ، وهو لا يكلف شيئاً ، ولا يسيء الى احد ؟

انك تستطيع ان تجد السعادة بسهولة في كل عناق ؛ اما انا فلا اجد سعادتني إلا في عناقك انت . انك تعلم هذه الحقيقة ، وتحبني . غير انك بلغت من قلّة الشرف حدّاً اصبحت فيه لا تريد ان تعطيني شيئاً . ومع ذلك ، فان غرفتي ، في هذا الليل ، مفعمة بك ، يملأها صوتك ، يملأها وجودك معي . انت الذي جاء اليّ ، ولست انا التي دعيتك . خرجت من جهاز الراديو خروج الروح من القمقم المسحور . وها انت بوجهك المتسم بطابع الحنية والهزيمة ، لان زملاءك قالوا ان في حديثك كلمات لاذعة ، ظاهرها عذوبة وباطنها مرارة ، من طراز : « لا ! لم يكن هذا الحديث رديئاً ولا نافعاً ... ولا ريب في ان اجادتك ستأتي مع الوقت حين تألف التكلم بالراديو ... »

كم انا جائعة اليك ! وكم اعاني من الألم في هذا الجوع الفظيع ! يوم كنت غارقة في الصمت ، لا اشعرك باي ما ازال في قيد الحياة ، كنت انتظرك . وحين كنت اكتب اليك ، كنت انتظرك . ولما كنت اوجه اليك الاهانات ، كنت انتظرك . وها انت الآن معي ، وليس وجودك الى جانبي من مبتكرات خيالي .

يا إلهي ! اجعلني قادرة على ان اكون جذيرة بهذه السعادة .
الكهرباء معطلة ، فاشعلت شمعتين كما فعل « فرتر »^١ في الفصل الاخير

١ - رواية الشاعر الالماني « غوته » وضمت بغالب رسائل متبادلة بين فرتر وحيبيته ، وقد شحنها المؤلف بالمواطف الرومنطيقية اليائسة ، مقتبساً حوادثها من حياته ، فكان لها تأثير ادبي عظيم في مختلف انحاء العالم . وقد كانت من اقوى العوامل التي ساعدت على انطلاق التيار الرومنطيقى .

من روايته ، فامتألت غرفتي بالاشباح والاطياف الرهيبة ، حتى
خيّل اليّ ان هذه الغرفة ليست غرفتي ، بل غرفة مجهولة . اني أتألم .
ليتك تدري كم أتألم في جسدي ، في اعماقي ! فانك تخفضتي خضاً . ليتك
تعلم كم تتوق اليك - وكم تتناول لتبلغك - هذه المرأة التي اردتها هكذا ،
وخلقتها هكذا ، فهي لولاك لما كانت في الوجود ، ولم يكن لها وجود
قبل ان تعرفك !

اجلس هنا لأجلس الى جانبك ، وألتصق بك ، واقول لنفسي انك
هنا ، وان هذه ثيابك .

والآن ، ارفعني بين ذراعيك ، اطرحني على هذا السرير
الذي لا اعرفه ، فهو ليس سرير « ديدي » ، ولا السرير الذي
كنت اتأوى عليه شوقاً وألماً كأني مسمّرة فيه بسهم اخترق
جسدي .

انك تأخذ رأسي بين يديك ، وتمد اصابعك من تحت الشعر الى
صدغيّ . ما ألدّ هذا البرد الذي تسكبه فيّ !... انك تمد ساقيّ
برصانة وجدّ .

لماذا لا يعود نور الكهزياء ؟ اننا بحاجة الى الضوء . لست دميعة في
هذه اللحظة ، وانك لترى ذلك عن كثب . اريد ان اراك كلك لانك
اصبحت ماثلاً للرجل الذي به حملت .

لم تعد العلاقة القائمة بيننا تسلاً زهيداً منك اليّ كما كانت حتى
الآن ، بل يبدو لي انك بدأت تبني عليّ ، انت بيار كوستال^١ ، بكل
جسدك ، وكل انتاجك ، وكل حياتك . ما اطيب مداعبتك العميقة ،

١ - تلاعب المؤلف هنا بكلمة « بيسار » التي تعني « بطرس » ليرمز الى
ان الدوريه هاجبو تحمل بان بيني كوستال عليها بيعته كما بنى بطرس
الكنيسة .

العميقة ، التي تبحث عني في مكان يفوقني مداه ، كأنها تريد التقائي لا أدري أين ! وكم تملأ هذه المداعبة كياني كله ! وكم تريخ جسدي الذي أنخنته جراحاً لما حرصته على التوق اليك ! احسن ان آلامي تزول كما تزول آلام الجروح الصغيرة في الاصابع عندما نضغط عليها بشدة . عانقتي . شدتي اليك بقوة . اسحقني . اجعلني اصيح ، اجعلني اتوسل ، اجعلني اشكو من شدة السعادة .

انك تسمع انيني ، وتعلم انك تجعلني سعيدة ، فتسعد بسعادتي . انك لا تتعب من الحب ، بل تبقى فيه طويلاً بقدر ما انتظرتك . وبعد ، يا صديقي ، فقد اضحيت تعلم الآن ما هو الحب . ستقول لي ، يوماً ما ، الكلمات التي أعرتك اياها ، وامليتها عليك مرات عديدة بصوت خافت ، في انفرادي الطويل ... تلك الكلمات التي تربط المستقبل ، والتي كنت تقولها لي يوم كنت احبك قبل ان اعرفك ، كما تحب الام ابنها الذي لم تلده بعد . وسابقي الى جانبك طائشة بالسعادة ، أندس بك لأحتمي كما تندس الغنمة الصغيرة بكبش القطيع لتحتمي من الشمس .

ثم استلقي على السرير من جديد ، واقول لك : « خذني اكثر ، لم اشفَ بعد ! »

اني اغلق بسرعة غلاف هذه الرسالة . ولا اريد ان اعلم ما كتبت اليك فيها .

ان سعادتي بحاجة الى عقوبة . فلن اكتب اليك قبل يوم السبت المقبل .

أ

(وضعت هذه الرسالة في الملف الخاص بها من غير ان يفض غلافها . إلا ان كوستال وجد عليها طابعا لم تختمه دائرة البريد ، فانزعه عنها)

الجزء الثاني



في المغرب عام ١٩٣٣

سألها كوستال :

— ما الذي سبب هذا البخار ؟

— الحرارة .

— الحرارة ؟ اين هي الحرارة في شهر شباط ، وفي جبال الأطلس ١

حيث تحيط بنا الثلوج ؟ ألا ترين البخار يتصاعد من افواننا ، لشدة

البرد ، مع ان هذه الغرفة مُدفئة ؟

— الشمس حارة ظهراً .

كانت النافذة خالية من درفتيها ، وليس عليها ستار (اذا صح ان

نسمي هذا الثقب الصغير نافذة) . كانت ثقباً في غرفة مخفر عسكري

قديم اصبح اليوم فندقاً رثاً في بلدة تغرمت ، يتولى ادارته عريف متقاعد .

وكان كوستال نزيل هذه الغرفة ، وقد علق رداءه الكبير جاعلاً

منه ستاراً للنافذة التي تدخل منها نسبات باردة ، ثم رفع طرفه ليرى

ما في الخارج .

على مسافة ثلاثمائة متر تحت الفندق ، كانت النار تلتهم ادغالاً ، وقد

امتد اللهب شريطاً طويلاً عرضه حوالى خمسين متراً ، كأنه يشن هجوماً

١ - سلسلة جبال في افريقيا الشمالية ، يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ، في المغرب ،

٤١٦٥ متراً .

على البلدة ، وعلى بيوتها المبنية بالتراب المصفر ، القائمة في منحدر متدرج كأنها صاعدة الى هيكلك القمة .

كانت اللهب يزحف كحيوان عازم على الافتراس . هكذا كانت الغيوم تزحف امس على المنحدرات كأن فيها حياة حيوانية . وقد رأها كوستال تجتاز الطريق بسرعة السيارة على مسافة بضعة امتار منه .

ومن طرف الشريط الناري ، كان يرتفع دخان كثيف فيبلغ عنان السماء ، ويحجب اسراب النجوم ، ثم يتلعمه فراغ الفضاء اللامتناهي . وفوق القمم المكسوة بالثلوج ، كانت السماء اكثر صفاء ، كأن فيها هالة مشعة تنبثق من هذه الثلوج .

سألها كوستال من جديد :

— أخرج القصبه بيتك ؟

— اجل ، انه هناك .

— أتظنين ان لا خطر عليه ؟

— لا خطر عليه مطلقاً .

وسأل كوستال نفسه : « لو كان عليّ ان اقتحم اللهب مجازفاً

بجياتي لانقذ خديجة ، أفكنت افعل ؟ » فكان جوابه : « نعم » .

كانت ترتدي ثوباً من الصوف الرمادي ينحدر الى رجليها ، وقد شدته بزئار من الصوف الازرق ، وزينته ، في جوار الكتفين ، بدوسين كبيرين من الفضة المنقوشة . وكانت عارية العنق ، عارية الذراعين من الابطين ، فراح كوستال يتنسم رائحتها الشبيهة برائحة البهارات . كانت رائحة جنس آخر من البشر استقبلته ، واستولت عليه ، وسحرتة على رصيف ميناء الاسكندرية يوم وصل الى افريقيا للمرة الاولى ، فكان يشتهي ان يعض هذه الرائحة بكل ما أوتي من قوة ، كما يعض الكلب السكران فؤارة الماء .

كانت تثبت وجودها معه بالصمت الدائم والجمود المستسلم ، المدعن ،

فتجعل من الكلمات التي يقولها مخلوقات جهيضة ، مسوخة . وكما أحب ، في ذلك اليوم ، ان يطلعها على ما يبعثه في ذهنه مشهد ذلك الشريط من اللهب ، اذ تذكر خطأ آخر من النار امتد امامه عام ١٩٢٤ ، يوم كان رجال عبد الكريم^١ يطلقون الرصاص .

وكان كوستال يومذاك بين الفرنسيين يطلق الرصاص على الثوار ، إلا انه كان مدنياً ، لحق بالجنود الى خط القتال « ليرى العاقبة » ، كما فعل بطرس في جبل الزيتون لما تبع الجنود الذين قبضوا على يسوع (متى ، الاصحاح السابع ، الآية الثامنة والحسون^٢) . اخذ بندقية ، في ذلك اليوم ، لان البندقية هي عضو الذكورة الثاني في الرجل ، ولم يكن ليبيالي باحد من الفرنسيين او المغاربة . إلا انه كان الى جانب فرنسا لانه يتكلم اللغة الفرنسية ، ويمجد الحياة في فرنسا اسهل منها في بلد آخر وامتع .

ومن حين الى آخر ، كانت تراوده الرغبة في التحدث الى خديجة عن هذه الذكريات ، وعن الشعور الذي بعثته فيه الثورة . إلا انه كان يازم الصمت لاعتقاده بان لا فائدة من هذا الحديث . فالكلام عديم

١ - الامير عبد الكريم الريفي زعيم افريقي ولد عام ١٨٨٢ . اعلن الثورة على الاستعمارين الاسباني والفرنسي في المغرب والجزائر ، وبعد معارك ضارية القى السلاح واستسلم للفرنسيين سنة ١٩٢٦ ، فنفي الى جزيرة ريونيون في المحيط الهندي . وعام ١٩٤٧ نُقل الى فرنسا ، فتمكن من الفرار الى مصر حيث كرّس نفسه لخدمة جامعة الدول العربية .

٢ - وردت هذه الآية في الفصل السادس والعشرين من الانجيل متى ، لا في الفصل السابع ، وهذا نصها في الانجيل الصادر عن مطبعة المرسلين اليسوعيين في بيروت ، عام ١٨٧٨ : « وتبعه بطرس من بعيد الى دار رئيس الكهنة ودخل وجلس مع الخدم حتى ينظر العاقبة » . اما في « الكتاب المقدس » المطبوع في بيروت سنة ١٩٥٢ على يد « جميعات الكتاب المقدس المتحدة » البروتستنتية ، فقد وردت الآية هكذا : « واما بطرس فتبعه ... لينظر النهاية » .

الجلدوى مع الخديجات اللواتي يقتصر فضلهن على بعث الذكريات الشقي في
اذهان الرجال .

خلعت معطفها وجلست على الكرسي الوحيد في الغرفة . وقام
كوستال يحرك النار طالباً الدفء ، فردت النار عليه بهجوم مضاد
كأنها ضيغم نائر ، وتصاعدت منها موجة من الدخان فاحتلت
الغرفة .

جلس كوستال على السرير ، بينما كانت خديجة تنخر على التوالي كما
ينخر الطفل بعد نوبة من البكاء ، فسألها :

— أمزجة ؟

اجابت : نعم .

وامتخطت ، فرأى انها مصابة بالرعاف .

كانت في السادسة عشرة والنصف من العمر ، لكنها تبدو كأنها في
التاسعة عشرة او في العشرين ، صافية البشرة ، مشدودة العينين ، صغيرة
الانف ، سمينة الشفتين . قسبات وجبها متجانسة ، منسجمة ، فيها طلاقة ونقاء
كأنها من بنات الهند الصينية ، لا من بنات المغرب . وكانت قد ألفت
على السرير رباط الرقبة الاحمر والاخضر الذي رفعته عن رأسها ، فبدأ
شعرها كستنائي اللون ، حريري الملمس ، كشعر الفرنسيات .

وعلى الرغم من السكوت الذي خيم عليها ، ومن ندرة الكلمات
التي تبادلاها ، احب كوستال ان يطيل فترة انتظاره للتعمة . ولم
يكن من المحتمل ان يخلّ بواجبه نحو خديجة التي كانت تقابل انضباطه
بانضباط مماثل ، فلا تكاد تخرج من السرير وترتدي ثيابها حتى تجلس
على الكرسي في صمت وهدوء . وكان هذا احد الاسباب التي جعلته يحبها ،
اذ لم يكن مضطراً الى الحوض معها في حوار رفيع المعاني . فقد كان
يؤمن ايماناً راسخاً بان جميع الاحاديث باطلة خلال عمل الحب ، وخصوصاً
الاحاديث السامية الموضوع .

عرف خديجة منذ اربع سنوات في الدار البيضاء ، حيث كانت تقيم في دار احد اعمامها . جلست يومذاك الى جانبه على البنك ، في حديقة « ليوتي » العامة ، فلم يخطر بباله ، في البداية ، ان يشتهيها . إلا انها تسوكت بدبوس ، فرأى لسانها ، فانفجرت شهوته انتفجار البركان . كانت بيضاء البشرة ، هزيلة الجسم . وقد حددها كوستال بقوله :
« انها جناح ديك في مطعم رخيص ! »

كانت تبدو في اغلب الايام صفراء اللون ، وعلى وجهها مسحة كهنوتية كوجوه الآسيويين ، وابتسامة عذبة ناعمة كابتسامات « ارباب الحكمة » .

لما اخذها كانت عذراء . ثم طاب لها الرصال ، فامنت فيه طولاً و عرضاً . لم تكن تحترم ذويتها ، ولا تؤمن بالله . وقد حسب كوستال ، في بدء علاقته بها ، انها تنظاهر بالاستهتار لترضيته ، فلما عاشرها واختبرها ، تبين له انها لا تتقيد بشيء من تقاليد قومها وعاداتهم . وكانت دائمة التحفظ مع كوستال ، تشغل مكانها بكل تأدب وتهذيب . وكانت هذه ميزة نادرة في فتاة لم تتلق شيئاً من قواعد التأدب والتهذيب . وكان اجل ما فيها ذلك الهدوء الذي كانت تتجلبب به دائماً ، وشعورها بالكرامة ، وبطئها في العمل ، فضلاً عن عذوبتها ، ودقتها في المواعيد ، ووجهها الغريب عن وجوه ابناء قومها ، وجودها الخالي من الحركات التافهة .

في بعض الاحيان ، تبدو المرأة كهنوتية الملامح لانها بلهاء ؛ اما خديجة فكانت ذكية . وكان ذكاؤها من النوع الذي لا يباع . تعلمت وحدها اللغة الفرنسية فعدت تتكلمها بطلاقة . وتعلمت القراءة والكتابة بمقدار يساعدها على التعبير عن افكارها تعبيراً كافياً .

نشأت في اسرة متواضعة ، ولما اصبحت بغياً ظلت بعيدة عن السفالة والغلاظة اللتين كثيراً ما تقع فيها مثيلاتها . ولم يكن تصرفها شبيهاً

بتصرف الشباب المثقف من ابناء قومها ، فبدت كأنها من غير بلدها ، كأنها من «منطقة» بين جبهتين ، كالمناطق اللائقة بان يحتلها انصاف الآلهة اليونانية وارواح العباقره الهنود ، كما كان يقول كوستال . اكملت مراقبتها يوم استسلمت للمرة الاولى ، فنجنا كوستال من مرافقة تغيّرها ، ومن مراقبة الازمات التي لا بد من ان تتناها لو كانت فتاة اوروبية .

كانت دائمة الاعتدال ، دائمة الهدوء كالمخلوقات نصف الالهية . وما اروع الامان الذي كان مخيماً عليها ، فقد كان شعار خديجة : «هدوء وامان» .

اما استقامتها فكانت مطلقة ، فضلاً عن ترفعها الابي . فنذ اربع سنوات ما برحت تأخذ المال الذي يدسه كوستال في يدها دون ان تلقي عليه نظرة . فلو اعطاها مائة قرش لما احتجت ، ولما طالبت بأكثر . هذا ما كان كوستال واثقاً به تمام الثقة . لم تطلب اليه خدمة قط ، ولا مالاً ، ولم تلمس منه حتى «سلفة» . لم تلق مرة واحدة تلك النظرة المزعجة التي تلقيا البغي الاوروبية على حافظة نقود الرجل كلما فتحها ، بل قالت له يوماً : «انك تبدّر الكثير من المال لاجلي» .

ولم تكن تشكره على شيء ؛ بلى ، كانت تشكره اذا ناولها قلماً او دبرساً ؛ اما اذا اعطاها مبلغاً محترماً من المال ، فلا شكر ولا من يشكرون .

هكذا كانت خديجة : لا تصنع ، ولا لصقة ، ولا دين مسيحي ، ولا جشع ، وهي ما برحت كذلك منذ اربع سنوات .

ما كانت طبيعة علاقاتها بكوستال ؟

يكفي ان تقول المرأة مرة واحدة للرجل : «ان حبك يطيب لي ويفيدني» ، ليجن من شدة السرور . فتمتتنا هي ما نغنمنا من اطلاقنا

على متعة الآخرين . غير ان خديجة لم تقل قط لكوستال قولاً من هذا النوع ، ولا شيئاً يشبهه من نط : « انك تحب حباً فريداً لا يجيده سواك » ، الخ ... ولم تكن تلمح الى علاقتها به ، ولا الى علاقتها بالنساء الاخرى . لكن من الثابت انها كانت تحب الوصال ، وتجده فيه متعتها الكبرى . فكل شيء في وجهها كان يعبر عن ابتهاجها ، ولا يجوز لنا ان ننسى زلازلها^١ .

كان وجهها يتألق فوراً اذ يدخل كوستال فيها ، كحجرات الهاتف في بعض المقاهي ، لا يكاد بابها يُفتح حتى تتلألأ فيها الكهرباء اوتوماتياً . وكان كوستال يمتاز مسافة ألفي كيلومتر ليرى وجهها في فترة تألقه . رأينا ان هذا الكاتب لم يكن يرغب في ان يحبه احد ، وكان يفضل ألا يكون محبوباً ، لأن فقدان الحب يكسبه حرية القلب ، والعقل ، والوقت . وهذا ما كانت خديجة تقدمه له . فقد كانت جامدة ، باردة في جميع الاعمال التي لا علاقة لها بالوصال ، حتى ان كوستال بات يعتقد انها لا تكن له اقل عاطفة ، وان شعورها ، بالنسبة اليه ، يقتصر على شيء من عرفان الجليل السطحي . وحتى هذا الشعور لم يكن وجوده فيها اكيداً ، لانها لم تُبدي قط اقل عاطفة ، او رقة ، او حنان . وهذا ما كان يسر كوستال لأنه كان ينفر من تدليل النساء له وحدهن عليه . كان في ايام حدائته اذا رأى فتاة تريد تقييله اذها بقوله : « اذا كان لا بد من ذلك ، فيها بنا ! لكن اسرعي ولا تضغطي بشفتيك ... » وقد نقم على جدته لانها كانت تقبله كثيراً .

اما خديجة فكانت له جهازاً محرّكاً يحدث فيه ردة فعل ، وكان هذا يكفيه . ولا بد من الملاحظة انه كان لها ، هي ايضاً ، رداً فعل في اثناء الوصال . غير ان جودها ، الذي كان يمتد احياناً الى كل

١ - راجع الاشارة الى هذه الزلازل في « شيطان الخير » . - المؤلف .

ما فيها ، كان يذهله اذ يبلغ درجة خالية من الاحساس الانساني ، فيخيّل اليه انه لم حجراً على الطريق ، وداعبه ، وزئنه بالازهار ، ودفاه في الأيام الباردة ، ووضع في مجرى الهواء في اّبّات القيط ، وغسله ، وضمّخه بالطيب ... فخديجة كانت هذا الحجر كلما خرجت من الوصال ، وكانت هذه الناحية اللانسانية فيها ، والناحية اللانسانية فيه ايضاً ، لأنه تعلق بها في مثل هذه الاحوال . وربما كانت هذه الميزة فيها هي التي تغذّي تعلقه وتبقيه في قيد الحياة . فلكلّ منّا طريقة في هذه الحياة .

والدليل على تعلقه بها انه منحها ثقته بعد ان عرفها بيوم واحد ، فكانت تسرح وترح وحدها في غرفته وجميع الجوارير مفتوحة امامها . وفي اليوم الثالث بدأ يحترمها ، ثم راح يعطف عليها . واخيراً استقر على شيء بين التعلّق والمودّة .

لم يكن ثمة حب ، طبعاً ، ولا غيره من الزين العديدين الذين كانوا يعاشرونها .

هل كان في وسعها ان تعذّبه ، وهذه حالها ؟

اجل ، كان يخشى شيئاً واحداً ان يحلّ بها ضرر . كان هذا الخوف الوحيد الذي يعكّر صفاء علاقته بها ، كما تعكّر المويجات العابرة سكون البحر الهادىء .

لم يكن يحبها ، إلا انها كانت الخلوقة التي يؤثرها قلبه وعقله .

كانت تعطيه ما يطلب من النساء : المتعة لكليهما متدثرة بالامبالاة وبغياب الفكر . وكانت علاقتها تتحلّى بالنقاء الذي لا يمكن الحصول عليه مع امرأة اوروبية .

ليس الجماع بجد ذاته عملاً دنساً ومبتذلاً ، انما الدنس والمبتذل هو ما يحيطه به الناس . فعوض الجنس في الانسان أقل حماقة من الدماغ ومن القلب .

قال كوستال في نفسه : « أموت حباً بيديها الثقيتين ، المسكوبتين من البرونز الاصفر » . واخذها بين يديه اللتين بدتا كأنهما يسدا عامل يضرب بالمعول ، فرأى في اسفل ايهام احدهما بقعة سحاء تحيط بها دائرة اقل اسمراراً من البشرة ، فتسامل : « أتراها مصابة بالسفلس ، ما دام الطبيب يقول ان ثمانين بالمائة من سكان هذا البلد مصابون بهذا المرض ؟ »

وما كادت هذه الفكرة تخطر في باله حتى سأل الفتاة :

- في يدك بقعة غريبة ، فما هي ؟

- الجذام^١ .

- وما معنى الجذام ؟

- عاينني الطبيب لما مرّ من هنا ، فاعطاني ورقة ...

وتناولت من جيب تنورتها البيضاء حافظة نقود ، ففتحتها واخذت منها حقيبة صغيرة من الجلد فيها ورقة صفراء كتبت عليها سطور باللغة العربية ، ثم وجّهت الى كوستال ابتسامة من ابتساماتها العذبة وهي تقول :

- هذه اعطاني اياها احد النساك الصالحين .

- أما قلتِ لي انك لا تؤمنين بالله ؟

- بلى ، لكن النساك اعطاني هذه التعويذة .

وكان كوستال قد سمع مثل هذا الجواب من احد اصدقائه ، وكان كافراً لا يؤمن بشيء ، لكنه كان يعلّق في سيارته صورة القديس « كريستوف^٢ » . فلما ابدى كوستال تعجبه من هذا التناقض ، برر

١ - كتب المؤلف هذه الكلمة بالعربية كما قالتها الفتاة « El jdom » ، فلم يفهمها ،

فسأل عن معناها .

٢ - شفيح سائقي السيارات والمسافرين .

الكافر تصرفه بقوله : « اعطاني احدم هذه الصورة فاخذتها » . حقاً ،
ان حب الكسب يشمل العالم . وليس ضعف الانسان في عجزه عن
مقاومة الشر ، بل في عجزه عن مقاومة الحماقة .

وكانت في الحقيبة الجلدية الصغيرة ورقة ثانية الى جانب التعميذة ،
فاعطتها خديجة لكوستال ، فقرأ فيها :

الاسم : خديجة بنت علي .

العمر : ١٦ سنة (٢)

من مواليد : تفرمت .

مرضها : الجذام ، والزكام الدموي . بقعة جذام في ابهام يدها

اليسرى .

العلاج : فحص المادة الحماطية ، وارسال خديجة الى مراكز اذا ثبت

انها مصابة .

ملاحظة : حالتها العامة مرضية ، لا دليل على انها مصابة بالسفلس .

التاريخ : ٢٨ / ١ / ٢٩

الامضاء : الدكتور مايبون

قرأ كوستال هذه الورقة ثانية ، فاخذ قلبه يخفق بقوة كأن قفص
الصدر ضاق به ، وكان هذا القلب مضطرب الى رفع الضلوع المحيطة به
كلما خفق ، كما يفعل قلب الجرذون .

قال لها :

— خديجة ! هذا مرض عضال وشديد الخطر . فكيف كتتمه عني

حق الآن ؟

— قال الطبيب ان شفائي منه اصبح الآن ممكناً . وسيأتي بابر يحقني

بها في زيارته المقبلة .

— وهكذا تبقيين هنا ، تنتظرين ، كأن الامر لا يعنيك ؟

ولم يكن كوستال يعرف عن الجذام إلا الصور المتبدلة التي رآها في الكتب ، وبعض الذكريات المدرسية ، واخبار الناس القائلة بان جسم المجذوم يتقطع ارباً ، وبان هذا المرض شديد العدوى ، وبان المصاب به يُعزل كلياً عن الناس .

وتذكر كتاباً مصوراً رآه في ايام حداثته ، وقد جاء فيه ان المجذوم كان يستمع الى صلاة جنازه وهو حيّ يستره غطاء ابيض عن عيون الناس ، ثم يتلقى على رأسه رفشاً من تراب المقبرة لاعلان موته ، ثم يُبعد عن المدينة بعد احراق بيته .

وعاد يسأل خديجة :

— ألم يقل لك الطبيب ان تعني بنفسك ؟ ان تتخذي بعض التدابير

الوقائية ؟

— بلى ، قال لي : لا تدعي ابويك يأكلان بالالوعية التي تأكلين بها . فخطر في بال كوستال ذلك الطبيب الكبير الذي كان مديراً لاحد مستشفيات المصدرين ، فسأله الكاتب عن التدابير التي تتخذ لحماية الناس من المرضى الذين يقعون في بيوتهم ، فاجاب بشيء من الارتباك : « اننا نقدم لهؤلاء المرضى مباحق » .

وسأل الفتاة من جديد :

— وماذا يقول ابواك ؟

وكان التأثر قد جعله ابله ، فاجابت خديجة :

— لا شيء .

— أفي جسمك بقع اخرى ؟

— لا ، ليس في جسمي إلا هذه البقعة .

— وهل كانت لك علاقة باناس مجذومين ؟

— كان عمي مجذوماً . لا اعني عمي المقيم في الدار البيضاء ، بل عمأ

آخر كان يقيم معنا ، وقد توفي منذ ثلاث سنوات .

- كان يقيم معكم ؟ ألم تتخذوا تدابير وقائية ؟
- لا .

- ألم تعالجه ؟

- بلى ، كان يذهب مرتين في السنة الى مسجد « ابي النور » ،
في مراكش .

هذه غريزة الجهلة . انهم يذهبون دائماً الى من يداعب اوهامهم .
وكثيرون منا يفضلون دجل الكاهن على معهد « باستور » .
قال لها :

- ساوصي بك الاطباء في مستشفى مراكش ، عندما تذهبين الى
هناك ، ليُعتَوا بك عناية جديّة .

وللمرة الاولى تجلّسى الفلق على وجهها وقد كان حتى ذلك الحين
هادئاً ، فقالت :

- لا ، لا تفعل . اذا علموا انك تعرفني اخبروا ابي .

- ان اطباء مراكش لا يعرفون اباك . وساطلب اليهم كتاب
هذا السرّ .

- لا ! لا !

- لا استطيع ان ادعك بلا علاج ، وانا قادر ، بكلمة واحدة ،
ان اجعل الاطباء يهتمون بك . اسمعي ، يا خديجة ! اريد ان يُعمل كل
ما يمكن عمله لشفائك . وربما ارساوك الى فرنسا اذا لزم الامر .

وكانت جالسة ، فاطرقت ، وخفضت رأسها ، حتى انه لم يعد يرى
سوى شعرها . ولما حاول ان يرفع هذا الرأس قاومته كطفل حردان ،

١ - طبيب فرنسي شهير (١٨٢٢ - ١٨٩٥) اكتشف المصل الواقي من الكلب ،
وبعض الاقراص الجرثومية الاخرى ، فاحدث ثورة في الطب ما تزال فاعلة
حتى الآن .

وهي لا تبالي بمرضها الرهيب ، بل تخشى خطراً آخر لا وجود له .
وليس من الضروري ان يذهب المرء الى جبال الاطلس ليرى مثل هذا
العناد لدى الفتيات والفتيان .

قال لها :

- حسناً ، لن اخاطب احداً بشأنك .

إلا انه كان مصمماً على التدخل . ولم يقل لها تلك العبارة إلا
ليطمئنها ويهدئها اعصابها .

والقى نظرة جديدة على الورقة ، فرأى فيها مصير شخص حبيب
مخربشاً بالقلم الرصاص في خمسة احرف . وربما كان مصيره هو ايضاً في
هذه الحريشة .

خدمت شهورته ، وتلاشت رغبته في مضاجعتها ، لا لأنه اشبأ من
هذا الجسم المسموم او قرف منه ، بل لأنه ارتوى من تأثره العميق .

ألم يكن من الافضل له ان لا يمسا ؟ ألم يكن من الحكمة ان
يجم عن كل اتصال حميم بها اليوم ، وان يذهب في اليوم التالي الى
بلدة « طعود » الواقعة على مسافة اربعة كيلومترات ؟ فهناك مستوصف
فيه ممرض للعناية بعمال يبنون جسراً ، وفي وسع هذا الممرض ان يعطيه
بعض المعلومات عن مرض الجذام ، وعن سرعة عدواه ، وعن التدابير
الواقية التي تتخذ بشأنه ، فيعلم هل من المستحسن ان يجازف بمضاجعة
خديجة في المساء ، أم لا ؟

وأطلع الفتاة على مشروعه ، فارتسم القلق على وجهها من جديد
وقالت :

- اذا حدثتَ الممرض عن الجذام ، وعلم انك في تغرمت ، فسيترك
انك جثت لأجلي ، وسيخبر ابي ...

- اذاً ، لن اذهب .

وكان صادقاً في وعده هذه المرة ، لان الفتاة كانت على صواب في

جزعها .

وما دام الامر كذلك ، فلا بد من مضاجعتها . وليكن ما هو مقدّر ، اذ لا يمكن ان يقطع مسافة اربعة آلاف كيلومتر ، ذهاباً وإياباً ، ليلتقي امرأة يحبها ، وان يحجم عن الاتصال بها لأن فيها بقعة جذام .

لم تكن الشهوة الجسدية تدفعه الى هذا العمل ، ولا الشعور بالواجب نحو الفتاة او نحو نفسه ، ولا حتى الشعور بان هذا العمل سيكون شيئاً « حسناً » ، بل الاعتقاد انه من الحساسة ، ومن قلة الذوق ، ان يتراجع ، وان يصرف الفتاة عنه بلا مبرر . فكل رجل ، في مثل موقفه ، يعمل عمله ، إلا اذا كان نذلاً عديم المروءة .

اما المجازفة فقد خبرها عن كذب في الحرب الماضية ، وسيختبرها في الحرب المقبلة ، وكّم مرة اقدم عليها في كل يوم من حياته ، متحدياً آباء خليلاته ، واخوتهن ، وعشاقهن ، مع العلم ان هؤلاء الخليلات كنّ من الفتيات القاصرات في اغلب الاحيان . وقد ضاجع مئات المرات نساء مصابات بالسلس والسّلّ دون ان يتخذ اقل تدبير واثق ، فلماذا لا يقدم هذه المرة ، وهو مضطر الى الاقدام ؟ ان مجازفة واحدة بين المجازفات العديدة لا تقدّم ولا تؤخّر !

قال لها :

— اخلمي ثيابك ، يا صغيرتي .

ولشدة ابتهاجه بهذه الدعوة ، خفق قلبه بقوة ، إلا انه ما لبث ان هدأ بعد لحظة .

حاول ان يفحص جسدها ، فبردت ، واندست في السرير ، تحت اللحاف ، فكيف يخرجها من الدفء الذي لجأت اليه ؟ أفي وسعه ان يقول لها : « انقلي الى اليمين ، وانقلي الى اليسار » ، وهي ترتعد من شدة البرد ؟

قال في سرّه : « فحصها الطيب منذ تسعة ايام ، ولم يجد فيها سوى بقعة واحدة . ومن المستبعد ان تظهر بقعة جديدة في هذه الفترة القصيرة . اما اعضاؤها التناسلية ، فقد فحصها ، ولا ريب ، لأنه بحث عن آثار السفلس فيها » .

لا بأس اذاً .

وبينا كان يخلع ثيابه الى جانب السرير ، خامره شعور الجندي الذي يتلمس اسلحته قبيل خروجه من الخندق للهجوم على العدو .
وغطس تحت اللحاف كأنه يغطس في مستنقع آسن ، مخضّر ، تسبح فيه افعى بسرعة مذهلة .

ولما احتواه الدفء المنبعث من جسم الفتاة ، زال عنه كل ما كان قد ساوره من القلق والاضطراب ، ولم يعد يفكّر إلا بأنه مع خديجة ، مع الحليّة الامينة ، المتازة .

ولامس ذراعها فأحس بنتوء وشم جديد ما يزال مداده طرياً على سطح البشرة ، فاحتدم حبه لها ، وتبادر الى ذهنه انها المرأة التي يعرفها حتى اعماق احشائها ، وانها الكيس اللحمي الذي يطيب له ان يصب فيه زرعه ، وانها المكان الذي يجد فيه الأمان - الأمان الجسدي بالمعنى الجنسي . لم يرضَ مرةً واحدةً بان يعتزل عنها ، فمن يمتلك شيئاً لا يستطيع الاعتزال عنه . وقد استقرت فيه هذه الرغبة في ملازمة الفتاة على الرغم من انها نقلت اليه داء الزهري مرتين ، عام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٦ .

وكان توهمه انه في أمان يهيمن على علاقته بهذه المرأة التي تسمّه . وقد احب هذا الروم ، وأراد اقراره في نفسه .

اتفك المنديل الذي كان ككوستال قد لفّ به يد خديجة المبقعة بالجذام ، وضاع بين الفراش واللحاف ، فقال في نفسه : « ليقَ حيث هو ... » إلا انه ظل حذراً ، فما قبّل شفتي الفتاة .

وما كاد يباشر مداعبتها ، حتى تألق وجهها ، ودلّت ملاحظها على ان فكرها شرد في متأهات الاحلام . فما اشد فاعلية الشهوة فيها ! انها تنطلق منها فوراً ، تجتاحها ، تسيطر عليها ، تملكها كلياً . فعيناها وحدهما تتحركان في وجهها الجامد ، ومنخرها يتسعان مختلجين كمنخري حصان متعب .

ولما لمعت عيناها كما تلمع النجوم قبيل انطفائها ، راحت تبحث عن فمه ، فأكب عليها يمتص شفثيها ، ويمد لسانه الى فمها ... الى هذا الفم الذي كان بالامس مبطناً بالمحمل الوردي كمرسبة عروسين من الجزائر ، والذي بدأ يفتك به المرض ليثقب سقفه وجنباته .

وتعمد الامعان في تقبيلها ببطء واصرار ، وهو يحسّ انها تجتذبه بقوة وتبتلعه كما يبتلع البحر مياه النهر . فعاد اليه شعوره بالمجازفة بعد ان فأرقه لحظة قصيرة ، بينما كانت شفتاه عالقتين بالفم الجاور للزكام الدامي ، فخامرهم احساس رجل قفز من الطائرة ولم تنفتح مظلته الواقية بعد ...

غير انه لم يكن خائفاً ، على الرغم من فظاعة المجازفة . فكثيراً ما قبّل مصدورات في ذروة مرضهن ، وعبّ من لعابهن عباً طويلاً ، فخيّل اليه انه يمتص حياتهن ، وانه يكتسب في موتهن عمراً جديداً . كم كان يجب ان يقبّل الأخاديد العميقة التي احدثها الهزال في وجوهن كالخفر بين الكشبان ، وان يبوس اصداغهن المبلّلة بالمرق ، وقد التصقت بها خصل من الشعر ! ولم كان يجب ان يرى اللذة تزيد مرضهن تفافاً ، وان يأخذهن وهنّ في نوبة من السعال على طريقة الفاسدين الذين يطيب لهم ان يقطعوا رأس البطة وهم يجامعونها ! ادموندا ، مثلاً ، احدى صديقاته ، كانت جافة الفم الى اقصى حد ، ومع ذلك ، كان يأخذ لسانها بين شفتيه فيغمّ متعة كبرى اذ يخيل اليه انه يمتص لسان افعى .

كان يقول ، في ما مضى : « انا الآن مصدرور ، فما بهم اذا كنت مصدروراً؟ » فأصبح يقول اليوم : « انا مجذوم ؟ دع عنك هذه الخرافة ! فالجميع يعلمون اني مصفتح وممصوم ، مصصوم كالبابا ! » وكان يثق ببناعة جسده ثقسة تكاد تكون ضرباً من التصوف ، كالطيار في طائرته التي تتقاذفها الرياح ، كالربان في سفينته التي تلتطمها الامواج ، وتتسرب اليها المياه ، غير انها تصل دائماً الى الميناء .

قالت له خديجة بسذاجتها المعهودة : « تدل حماستك على انك لم تحب منذ زمن بعيد ! » فلم يجب . غير انه ما لبث ان ندم وتولاه الخجل لأنه لم يعطها البرهان الاكبر عن عطفه عليها : قبلة على الشفتين ، إلا في اثناء الرصال لما احتدمت شهوته وبلغت ذروتها .

تناول يدها المريضة وباسها بورع في مكان قريب من بقعة الجذام ، فلم يخامرهم اقل شعور بأنه جريء ، او نانه يجازف . كل ما شعر به انه يجب خديجة ويعطف عليها .

ولما غادرت الغرفة في صمت تام ، انتظر فترة طويلة وهو نصف عارٍ ، وظل ملتصقاً بالباب ليتيقن من انها لم تعد ، ومن انها لم تصطدم باحد في الفندق .

وأخيراً ابتعد عن الباب ، وارتاح الى ان لقاه السري بصاحبته لم ينته بمشكلة . فمذ خمسة عشر عاماً ما برح يفامر حتى اصبحت حياته سلسلة من المغامرات المتوالية الخطرة ، إلا انها مرت كلها بسلام ...

ورفع رداءه عن النافذة ، فرأى رجالاً وأولاداً يمررون في أوابهم الطويلة وأغطية رؤوسهم كأنها قلانس الرهبان . وكانت النار قد امتدت واتسعت كما يتسع الجذام في اجسام المرضى تحت ستار ازرق مرصع بالنجوم .

واستلقى على السرير دون ان يخلع ثيابه لأن البرد كان شديداً ،

وكان الشرف السفلي مرتفعاً قليلاً كقمة تلة في البقعة التي حصرتها خديجة بين فخذيها .

وأحس كوستال براحة عميقة كأنه قام بعمل مجيد . وتذكر قصة قرأها في كتاب قديم خلاصتها ان احد الفرسان اختطف ابنة ملك فرنسا ، فأرادت الاحتفاظ ببيكرتها ، فقالت له انها ابنة رجل مجذوم ، فابتعد عنها ولم يمساها . وقد احتقر كوستال هذا الفارس ، فازداد سروره بهذا الاحتقار . وظل مستلقياً على السرير ، ينظر الى السقف ولا يتحرك . وقد خيّل اليه انه يشعر بالسم الذي حقنته به خديجة يجري في دمه . وخامرته في هذه اللحظة شعوران واضحان : الشعور الاول انه غير نادم على ما فعل ، اذا كان قد اصاب بالمرض ، لأن المتعة التي غنمها تستحق ان تُبدل في سبيلها التضحيات ؛ والشعور الآخر ان فطاعة المرض مقبولة ، لأن مصدرها خديجة .

وراح يخاطب نفسه قائلاً : « لا بأس اذا اعطتني الجذام ا » كما تقول المرأة حين تفكر بالرجل الذي تحبه : « لا بأس اذا حبلت منه ا » وفي هذه الاثناء كان مصيره على كفوف الآلهة .

من

اندريسه هاجبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

(أرسلت هذه الرسالة من باريس الى المغرب)

٢٠ شباط ١٩٢٨

استعدتُ توازي ، وأنا مسرورة بهذه الحالة . إلا اني متعجبة قليلا ،
فالمرأة التي يعود اليها الهدوء هي امرأة تتصرف كما لو كان ينقصها شيء .
لا تظن ان رسالتي الاخيرة اليك تقلقني . واذا كنت لا تريد اقلاني
النساء فما عليك إلا ان تمتنع عن السعي اليهن في منازلهن بالراديو . هذه
مسألة في غاية البساطة .

أجل ، اني كثيية قليلا . وهذه الكتابة هي ، ولا ريب ، نتيجة ردة
فعل سببها حادث بسيط . فقد ارسلت اليّ الخياطة ثوباً كنت قد
أوصيتها عليه ، وعلت النفس بان يكون جميلا ، مع اني لا أعنى بهندامي
إلا لأجلك ، وإن أكن لا اراك مطلقاً . وقد تبين لي ان هذا الثوب
يجعلني في مظهر يثير الضحك !

اعترف بانى بعيدة عن الأناقة ، لكنني اعرف ، على الأقل ، يصلح الثوب لي او لا يصلح . وهذا ما يحطم اعصابي . وكم تزهقني فترات تجربة الأثواب ، حين تنعكس صورة وجهي على عدد من المرايا القائمة حولي ! فوجهي يدهشني دائماً حين ارى صورته في المرآة ، فأبادر الى البحث عن وجهي الآخر ، الوجه الذي كان لي في ما مضى ، وجهي الاول .

ان هيامي - اعني هيامي بك ، واضع النقاط على الحروف لأنك لا تقهمني دائماً - قد اتعبني وجعلني هرمة أكثر مما تستطيع ان تفعله حياة خالصة من المباحج . وفي هذا الهيام ما يستحق ان أتغير لأجله !

اواه ! ليتني استطيع ان اهرم بهدوء ، بعد ان القى سلاحني مدعنةً بطيبة خاطر ، فني الهرم اجسد السلام وأرتاح الى رؤية وجهي ... لكن ، لبلوغ هذا الهدف المرتجى يجب ان اكون قد نلت شيئاً ، ولو قليلاً ...

انك تدمرني تدميراً تاماً . غير اني اردد دائماً : « نعم ، نعم ، لا اريد احداً سواك ! » ثم اشعر بالعباء ، اشعر بانك اتعبتني . وهنا ايضاً تراني اضع النقاط على الحروف .

وفي اغلب الاحيان ، حين يستبد بي شوقي اليك ، وأكاد اهتف باسمك لأدعوك اليّ ، اقبض على رأسي بيديّ ، واغمض عيني حتى تخور قواي ، فتمر الازمة .

ان حيي لك سيموت كما تموت الاشياء العديمة الفائدة . وفي نفسي رغبة في الانقطاع عن مراسلتك ، وهي رغبة تنمو وتشتد يوماً بعد يوم . سأجأ الى السكوت ، وسأدفن نفسي في صمت عميق .

ما الذي اخشى خسارته مما اعطيتني ؟ أودّ ان تحل بي هذه الخسارة فوراً ، لأنك لم تعطني شيئاً .

هذه تأملات امرأة يلمع في ذهنها أحياناً نور الحق والمنطق .
تأخر بزوغ ربيعي الجنسي عشر سنوات بسبب مبالغسة امي في صراحتها . واني لأسائل نفسي الآن : ما هو الافضل أترك' الاولاد في جهل المسائل الجنسية ، ام شرح' هذه المسائل لهم ، كما هي تماماً ، قبل ان تكون « المحادثات المجرمة » قد افسدت اخلاقهم ؟
كلا الطريقتين يؤدي الى كارثة . فاطلاع الاولاد باكراً على الحقائق يؤخر تطورهم الجنسي ، وهذا ما خبرته عن كذب . فبين الخامسة عشرة والعشرين من عمري كان يستولي علي' الاشمزاز كلما رأيت رجلاً وامرأة جنباً الى جنب ، لأنني كنت افكر بما يجري بينها من الوصال . وكان يقشعر جسمي نفوراً اذا خطر في بالي انه من الممكن ان يوجه' الي' احد الرجال كلمات مغرية .

منذ ذلك الحين احببت الانفراد ، فزادتي المعرفة اعراضاً عن الحياة ، وتوغلاً في طبيعي الوحشية ، فرحت اقول في نفسي : « اذا كان الرجال يغازلون ، ويبدلون اللطف والمسايرة ، ويقبلون الايدي ، ويحيون الحفلات الاجتماعية لبلوغ الاتصال الجنسي ، فتباً لهم ، وتباً لهذا المجتمع ! فكنت ارفض دائماً الذهاب الى حفلات الرقص والملاهي ، وارفض القيام برد الزيارات . وقد اعلنت يوماً اني مخطوبة لأحدث فراغاً حولي ، ولأنعم بالانفراد .

بلغت الثلاثين من العمر وانا اجهل كل شيء عن ماهية الوصال النفسانية . ولما وجهت' اليك تلك التهمة الباطلة بانك لوّاط على غرار شارلوس ، بدأت افكر بهذا الامر ، ثم اشترت كتباً تعالج المسائل النفسانية والمسائل الجنسية . إلا ان هذه الدراسة الطويلة لم تنتزع من ذهني أن في حياتك شيئاً غير طبيعي . وهذا الشذوذ فيك هو الضريبة التي تدفعها ثمناً لما تتمتع به من المواهب العديدة . واعترف لك بان في حياتي ايضاً نوعاً من الشذوذ .

انك تعلم ، ولا ريب ، ان « فاغنز » كان يقول لزميله « ليست ٢ » انه لو كان سعيداً في حياته لما ألّف قطعة موسيقية واحدة . فالروهيون يضعون في قلوبهم ما عجزوا عن وضعه في حياتهم . والله لم يقدم على خلق العالم إلا لأنه كان شقياً يتألم .

قبل أن أعرفك ، سمعت في نادي « ربة الشعر اللامارتينية » في « ايسودون ٣ » معاضرة القتها شاعرة مغمورة لا تخلو من المواهب ، تدعى كلودا فيولانت ، وهي فتاة شابة في ربيعها الثاني والاربعين او الثالث والاربعين ، واسمها الحقيقي : « الأتسة ماري أليكس دي لاروش دي فيلبرون » .

كان عنوان محاضرتها سخيلاً مضحكاً ، وهو : « أيجب بالضرورة أن يظل الكاتب الكبير بكرة ؟ » غير أن الفكرة التي ينطوي عليها هذا العنوان جديرة بالاهتمام .

زعمت هذه السيدة ، بعد تكديس كمية كبيرة من البراهين ، ان رجل الفن يصبح فصيحاً ويبلغ ذروة البلاغة بقدر ما تكون معرفته للشيء الذي يتحدث عنه ناقصة . وذكرت في هذه المناسبة كثيرين من

١ - ريشار فاغنز (١٨١٣ - ١٨٨٣) موسيقار الماني . اشهر مؤلفاته « سادة المغنّين » ، و « حلقة نيبيلونغ » ، و « تريستان وإيزولت » ، و « ريسفال » . عبقرى متفوق ، وشاعر اغترف مواضيعه من الاساطير الوطنية الالمانية ، وحرّر تقاليد الاوبرا القديمة جامعاً بين الشعر والموسيقى والرقص .

٢ - فرانز ليست (١٨١١ - ١٨٨٦) موسيقار وعازف على البيانو ، مجري الجنسية ، اشهر بالقوة والابداع في التمييز عمن مشاعره . اشهر مؤلفاته « سمفونية فاوست » ، و « ريسوديات مجرية » . وهو خالق القصيدة الموسيقية .

٣ - بلذة فرنسية . ولامارتين ، الذي دعي النادى باسم ربة شعره ، شاعر فرنسي رومنطقي شهير ، زار لبنان ، وكتب عن ربيعته كتابات خالدة . وهو من اصفى الشعراء الفرنسيين انتاجاً .

الذين تغنوا بالمرأة كبودلير، وبو^١، وبيسار لويس^٢، فقالت انهم كانوا عاجزين جنسياً . وذكرت أن دانونزيو ظل بكراً حتى تقدم في السن، وان بيرون كان مكبوتاً، معقداً، يفضل الفتيان على النساء، كما يتضح من علاقاته المشبوهة بادينغتن^٣، ونيكولو جيرو، واللورد كلاري وغيرهم... وأشارت الى ان «أزياده»^٤ لم تكن بالحقيقة إلا صبياً، وقد نسبت هذا الزعم إلى السيدة جوليات آدم^٥. والخلاصة، ارادت السيدة فيولانت اقناعنا بأنه يكفي أن نسمع الاديب يتغنى بالمرأة لنحكم على الفور بأنه لا يعرفها على الصعيد الجنسي إلا قليلاً.

فكثرت هذه الاشياء بينما كنت استمع الى حديثك في الراديو، فتبين لي انك تعاني خجلاً طاعياً عندما تحطّب في الناس، وان هذا الخجل لا تثيره فيك الخطابة وحدها، بل تبعثه فيك شؤون اخرى عديدة في حياتك. وقد أيقنت الآن أن رأيي فيك - رأيي الذي اوحته اليّ غريزة الانوثة المعصومة من الخطأ - هو الحقيقة بعينها. فاصرارك على شرح الوصال الجنسي في مؤلفاتك شرحاً صافياً دقيقاً هو الدليل القاطع

- ١ - ادغار ألان بو (١٨٠٩ - ١٨٤٩) كاتب اميريكي، عجيب الخيال، لا يرى الا الفواجع والكوارث. ام مؤلفاته «قصص خارقة».
- ٢ - كاتب فرنسي (١٨٧٠ - ١٩٢٥). اشهر مؤلفاته: «المرأة والكراكوز»، و «مغامرات الملك بوزول»، و «افروديت».
- ٣ - السير ارثر استانلي ادينغتن (١٨٨٢ - ١٩٤٤) عالم فلكي وفيزيائي انكليزي. حدّد الحرارة والوزن في عدد من النجوم، كما حدد المراد التي يتألف منها بعض الكواكب.
- ٤ - احدى بطلات قصة «الخائبات» للكاتب الفرنسي بيار لوتي.
- ٥ - كاتبة فرنسية (١٨٢٦ - ١٩٣٦) انشأت «المجلة الجديدة» التي كانت ميداناً يتبارى فيه كبار ادباء فرنسا ورجال السياسة فيها. وكانت دارها ملتقى مشاهير رجال الدولة واهل القلم. وقد خلفت بعض روايات اشهرها: «الوثنية».

على أن خبرتك ناقصة في هذا المجال . ولاني لم افهم بعد لماذا ترفض اعطائي واعطاء نفسك المتعة البريئة التي التمسها منك ، فقد عزوت رفضك الى نوع من الجنون لا اجد له سبباً ...

ربما كانت هذه المعلومات تسمح لي بأن افهم انك لم تفكر قط باعطاء شيء من المتعة لك « آخرين »^١ وحسب ، بل انك لا تحب المتعة ، ولا تحب الوصال الجنسي . لذلك توهمت انك تقدم للمرأة برهاناً كافياً عن مودتك وعطفك اذا صارحتها بانك تستهينها .

ولست بحاجة الى اطلاعك على أن حرمانى يزداد ويشدد بقدر ما يفرض الخير عليك . وبقدر ما يرهقني الحرمان احس انك قريب مني . ان نظريتي بشأنك تساعدني على احتمال الحياة . واذاً ، فهي صحيحة .

أ . هـ

ربما كنت تحاول أن تصلي فلا تستطيع . مسكين انت ! يا لك من ولد مسكين ! لا استطيع التصور الى ابي حد بوسع الانسان ان يكون شقيماً . يا للعجب ! كم من السعادة نستطيع أن نبني بلا سعادة من يملك كل شيء مثلك ، عندما نكون محرومين كل شيء !

(وُضعت هذه الرسالة في الملف الخاص بها من غير ان يُفرض غلاقتها)

١ - في الجزء السابق من هذه السلسلة قال كوستال : « متعتنا هي في ما نعطيه للآخرين » . - المؤلف .

أقام كوستال ، طوال الايام الخمسة التالية ، يستقبل خديجة كل مساء ويضاجعها .

وكانت جميع اوقاته موحشة ، كثيفة ، ما عدا ساعة اللقاء المفعمة بالعدوية . وكلما كانت العاصفة تشتد ، كان يتذمر قائلاً : « يا لمطر العين ! انه يسبب الاخلال بالمواعيد . وما هو ينهمر بغزارة . فلن تأتي خديجة اليوم » .

اما غرفته فكانت توحى الشؤم يجدرانها المزدانة بتساوير تعلقوها طبقة سوداء من الوسخ ، وبعمودها الخشبي المتحوت بالسكين ، وهو يسند بعماء ظاهر سقفاً محدودباً ومرشحاً للانهيار في المرة الاولى التي يترامك فيها عليه الثلج .

وكان بحر الغيوم يحاذي حافة الغرفة كما يحاذي بحر المياه حافة النافذة المستديرة المفتوحة في هيكل السفينة . وفوق بحر الغيوم ، كانت تبدو ثلوج القمم كأنها الزبد على سطح المحيط الهائج .

وراح كوستال يعلل نفسه بان يستيقظ من نومه يوماً فبرى الجبال قد زالت من اماكنها كما يزول السراب في الصحراء ، إلا انها لم تتحرك ، بل بقيت في اماكنها بكل ما فيها من بلاهة وغباء .

وفي الغرفة التي عجز « الكاون »^١ عن تدفئتها ، (ولم اجد قط في

١ - « الكاون » : كلمة عامية تدل على موقد صغير كالنقل ، مصنوع من الطين ، وقد =

افريقيا الشمالية ناراً تدفئ غرقة) ، لف كوستال ساقيه بالحاف ،
ولف رقبته بعصبته ، وجلس يحاول العمل ، ثم اندس في السرير دون ان
يخلع ثيابه وتابع كتابته .

ولما وصلت خديجة وأطلعت على الاوراق التي سوّدها جعلت تصيح :
« ما اكثر ما فيها من الاخطاء ! »

وكانت علاقتها بصاحب الفندق تجربة من نوع آخر بالنسبة اليها ،
فهو وطني مناضل ، وشقي مشهود له بشدة البطش ، وهي مضطرة الى
بذل جهدها لتقنمه بما تكن له من المودّة والاعجاب .

ومن حسنات هذا الفندق ان من يدخله يشعر بالطمأنينة والأمان ،
فلا رقيب يتجسس ، ولا فضولي يحاول ان يعلم . إلا ان خديجة كانت
تجازف وتتعرض للفضيحة . ولكي تجتنب التورط في مشكلة ، بادرت الى
مسايرة صاحب الفندق وهي مكرهة ، وكانت تزعم ان ذوبها لا يعرفون
شيئاً عن تصرفاتها .

اذا كانت المتمة الجنسية رخيصة بالنظر الى المال الذي نبذله في
سبيلها ، فهي باهظة الثمن بالنسبة الى الاعتبارات الاخرى . ويكفي ان
نفكر بانها ترغمنا احياناً على التخلي عن صلفنا وكبريائنا ، وتعلمنا الصبر
ولين العريكة ، لندرك مدى سلطانها علينا ، وقيمة ما ندفع ثمناً لها .

لما وصل كوستال الى المغرب ، كتب رسالة الى سولانج . ولدى
انتقاله الى تفرمت كتب اليها رسالة ثانية ، على ان يضعها في البريد عندما
يذهب الى مراكش بعد بضعة ايام . كانت تصرفه في كتابة الرسائل
كتصرف الاولاد ، اذ انه كان يكدر ويجهد أكثر من كده
واجتهاده في وضع مؤلفاته ، لأنه في رسائله لم يكن يدري ما ينبغي له
ان يقول . لذلك كان يكتب ما يخطر في باله ليملا الصفحة لا اكثر .

استعملها المؤلف كما هي بالعربية : Kanoun

وكان يلعب السطور كما يلعب الهر الفأر ، ثارة يتركها تستريح ، وثارة ينقض عليها ويعمن في مداعتها ، ثم يتوقف عن الكتابة قبل ان تنتهي الرسالة ، متدعراً بأنه كذب كفاية يومه .

هذا في رسائله العادية التي يجبها ، فكيف به في رسائله الى سولانج التي لم يكن يكتبها إلا قيماً بواجب ؟

كان سيل النسيان قد بدأ يجرف ذكرياته ، فأحس انه انتهى من هذه المرأة كما ينتهي المرء من تدخين سكاراة . لقد مثلت دورها وانتهى امرها . غير انه ما برح يتذكر اساءته اليها فيشمر كأنه يشد على ضماد جرح : تعاوده وخزة من الألم فينزف الدم من جديد ، لكن الألم لا يلبث ان يزول بسرعة . إلا انه صمم على تعليل سولانج بالأمال ، متصنعاً في رسائله كلما حاول التعبير عن حبه وعطفه ، لأنه أكثر من اختراع البراهين كالزوج المجتهد في تضليل زوجته .

ولكن ، يا للأسف ! فقد صدق القديس اغسطينوس^١ بقوله : « ليس الخطاب الطويل دليلاً على الحب العظيم » . وعلى كلٍّ ، لم تكن رسائله طويلة ، إذ انه كان يختم بعضها زاعماً أن السيارة العمومية التي ينتظرها ليسافر قد وصلت ، او أن حبر قلعه قد نضب ، ولا يستطيع الكتابة بالقلم الرصاص .

وفي جميع هذه التصرفات ، كان كبير الاعجاب بعمله ، كتاجر يسدّد الديون المستحقة عليه . وكثيراً ما صرح سولانج بان التعجب

١ - حبر كاثوليكي ومبشر كبير (٣٥٤ - ٤٣٠) تولى اسقفية هيرونة ، في الجزائر ، وقام بجولات تبشيرية كبيرة بصحبة وجلين تعلموا اللاتينية لترجمة مواعظه من اللاتينية الى الفيليقية التي كانت لا تزال لغة افريقيا الشمالية كلها في ذلك العصر . اهم مؤلفاته : « مدينة الله » ، و « اعترافات » . وهو فيلسوف ولاهوتي حاول التوفيق بين فلسفة افلاطون والدين المسيحي ، وبين العقل والايمان . عيده في ٢٨ تموز .

يستولي عليه كلما كتب اليها ، لانه في هذه الفترة من حياته لم يكن يكتب الى احد ، وقد أهمل جميع اصدقائه كما يهمل الفلاح ارضه باثرة . وكان يختم هذا التمنين بقوله : « ومع ذلك فانت تشكين وتذمرين ! » كأنه غمرها بالسعادة ، فما رأى منها سوى العقوق . واغرب من هذا انه كان يكتب كأنه غافل عما جرى بينه وبين الألسة دنديو ، مع انه ، بالحقيقة ، لم يكن غافلاً .

كان يأسف لما اساء به الى سولانج ، إلا انه لم يكن يشعر بشيء من تبكيت الضمير . فقد درج على القاء التبعة عليها دائماً ، مبرراً تصرفه بقوله : « لماذا ارادت ان اقترن بها ؟ ولماذا ارادت اندريه ان آخذها ؟ » كسائق سيارة يتأسف بشدة لانه دهس شخصاً ، غير انه لا يستطيع إلا أن يجد عذراً لنفسه بقوله : « لماذا طرح هذا المجنون نفسه تحت عجلات سيارتي ؟ »

يوم صمم على الذهاب الى مراكش ، كان ينوي الاقامة فيها ستة اسابيع او سبعة ، ليتنقل بعدها الى سوس ، ثم الى منطقة اخرى من مناطق الاطلس . وقد خطرت هذه الجولة في باله قبل انصراف خديجة ببرة وجيزة ، فقال لها :

— احبك حباً عظيماً .

— اعلم ذلك .

— اعتقد اني قلت لك كل ما اود قوله ، اما انت فما قلت لي

شيئاً . أليس لديك ما تقولين ؟

— لا ...

ولم يكن هذا النفي ينطوي على اقل نية سيئة ، انما كان تعبيراً صادقاً عن الحقيقة ، اذ لم يكن لديها ما تقول . فخلال الايام الستة التي انقضت ، غمرها كوستال باللطف والعطف والنقود ، واعطاها برهاناً ساطعاً وغير عادي ، ان لم يكن عن حبه لها ، فعن شيء ، آخر جعله لا

يُحفل بمرضها ، ولا يحجم عن الاتصال بها .
وعلى الرغم من وعده لها بأنه سيبدل قصارى جهده ليبحث الاطباء
على معالجتها بكل عناية ، صارحته بان ليس لديها ما تقوله له . وما
كادت تخرج من الغرفة وتبتمد عنه حتى اعتراه ارتعاش ناجم عن
الدهشة ، لا عن القلق ، فراح يردّد : « هذا لا يُصدّق !... لا
يُصدّق !... » لكنه فكّر بأنه افضل له ان لا يتلقى شيئاً من الشكر
حين يكون عمله جديراً بالشكر ، على ان يتلقى عرفان جميل يفوق
عمله ، خصوصاً اذا كان قد قام بهذا العمل من غير رغبة فيه كأنه
مسخّر له .

وبعد هذا التفكير تنفس ملء صدره ، وسرّه أن يسيرون لقاءه
بخديجة قد مرّ بسلام ، ولم يؤدّ الى حادثة ما في الفندق . فاصحاب
المغامرات الغرامية السرية يتنفسون الصعداء كلما خرجوا من خلوة
دافئة ، او انفصلوا عن خليّة ، او انتهت مرحلة من حياتهم
الحافلة بالاحداث ، لانهم يشعرون بانهم نجوا من الوقوع في فضيحة الجرم
المشهود . وشعورهم هذا مزيج عجيب من المرارة والعدوية ، فيه بهجة
الخلاص وكآبة الفراق ، كالنسات البليّة والقيظ الناشئ على شاطئ
البحر . وربما كان شعار هؤلاء المغامرين : « نحن لهذه المغامرة ما دامت
مستمرة وما دمنا فيها ! »

وفي مستشفى مراکش ، قال الدكتور لوبل لكوستال :
— أيار كوستال الكاتب انت ؟ تفضل بالجلوس ، واعذري ، فان
عملي يستغرق اوقاتي كلها ولا يدع لي فترة من الراحة ... ثم اننا في
هذا البلد نصبح متوحشين ... وبعد ، فارد ان اعترف لك فوراً باني
لم اقرأ شيئاً من مؤلفاتك .
اجاب كوستال برواحة مقصودة :

— حسناً فعلت ! فمن الافضل ألا تقرأ مؤلفاتي .

— لكن احد اصدقائك حدثني عنك طويلاً .

— يجب اذاً أن اتوقع اوخم العواقب .

— انه السيد ريشار ، الاستاذ في مدرسة الرباط . ولا تظن اني لم

أقرأ شيئاً عن كتاباتك . لا ، فاني اذكر مقالة منك لاذعة دافعتَ فيها
بفصاحة عن برج إيفل .

اجاب كوستال محتجاً كمن نزلت به اهانة :

— لم اكتب قط دفاعاً من هذا النوع !

— دعنا من المزاح ، ألا تتذكر هذه المقالة ؟ منذ ثلاث سنوات او

اربع شئت الصحافة حملة عنيفة على برج إيفل مطالبة بهدمه ، فكتبتَ
مقالاً برهنت فيه عن ان هذا البرج جزء من تراث باريس ، شئنا ام
ابينا .

— من المحتمل ان يكون قد ورد في مقالتي شيء من هذا من

طريق الصدفة ، لاني انتقدت غضب الصحافة المرئجل على برج إيفل
والتروكاديرو ، وقلت انه ضرب من التبجح بالتقدمية المصطنعة ، الا اني
لم اكرس المقالة لبرج إيفل .

وكان يتكلم بعنف محاولاً كبت استيائه . فقد اغاظه ان تكون له

ثمانية مؤلفات كتبها بلحمه ودمه ، وان لا يعرف الناس عنه إلا جملة
عابرة ، قليلة الهمية ، خطبها قلته في خبر صحفي ، وحرّف القراء
معناها كما يطيب لهم ان يحرّفوا . فيا له من رمز عجيب للعلاقات القائمة
بين الكاتب وجمهور القراء !

وعلى كلّ ، فمن الطبيعي أن لا يقرأ طبيب جميع مؤلفات كوستال ،

فلاطباه اعمال غير قراءة الروايات . لكن الكاتب لم يأخذ بهذا
الاعتبار ، بل اتلقى من اعتراف لوبل بانه لم يقرأ مؤلفاته الى الاعتقاد
بان هذا الطبيب أبله ، عديم الذوق . ولو كان الطبيب يعرف كوستال

لما تورط في حديثه ، ولنشأت بينها علاقة على غير هذا الاساس من سوء التفاهم .

ان سلطة الطبيب الكبيرة لا تفرض نفسها على اجسادنا وحسب ، بل على فكرنا ايضاً ، مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد ان الطبيب غير جدير بهذه السلطة . فحياتنا كلها منوطه به ، او من المحتمل ان تكون كذلك ، فنقسو عليه في احكامنا ، وقليلاً ما نتساهل في ان يكون له ذوق غير ذوقنا في الادب ، والسياسة ، وشؤون الحب والطعام .

كان الدكتور لوبل ينأهز الحمسين ، له شعر مصورٍ ، وشاربا بمثلٍ مسرحي من النوع الذي يروق المجتمع ، اي ان شعره طويل ، لكن ليس كفاية ليصبح كشعر الرسّام الفاشل ، وان شاربيه كناية عن شعرات قصيرة كشوارب الكونتات الذين يعيشون كأنهم يتلون على المسرح ، ويعتبرون نفوسهم اشقياء ان لم تكن وجوههم ملساء ملطاء ، إلا انهم يحتفظون بخشونة الشاربين لتهدئة اعصاب الكونتيسات .

ولم يكن جمال وجه لوبل في ملامحه المعبرة عن الذكاء ، ولا في شيء يدل على انه صاحب شخصية قوية ، بل في ما وصل اليه من طريق الوراثة : فقد كان وجهه وجه رجل من نهاية عهد الملك لويس الثالث عشر او بداية عهد الملك لويس الرابع عشر ، وهذا امر يحدث تأثيراً عميقاً في النفس لدى التأمل فيه .

لكن اذا انحدر النظر من هذا الوجه الرقيق اللطيف الى اليدين ، فلا بد له من الدهشة : فالاصابع قصيرة ، بضّة ، وردية اللون ، والمعصان غليظان ، فيها خشونة وكثافة ، كمعصي رجل عالج ابوه الحراث والمعول طيلة نصف قرن . اما سحنته فسحنة مستشار في مجلس النواب عام ١٦٤٠ ، ويدها يدا معلم مدرسة في السنة ١٩٢٨ . وكثيراً ما نلاحظ مثل هذا التفاوت بين مختلف صفات الفرد ، لدى بعض المراهقين من ابناء الشعب الذين يحترفون الاعمال اليدوية ولهم وجوه ملائكة

وأيدي حدادين .

ولعل ابرز ما كان يسترعي الانتباه في الدكتور لوبل انه يزّين صدره ، فوق الثوب الابيض الذي يرتديه في المستشفى ، بزّ وسام جوقة الشرف . فهو لا يختلف في ذلك عن اللاعب بكرة القدم اذا زّين بهذا الزر بنطونه القصير . وليس من المستبعد ان يربط الدكتور لوبل هذا الزر بشعر صدره عندما يتعرى من ثيابه ليدخل الحثام .

ولما تخلّص كوستال من وحلة برج إيفل ، أطلع الطبيب على غايته من زيارة المستشفى ، فأجابه لوبل :

— عرفت ، في احد الارياض المغربية ، حيث كنت الطبيب الوحيد ، موظفاً فرنسياً اشرفت خليلته المغربية على الموت ، ولم يستدعني لمعالجتها خوفاً من ان اراها دميمة . اني اروي دائماً هذه النادرة للاوروبيين الذين يطلبون اليّ معالجة خليلاتهم المغربيات . وما خلا ذلك ، فهاث ما عندك ، فما الذي تنتظره مني ؟ جلّ ما استطيع قوله لك ان الجذام في المغرب على طريق الانقراض .

قالها بلهجة المنتصر ، كأنه يردد في نفسه : « نحن هنا نعمل وننجح ا » ثم استطرد قائلاً :

— قبل الخوض في البحث ، يجب ان اصحح آراءك في هذا المرض . فثمة امراض تعتبرها العامة بسيطة وخالية من الخطر ، مع انها تؤدي احياناً الى اوخم العواقب ، كالنزلة الرئوية ، والتعقمية ، والحصبه ، والبرقان ، وغيرها ، وامراض اقل خطراً مما يتوهم الناس . فالسفلس ، مثلاً ، لم يعد خطراً اليوم اذا عولج في بدايته . والوقوف في مجرى الريح ليس خطراً إلا اذا كان المرء عرقاناً . والاستمناء الذي يرهبون باخطاره الوهمية جميع المراهقين المساكين لا يختلف بشيء عن الوصال الجنسي الطبيعي ، وهذا ما يؤكده جازيه^١ . اما مرض هانسن^٢ ، (وهذا اسم الجذام باللغة

١ - هناك ثلاثة علماء فرنسيون يحملون هذا الاسم ، الاول بول جازيه (١٨٢٣)

الطبية التي تحاول بث العزاء في النفوس) ، فلا أقول انه ليس عضالاً ما دام يؤدي الى الموت . غير اني على يقين من ان خطره اقل مما يتوهم الناس . واول ما اود الاشارة اليه ان استحكام جرثومة هذا المرض بالجسم بطيء جداً . وقد تمر ثمانية اعوام او عشرة على انتقال العدوى قبل ظهور العوارض ! وتطوره ايضاً بطيء . واذا تعذر الشفاء منه ، فتخفيفه ميسور، والحد من وطأته سهل . ففي وسع صاحبك المغربية ان تعيش عشر سنوات حياة طبيعية خالية من الألم . ولكن من المحتمل ان تمر بفورات من هيجان المرض تتطلب معالجتها زمناً طويلاً . وكثيراً ما تحدث هذه الفورات قبل الموت بعشرين سنة .

قال كوستال في نفسه : « هذا ما يعني في الدرجة الاولى . فاذا انتقلت اليّ العدوى فسأجد الوقت الكافي لانجاز القسم الأهم من انتاجي الادبي ، وهو لا يحتاج الى اكثر من ست سنوات اجافظ خلالها على صفاء الذهن وسلامة التفكير » .

واكمل الدكتور لوبل حديثه قائلاً :

— واخيراً — وهذا ما اود ان تعيره انتباهك — ليست العدوى سهلة الانتقال كما يظن السواد الاعظم من الناس . فحوادث انتقالها اقل من حوادث انتقال السل ، لأن جراثيم الجذام لا تنتشر في الهواء . ولا تتعجب اذا كانت خديجة وعمها لم يُعزلا عن الناس ، فليس جميع المصابين معزولين . لدينا مستشفيات خصوصية للمعذومين ، طبعاً ، لكن المرضى

١٨٩٩) وهو فيلسوف ومفكر ؛ والثاني ابن اخيه ، بيار جانيه (١٨٥٩ -

١٩٤٧) ، من ورّاد علم النفس التجريبي ؛ والثالث ابن بيار بول جانيه (١٨٦٢ -

١٩٣٧) وهو فيزيائي اهتم بالشؤون الالكترونية .

٢ - جرهارد هنريك هالسن (١٨٤١ - ١٩١٢) طبيب اسويجي اكتشف جرثومة الجذام ، فسجل سبقاً كبيراً في علم الابحاث الجرثومية .

يقيمون معاً في غرف مشتركة حين لا يطلق سراحهم . ففي باريس ثلاثمائة مجذوم ، لا يقيم منهم في مستشفى القديس لويس سوى عشرين مريضاً ؛ اما الباقون فيذهبون الى حيث يطيب لهم الذهاب . وحتى الذين أدخلوا الى المستشفى يقيمون في غرفة مشتركة . وليس فينا من يذكر ان العدوى انتقلت الى احد من الأصحاء . واكثر من ذلك : ففي وسع المجذومين ان يتزوجوا وان يمارسوا الوصال الجنسي طوال سنوات دون ان تنتقل العدوى من المريض الى السليم من الزوجين . والخلاصة ، اني لا اعتقد ، من الوجهة الطبية الصرف ، انه من المستحيل ان تكون العدوى قد انتقلت اليك ، لكنني اجزم بانه من المستبعد ان يكون هذا الانتقال قد تم في الاتصالات الستة التي جرت بينك وبين خديجة ، لأن الطبيب فحص هذه المرأة قبل اتصالاتك بها ببضعة ايام ، فلم يكتشف في اعضائها التناسلية أثراً لجراثيم المرض .

قال كوستال في سرّه : « ان الرجل لعلى حق دائماً حين يجازف ... كنت اعلم ان الجدري اصبح من الامراض المسليّة والمتعة بفضل العلاجات الحديثة ، اما الجدام ؟ ... »

ثم خاطب الدكتور لوبل قائلاً :

— لنفترض اسوأ الاحتمالات ، فمتى تظهر عوارض المرض اذا كانت

العدوى قد انتقلت اليّ ؟

— بعد اربعة اشهر ، او اربع سنوات . هذا كل ما يستطيع ان

اقوله لك .

— أيجب ان أتخذ منذ الآن تدابير واقية ؟

— تدابيرك الواقية هي ان تقطع علاقاتك بهذه المرأة . لا يجوز ان

تتابع اللعب مع الغدّه المخاطية ، فهي لا تحب المزاح ! وأسأدر الاوامر

اللازمة فوراً لجلب خديجة الى هنا ، وفحصها من جديد ، على الرغم من

ان حكم الدكتور مايبون جازم لا مجال فيه للشك . سأفحص انفسها

والاشياء الاخرى ، ثم احقنها بعصير الشولوغرا^١ واسمح لها بالعودة الى بلديها ، فلا مكان في المستشفى إلا للذين بلغ فيهم المرض مرحلة خطيرة . لدينا مشروع لانشاء مستشفى جديد ، في مراكش ، لأمثال صاحبك من المصابين ، إلا ان انجازه يتطلب سنتين أو ثلاثاً . وسيزور مايبون خديجة في تفرمت كلما ذهب الى هناك . اعدك بان اهتم شخصياً بهذا الامر . ثم ان المرض المقيم في « طعود » سيعنى بها ويسهر عليها ، فلا يدعها تهمل العلاج اذا تحسنت حالها قليلاً .

واقترح لوبل على كوستال ان يريه بعض الجذومين المقيمين في المستشفى ، وقال له :

— كثير من رجال القلم ، وجميع الاديبات بلا استثناء ، يتصورون انهم محاطون بالجذومين عندما يزورون هذا المستشفى . وافترت ثغر الطبيب عن ابتسامة جارحة بما فيها من التهكم ، فرفض كوستال اقتراحه قائلاً :

— لا اجد فائدة لأحد في اثاره خيالي . ثم ان منظر الجذومين من المشاهد التي تهتم المصورين ، ولا تهمني مطلقاً . إلا انه قبيح بان يأخذ كتاباً علمياً عن الجذام أعاره إياه لوبل ، لأنه اراد ان يعلم اكثر مما علم ، وهو المصمم على الاحتفاظ برباطة جأشه . ولم يستطع الفرار من المشاهد المثيرة ، فقد عرض عليه لوبل صور بعض المصابين بوجوههم المتورمة ، ونظراتهم الشاردة ، وأنوفهم المسحوقة تحت عيون خالية من الحواجب والرموش .

وكان بين اولئك المرضى افراد سقطت اصابع ايديهم وارجلهم ، و افراد سقطت اعضاءهم الجنسية ، او اهترأت ودب فيها الفساد ، فقال كوستال في نفسه : « سأجني كسباً عظيماً اذا خد حب^٢ خديجة في

١ - نبات ينمو في برمانيا ، ويستعمل عصيره لمعالجة الجذام .

قلبي ، . وكان في تفكيره على جانب كبير من المنطق والصواب . ثم راح يبحث ، بدافع من غريزته ، عن الموقف الذي يسبب له أقل ما يمكن من الألم ، قتيين له انه من المحتمل ان تساعد الطبيعة على النفور من خديجة متى بدأ المرض يشوّه وجهها . غير ان هذا الاحتمال ظل محفوفاً بالشكوك ...

وانقضى اسبوع قبل ان تصل خديجة الى مراكش . وقبيل وصولها ساءل كوستال نفسه أمن الخير ان يستقبلها ؟ فرأى ان لا فائدة في هذا الاستقبال . وفي اليوم التالي سافر الى الجبال .



غادر كوستال مدينة مراكش ميمماً المناطق الجبلية . وكان يذهب كل يوم خميس الى بلدة يصل اليها البريد ليتسلم الرسالة الاسبوعية التي يكتبها اليه ابنه كل يوم احد ويرسلها بالطائرة . وكان برونيه في احدى المدارس الانكليزية على مقربة من لندن . ومن بين الرسائل المائتين تقريباً التي كانت تصل اليه كل اسبوع ، لم يكن يهتم إلا برسالة برونيه . اما الرسائل الاخرى فكان يلقي عليها نظرة سريعة ، او يتصفحها بنزق ، او يمزقها ويرميها دون أن يفض غلافها . واذا ، فرسالة واحدة كانت تهمة ويُسرّبها ، واحدة بين مائتين . أفليست هذه النسبة هي المألوفة بين الناس ؟

في الفصل المدرسي الاخير من سنة ١٩٢٧ ، كان برونيه في مدرسة «كان ١» ، فاحتج قائلاً انه يودّ الخلاص من الجهل المتراكم فيه ، وانه لا يستطيع العمل في تلك المدرسة ، فخطرت في بال كوستال فكرة نقله الى مدرسة خاصة في جوار لندن . واصبحت انكلترا بلداً عزيزاً عليه منذ أن كتب اليه ابنه انه امضى بعض الوقت عند اصدقاء له و«كان سعيداً كأنه ملك» . وقد ارتاح الكاتب الى هذا التدبير لانه اتقذ ابنه من التشويه الفكري الذي يتعرّض له تلاميذ الصفوف الثانوية:

١ - مدينة فرنسية .

في المدارس الفرنسية . وتذكر انه اصيب بازمة نفسية وعصبية استمرت اثنتي عشرة ساعة يوم اخبره برونيه ان موضوع فرضه الفرنسي في الانشاء كان : « يصوّر راسين الانسان كما هو ، ويصوّره كورنابي كما يجب ان يكون »^١ .

قال احد الحكماء القدامى ان إنجاب البنين نعمة لا تسبغها الآلهة إلا على اصفياها من الناس ، غير أن التعليم المدرسي ، بما فيه من مناقشات سخيفة ، ودروس عميقة وعديدة الاهمية ، يجعل الآباء يأسفون احياناً لكونهم انجبوا ابناء .

وفي هذه الاثناء تلقى كوستال من ابنه رسائل لا تخلو من التذمر . فلما كان برونيه في باريس ، تعلم اسماء جميع محطات القطار الكهربائي الذي يسير تحت الارض . وكانت ذاكرته مدهشة كذاكرة سواه من الاولاد النبهاء ، تسجل كل شيء ، حتى ان اباه كان يخشى ان يقرأ بحضوره بعض الكتابات لثلاث ترسخ في ذهنه اكثر مما يجب . إلا أن هذه الذاكرة اجفلت لما اصطدمت باللغة الانكليزية ، فادرك الصبي انه لن يتقن التكلّم بهذه اللغة ابداً ، فتألم وساوره القلق ، لا لأجل ما يخسر من امكانات النجاح الاجتماعي اذا اقتصرته معرفته على لغة واحدة ، بل لانه تشاوف على رفقائه في « كان » مؤكداً لهم انه سيعود من لندن وهو يتكلم الانكليزية بطلاقة كأحد ابنائها .

١ - راسين وكورنابي شاعرات مسرحيات فرنسيان كبيران اغنيا المسرح الفرنسي بتمثيلات من نوع المأساة تعتبر نموذجية في بابها . إلا ان كلا منها انتهج في درسه وتحليله اسلوباً خاصاً يختلف عن اسلوب الآخر ، فعرض راسين المثالب والشهوات مترخياً الاصلاح الحلقى بالعبارة ، وعرض كورنابي الفضائل والبطولات رامية الى الاصلاح بالقدوة ، فاصبح هذا التباين بين اسلوبي المؤلفين من المواضيع التقليدية التي تفرض معالجتها على تلاميذ الصفوف الثانوية في المدارس التي يعلّم فيها تاريخ الازب الفرنسي .

لم يكتث كوستال ، في بادىء الامر ، بتذمر ابنه ، اذ تذكر ان برونيه ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، كان يبالح بالبكاء على ارنب مذبح ، حتى ان اباه تساءل يوماً أيتألم بالفعل ام يتظاهر بالألم . وذات يوم ارتكب حماقة ، فاوهم اباه انه جرح اصبعه ليتلقى منه الملاطفة عوضاً عن التوبيخ . فاصبح كوستال حذراً حيال تذمر ابنه وشكواه . غير انه تلقى منه صورة ، وراه فيها على شيء من الهزال ، فجعل يقول في نفسه : « ساءت صحته لشعوره بمعجزه عن درس اللغة الانكليزية » . ولم يكن هذا الظن بعيداً عن الحقيقة .

وفضلاً عن ذلك ، لم تكن رسائل برونيه تحتوي شيئاً من طرافته ، وحماسته ، وغرابة اطواره ، فراح كوستال يقول : « أتراه ينطفئ ؟ واذ انطفأ أفلا تقع المسؤولية عليّ لأني اهملته قليلاً ؟ »

جاء في احدى رسائل برونيه الواردة من لندن : « يوم كنت صغيراً ، وكنا نعيش مفترقين ، ما كنت افكر فيك إلا حين اكتب اليك ، وحياناً في المساء عندما آوي الى فراشي ؛ اما الآن فاود بشوق ان اراك » .

راح كوستال يبحث عن الرسالة في جيوبه ليقراً هذه الجملة من جديد ، مع انها من الرسائل التي اصبحت اليوم عادية ، تصل في حينها بدقة . اما في ما مضى ، فلم يكن برونيه يكتب الى ابيه إلا بصعوبة وبعد تردد طويل . وكانت رسائله آتئذ مضحكة بهامشها الكبير ، وسطورها المرسومة بالقلم الرصاص .

كان كوستال يكره الاقامة الطويلة مع شخص آخر ، كما يكره بعضهم الانفراد ، غير انه قال في نفسه : « اذا شاء المرء ان يُسعد احداً ، فليفعل فوراً . أما كان يجب عليّ ان آخذه معي الى باريس في عيد الفصح ؟ » وقال ايضاً : « من البلاهة ان نقول مع القائلين : لا معنى للحياة ، ما دام في وسعنا ان نسعد من نحب ، وان نتغذى من

هذه السعادة ... ،

وفكّر طويلاً بما حلّ بابنه من الهزال ، سواءً أكان حقيقياً ام وهمياً ، فساوره القلق . ثم انتقل فكره الى سعادة برونيه ، الى قيمته ، الى مستقبله ، فاحس انه حيال هذا المستقبل يشبه مصارعاً متردداً امام خصمه ، لا يدري كيف يقبض عليه . فهو يعلم انه غريب الاطوار وان آراءه في الحياة ليست صحيحة إلا بالنسبة اليه وحده . وقد اصبح ابنه المحك الذي يساعده على التمييز بين ما يحسبه صالحاً ، وما هو صالح بالفعل للجميع ، وما هو صالح للذين يجهم وحسب . وهكذا اضطر الى ضبط احكامه ، والى التدقيق في اصدارها ، ثم الى اعادة النظر فيها . فشرع يقول ، مثلاً : « ان معرفة اللغة اللاتينية ضرورة بالنسبة اليّ » . فهل هي ضرورة ايضاً لبرونيه ؟ اذا اجبت : نعم ، فلا بد من السؤال ؛ لماذا هي ضرورة له ؟

وفي هذه العمرة من القلق كتب في مذكراته يوماً ، وهو جالس على حجر بين الثلوج :

« قالت القديسة تيريز عن الشيطان : « ما اشقاه ، لأنه لا يجب ا » وهذا امر بيديي ، فالرجل الذي لم يقدم في حياته باقة من البنفسج لاحدى النساء ، ولم ينتزع طوايع البريد عن رسالة واردة اليه من الخارج ليعطيها الى احد الاولاد ، يشعر دائماً بان حياته تفتقر الى شيء . لكن لا بد لنا من القول ايضاً : « ما أشقاه ، لأنه يجب ا » فحيث يكون الحب ، (ولا نعني بالحب هنا سوى المودة والمطف) ، فلا وجود للحرية ، ولا للسلام ، ولا للحياة المرحّة الهانئة . اذا افلس الرجل ، او حلّ به ما يطلع شرفه ، فانه يواجه مصيبته بصبر وقوة اذا كان قلبه خالياً من الحب ؛ اما اذا كانت له زوجة وابناء يجهم ، فمن شأن افلاسه او فقدان شرفه ان يجعله في جلّة من العذاب . واذا أشرف المرء على الموت فانه يواجه مصيره برباطة جأش اذا كان خلياً ؛ اما اذا

كان له اشخاص من اهله يحبهم ، فان رباطة جأشه تفتت وتلاشى حين يفكّر بأنه سيفقدهم الى الابد ، وحين يساوره القلق على مستقبلهم يعد وفاته . فالحب يسمّ الحياة ، والحب ينهش الانسان ويقرصه . ولا بد من الاشارة مرة اخرى الى اننا لا نعني بالحلب هنا سوى المودة والتعاطف بين الأزواج ، او بين الامل .

« لا وجود للحكمة الفلسفية في نفس من يجب ، ولا وجود للحكمة بين الانانيين .

« يقول المسيحيون : « الله حب محض » . وفي وسع الكافر ان يجيب : « لو أراد الله أن يحب لأصبح ضعيفاً ومنوطاً بن يجب . وفي مثل هذه الحال يفقد ألوهيته . فالاله الذي يجب هو عبد رقيق ، أفنستطيع أن نتصور إلهاً عبداً رقيقاً ؟ انظر الى ابتسامة بوذا^١ ، ثم احذر ان تحدث عن حبه للبشر . فهذه الابتسامة المشرقة لا تتألق إلا على وجه من لا يجب .

« لكن ، اذا كان الاحب هو حرية الروح والفكر ، فلا ريب في ان القلق الناجم عن الحب يقوّي احياناً الروح والفكر وينعشها . فالعناية بصحة الشخص المحبوب ، والعمل على إسعاده ، والسعي لصيانة قدره ، من حين الى آخر ، لا باستمرار ، هي جميعاً من الاعمال التي تسيل الى داخل المرء كالاسمنت المذاب ، فتسد الثلمات ، وترأب الصدوع ، وتوحد العناصر المتفرقة ، وتكسب المرء الانسجام ثم القوة والمتانة . انها توحد حياة أشخاص متفرقين ، شأنها في ذلك شأن حب الأرامل لأبنائهن ، فتخلق

١ - اسمه الحقيقي ساكياموني ، ولفظة بوذا لقبه ، وهي تعني « الحكيم » باللغة الهندية . اسس مذهب البوذية فنقض به تقاليد البراهمة في القرن الخامس قبل الميلاد . ومن مبادئ هذا المذهب ان الحياة عذاب ، وان العذاب ناجم عن الشهوة ، فلا سبيل للمرء الى التحرر إلا بنكران الذات حتى التلاشي في ذات الله . عدد البوذيين في العالم حوالى ٥٠٠ مليون نسمة .

الوجود المكتمل .

«الوجود المكتمل ، أجل !

« اننا نخطئ به حين نحصر اهتمامنا في من نحب . وهو يستطيع أن يكفيننا ، وأن يشغل أيامنا ، لولا تلك الشريعة القاسية ، شريعة « الفن ضد الحب » ، التي تفرض نفسها على جميع أنواع الحب ، لا على الحب الجنسي وحده .

« لم أصطدم بهذه الشريعة إلا يوم أحببت سولانج وبعض النساء الاخريات . لم أعطِ ابني أفضل ما في حياتي ، لأنني كرتت هذه الحياة لفني ، وهذا ما يبعث في نفسي اضطراباً يبلغ أحياناً حدود القنوط .

« وربما سأل سائل : أيكن تكريس حياة كاملة للتفكير بشخص

واحد ، وللسعي الى خيره وحده ؟

« وأنا الذي يحتب كثرة اللقاء بانبه ليتنفس الصعداء حين يبتعد عنه ، ويبتعد عنه ليشتهي لقاءه ، ولينتظر عودته اليه ... انا الذي بذل جهوده كيلا يصبح حبه في نفسه عادة مستحكمة ، وكيلا يسيطر هذا الحب عليه ، يجب الآن : بلى ، يمكن تكريس الحياة لشخص واحد ، وما هو المانع الذي يحول دون هذا التكريس ؟

« أتخيل بوضوح انه كان يوسعي ان أُنذر نفسي ، منذ عشر سنوات ، لتربية ابني ، ولتثقيفه على أيدي الاختصاصيين ، فهذه وحدها تربية بالمعنى الصحيح ، فأكون قد أحببته بما في الحب من المعنى السامي الجميل .

« كان عليّ أن أختار بين أمرين : أن أبني رجلاً ، أو أن أبني انتاجاً أدبياً ، فاخترت الانتاج الأدبي . وقبلي هجر روسو أبناءه ليضع

١ - جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) اديب فرنسي مرهف الشعور ، واسع =

كتاباً يعالج فيه شؤون الأبناء .

« الآباء العاديون يبتعدون عن أبنائهم سعياً وراء المال ، أو لادعائهم بالفوق على تفاهات الصغار ، أو ليلعبوا بالورق . أما أنا فقد أبعدي فني عن ولدي ، وعن حبه ، وعن الاهتمام بتربيته ، فجعلني أخونه ، وأرجيء دائماً الى الغد مشاريع الاهتمام به .

« غير اني أحس أحياناً ان هذا الابن يبعثر جهودي وامكانياتي ، ويكرهني على تكريس وقتي لما هو فاني ، بينما تأمرني فطرتي بالانصراف كلياً الى ما هو خالد . فكل فتان جدير بهذا الاسم يعمل كأن الخلود مكتوب لانتاجه .

« وها انا كالحيط في محاذاة الشاطئ ، تارة يتقدم ابني في حياتي ويحتل بقعة جديدة منها ، وطوراً يتراجع . أفليست هذه الحركة طبيعية في كل نوع من أنواع الحب ؟

« أيجوز لي التذمر من هذا الواقع ؟ ما أروع النشوة التي يغنمها المرء على هذه المياه المتحركة ، فهو في مثل هذه الحال لا ينضب ، ولا يتقيد باصفاة الولاء ، ولا يبأس كما يفعل الآخرون !

« وليس التناقض بين الفن والحب إلا حالة راهنة من تناقض كل شيء في الكون . فسن أراد العمل بعمق وقوة لا يستطيع - اذا كان مثلي - أن يخلق ، وأن ينمي مواهبه ، وأن يبحث عن المغامرات ، وأن يسعى الى المجد ، وأن يحب . فالقيام بكل من هذه الأعمال يؤدي حتماً الى خيانة الأعمال الأخرى .

= الخيال ، آمن بصلاح الطبيعة البشرية وبفساد المجتمع ، فدعا الى اتباع الطبيعة في مختلف شؤون الحياة . اشهر مؤلفاته : « العقد الاجتماعي » ، و « هيوليوز الجديدة » ، و « اعترافات » ، و « اميل ، او في التربية » . يعتبر رائد الحركة الرومنطيقية ، واحد العوامل الكبيرة في نشوب الثورة الفرنسية .

«... ليس صوت النسب والدم هو الذي يرتفع في نفسي حين احب ابني ، او بالحري ليس صوت النسب والدم وحده هو الذي يرتفع في هذه المناسبة ، فلو ارتفع وحده لما استطاع ان يكفيني . اعطيتني الطبيعة هذا الابن في احوال معينة ، فكنت قادراً على التحلي عنه ، لو شئت ، كما تخلّيت عن ف ١ ...»

« جادت به علي الطبيعة ، إلا اني اخترته ايضاً . ولم احببه وحسب ، بل اردت ان احبه . اردت ان احبه كما يريد المسيحي (الذي) ان يؤمن .

« يوم كان طفلاً غامضاً راهنت عليه ، راهنت على انه سيكون جديراً بحبي له ، وبالوقت الذي انتزعه هذا الحب من حياتي ...»

هكذا كان كوستال يفكّر محاطاً بجبال الطبيعة الذي يبدو تافهاً في نظر من يرى نفساً بشرية . وكان يبتمس ساخراً كلما خطرت في باله احاديث زملائه الكتاب عن «انفراده» .

أىكون منفرداً لاعراضه عن مخالطة اولئك الناس ، وهو الذي لم تمرّ فترة من حياته إلا كانت نفسه فيها مفعمة بحب شخص ما ؟ وهو الذي كان وجوده حباً مستمراً ، كما هي الحياة طريق الى الموت ؟
أمنفرد هو حقاً ؟

اجل ، في بعض الاحيان . إلا أن عزلته تشع بالموءة والعطف اللذين يجود بهما ، كما تشع هذه الشمس المنمشة على الثلوج فوق قمم الجبال المنعزلة .

١ - ابن آخر غير شرعي رفض كوستال الاعتراف به . - المؤلف .

كان يلتقيها كل يوم احد مساءً في القطار ، وهي عائدة من بيت عمته شارلوت . فخطبها مرةً واخبرها من هو ، ثم صارحها بانها استرعت انتباهه ، وطلب اليها السماح له بمراسلتها ، وصحبها حتى وصلت الى منزلها .

وكتب اليها مرات عديدة ، فرأت ان كتابته حسنة ، واغتبطت برسائله ، إلا ان غببتها كانت تتلاشى يوم الاحد كما التفته مساءً ، لان فتي « احلامها » كان اوفر منه وسامة وجمالاً .

واخيراً طلب يدما . ولم تكن اهمية طلبه قائمة عليه شخصياً ، بل على دار جميلة كان يستطيع استئجارها والاقامة فيها ... فكانت هذه الدار اهم سبب لقبول طلبه .

وفي ذلك المساء جلس في القطار الى جانبها ، عوضاً عن ان يجلس قبالتها كعادته . وبعد أن سألها أتستنكر جرأته ، قبّل جبهتها ، فما احست بشيء ، ما احست بشيء اطلاقاً . غير انها لم تضطرب ، ولم تتحرك . فقال لها :

— ألا تقبليني ؟

وبدت على ملامحه الخيبة والكآبة ، فادارت وجهها اليه ، وأدنت منه شفيتها ، ولم يبقَ عليها إلا أن تخطو الخطوة الحاسمة وتبوسه . لكنها احجمت في اللحظة الاخيرة واشاحت عنه . وكانت يداها

مطروحتين على ركبتيها بلا حراك كالحيوانات الكسولة التي تعيش في قاع البحر ، ثم بكت وراحت تذرف الدموع ، اذ أن البكاء لم يكن صعباً عليها .

كلما تذكرت السيدة دنديو هذه الحادثة كانت تظن أن السيد دنديو تأثر جداً في تلك اللحظة فأصرّ وجهه . إلا أن هذا الظن لم يكن يخلو من المبالغة ، فكل ما في الامر أن موقف السيد دنديو منها لم يكن يختلف عن موقف جميع الرجال في مثل موقفه ، اي انه انتقل الى المقعد المقابل للفتاة الباكية ، وطفق يقول لها كلمات مبتذلة معتدراً اليها .

ثم افترقا .

وفي اليوم التالي كتب اليها : « فهمت كل شيء ، انك لا تحبيني » . وعدل عن طلب يدها ، فبكت ، وخيل اليها انها كانت قد احرزت السعادة ، ثم فقدتها .

والحقيقة انها لم تكن بحاجة الى هذا الرجل ، بل الى رسائله ، الى هذه الرسائل الرقيقة ، الناعمة ، المفعمة بالاحترام ! ولم تكن تنتظره هو ، بل كانت تنتظر البريد . لذلك مرّت بمرحلتين متساويتين بالعزة والكرامة على الصعيد التقليدي : ففي المرحلة الاولى نظمت اشعاراً ، وفي المرحلة الثانية فزعت الى الدين المسيحي ، وغرقت في الورع والتقوى الى اذنها .

ولما بدأت تهدّد بالذهاب الى الدير ، هرع ابوها الى آل دنديو يستنجدهم ، فتشاورف شارل دنديو في بادىء الامر ، وقال انه لا يحب المتظاهرات بالزهد والقداسة ، لكن الدناير الذهبية التي وعد بها والد الفتاة المحقاء لم تكن على شيء من الحماسة . وبعد اسابيع قليلة ازداد عدد الأزواج في العالم ، واتحد رنتنتان ونيانيت الى الابد . ذهب شبابها هدرأ ، وخلت حياتها الزوجية من المتعة والرواء .

والانسان بطبيعته يحتاج الى الحب لأنه يجني منه القسم الاكبر من الغذاء
الضروري له . فاذا خلت حياته من كل شيء إلا من حبه لأبنائه ،
باتت في نظره حياةً ممتلئة ، لها من هذا الحب ما يبرر وجودها .
ولا يشعر المرء بحبه شعوراً عميقاً طاعياً إلا في الفترة العصبية التي
لا مفرّ منها : فترة الموت . ففي هذه الفترة تبدو له القضايا الكبيرة التي
شغلته ، كما يبدو له طموحه ، وادعاؤه ، و « رسالته » - اذا كانت له
رسالة - وكل ما بنى وشيّد ، هباءً تافهاً عديم الاهمية . اما حبه وهدف
هذا الحب فيبدوان بعيدين كل البعد عن التفاهة . ويثبت هذا الشعور
بقوة هائلة أمام القضاء المحتوم ، بينما تنهار حوله أعمدة هيكل
الحياة .

وكانت السيدة دنديو تحب ابنتها ، فأنقذها هذا الحب .
لو وضعنا لأنواع الحب مراتباً ، لجاء حب الأب لابنه في الطليعة ،
ولا ريب ، اذا افترضنا جدلاً ان هذا الحب موجود . لكن الحقيقة ان
لا وجود له ، فالرجل كثير الأشغال ، فضلاً عن كونه غليظ الشعور ،
واذا اهتم بابنه أحياناً ، كان اهتمامه به سطحياً عابراً ، فيه كثير من
اللامبالاة وشروء الفكر .

لا يحب الصبيان حباً حقيقياً إلا المرءى النابه الذي يعتبر مهمته
رسالة مقدسة ، واللواط الأصيل الذي لا تخلو شهوته من العاطفة . لذلك
أصبح حب الأم لابنتها اكمل أنواع الحب بين شخصين متحابين .



أفاقت السيدة دنديو من نومها للمرة الثالثة في تلك الليلة . وما كاد
وعياها يتصلص من غياهب النوم حتى قفزت فوراً الى ابنتها ، كأنها
في هذه الابنة حق المحتل الاول الذي لا بد من اظهاره والحفاظه
عليه .

إلا ان هذا الوعي لم يكن كاملاً ، فقد اعتراه اضطراب شبيه

باططراب المياه في نقطة اللقاء بين البحر والنهر ، حيث تختلط الحركات ويشد الصراع بين مغامرتين رهيبتين لا تقل احداهما عن الأخرى قوة وطغياناً ، وهما : مغامرة النوم ، ومغامرة اليقظة .

وكان قلبها يخفق بقوة خفق قلب مريض . وقد تبادرت الى ذهنها ذكريات عائلية قديمة عثرت على آثارها في خزانتها منذ ايام ، فتجددت صورها . وما استطاعت السيدة دنديو ، حيال هذه الصور ، إلا أن تدع الدموع تنفر من عينيها ، لأنها تذكرت ما عانته في حياتها من الحرمان ووحشة الانفراد ، وأدركت ان هذه الذكريات تنذرنا بان مصير ابنتها لن يختلف عن مصيرها .

ومما زادها غماً انها صرفت يومها السابق في جوٍ يخلق الشعور بالنقص ، فقد ذهبت الى المزين ، واحتملت براعته زمناً طويلاً لتخرج من بين يديه غير راضية عن التسريحة التي ابتكرها لها ؛ ثم عرّجت على الحياطة لتجرب ثوباً رخيصاً لم يعجبها . وقد تراكت المرارة في نفسها حتى غدت مزيجاً لزجاً كالوحدل . ومن هذا المزيج انبثق ظن عجيب ، يشبه اليقين ، لكنه غير محتمل ... فقد خيل الى السيدة دنديو ان ابنتها غادرت البيت وسافرت !

سافرت ؟ الى أين ؟ لماذا ؟

منذ حين ، في نهاية السهرة ، تعانقت المرأتان قبل أن تذهب كل منهما الى سريرها ، فقالت السيدة دنديو لسولانج :

— اذا عرقت هذه الليلة وأردت أن تبدلي ثيابك فاستدعي ، لأني أخشى أن يؤذيك البرد اذا بدلت ثيابك وحدك .

وما كادت الأم تغط في النوم حتى خيل اليها ان سولانج نهضت من سريرها ، وارتدت ثيابها ، وجمعت حوائجها بسرعة ، وخرجت من البيت ...

هبت السيدة دنديو من فراشها مدعورة ، واشعلت الكهرباء ، ثم

انطلقت هائمة على وجهها صوب غرفة ابنتها . وفي اثناء الطريق رأّت احد معاطف سولانج معلقاً ، فدنت منه ولثمته ، ثم دسّت فيه وجهها لحظةً .

وكانت سولانج مستيقظة ، تعاني الأرق ، وتصارع عيناها الظلام . وكان القليل من السعادة يكفي لتنام المرأتان ملء عيونها .

عرفت الابنة شكل أمها في العتمة ، ورأّت هذا الشكل يدنو من سريره ويسألها :

– أنت هنا ؟

– لا ، يا أماه ، أنا لست هنا !

– حسبتك غادرت البيت وسافرت .

– سافرت ؟

– أجل ، رأيتك تنهضين من سريرك ، وترتدين ثيابك ، وتخرجين من البيت حاملةً حقيبتك .

– أمي ! ألا ترين انك تسيرين بخطى حثيثة الى الجنون ؟

– بلى ! اني مهددة بالجنون . دعيني أجتو قليلاً الى جانب سريرك دون أن أفوه بكلمة . يكفي أن أمد اليك يدي لأشعر بانك هنا .

وأشعلت الأم الكهرباء ، فسألته سولانج :

– عجباً ! ما حاجتنا الى النور ؟

فابتسمت السيدة دندبو ابتسامة تشويها الكآبة ، ثم قالت كأنها تخاطب نفسها :

– أجل ، أنت هنا . عرفتك الآن . أنت ابنتي الوحيدة .

– لا ريب في ذلك !

– لو كان أبوك حياً ، فما عساه يقول وهو يرى غرفتك مضاءة في مثل هذه الساعة ؟ حين كنتُ أتابع القراءة الى ما بعد الساعة الحادية

عشرة ، كان يأتي إليّ دائماً ويبادرني بقوله :

د - ألم تنامي بعد؟

د وبما انك مستيقظة ، يا ابنتي ، فافسحي لي في مكان صغير الى جانبك . فاني اودّ أن أنعم بقليل من الدفء .

- تعلمين اني لا أملك من الدفء ما يكفيني .

- لا أريد دفئاً ، بل أحب أن أكون الى جانبك .

وجلست على السرير ، ثم سألت :

- أمستيقظة أنت منذ فترة طويلة ؟

- لا أستطيع تحديد اوقات يقظتي ، فقد استيقظت مرة في منتصف

الليل ، ومرة ثانية في الساعة الثانية ، ومرة ثالثة الآن .

- أنا أيضاً استيقظت في هذه الاوقات . وقد لاحظتُ اننا نستيقظ

معاً في أغلب الأحيان ، فيا للعجب ا

وبعد سكوت استطردت الأم قائلة :

- ألا تشعرين بألم في مكانٍ ما من جسمك ا

- لا ا اني بخير . لماذا تبحثين عن القلق لتعذبي نفسك ليل نهار؟

منذ قليل نُخيل اليك اني سافرت ، وها أنت تتوهمين اني أتألم في مكانٍ

ما من جسدي ا

- كان أبوك يقول ان الناس يصبحون في غمرة من الرعب اذا

تصوّر كلٌ منهم ان الذين يحبهم يهلكون في حادث تدهور ؛ اما أنا

فاعتقد ان من يجب شخصاً ما يتصوّره دائماً في خطر ، واذا زال هذا

التصوّر فلا ريب في ان الحب يكون قد خفّ .

ومدّت يدها تحت ذراع ابنتها ، ثم جعلت تلامس الاماكن العرقانة

من جسم سولانج . وكان العرق (وهو ناتج عن الضعف) قد اخترق

قميص النوم ، واستنقع كالرطوبة في ثنايا الارض المنخفضة التي لا يصل

اليها نور الشمس ابداً . ونظرت الى الشرايين الظاهرة في معصم الفتاة ،

فاذا هي كشرابين امها تماماً ، كأنها نُقلت عنها . ثم مدت يدها الاخرى

الى جبين سولانج كأنها تريد أن تطرد منه ارواح الشر ، وهي تقول في نفسها : « لم تخاطر في هذا الرأس ، ولن تخاطر ابداً ، فكرة واحدة تسيء اليّ ! »

وكانت سولانج ، بوجهها وجسدها ، أعز ما في العالم على قلب امها ، إلا انها جعلت كوستال يتثاوب سأمًا لوجودها الى جانبه ، وهي الفتاة التي يمر بها الوف من الرجال والنساء في الشارع فلا يباليون بها ، والتي يمكن أن يشتهيها بعض الرجال حتى الجنون دون أن يجبوها روحها . كانت كل شيء ولا شيء ، وكانت عظيمة السلطان وعاجزة عزلاء من السلاح .

اعتادت سولانج أن تنام فاتحة فاما كجميع العرب وكالسواد الاعظم من الاسبان ، فعرفت السيدة دنديو طرف الغطاء الذي كان على فم ابنتها من رطوبته ، فدمت وجهها فيه مرسلًا ايندًا خافتًا .

ربما كانت امرأة ساذجة كبنات الريف ، او بغلة ، إلا انها بلغت في تلك اللحظة ذروة ما فيها من القوة ومن الشعور القيم .

وجعلت سولانج تنظر مشفقةً الى ذلك الوجه المتورم من النوم ، وقد اتسعت فيه الغضون تحت العينين ، واستطالت كالأخاديد التي تمتد تحت عيني البغاء ، او كثنائيا الخدّة التي تركت اثرها ظاهراً في هذا الوجه كأنها جلده ودمغت تجاعيده بطابعها .

وكانت ملامح السيدة دنديو في تلك اللحظة تعبّر عن النهم والعياء معاً . وكثيراً ما يتخذ الوجه قناع الموت بعد احتدام الشهوة وارثائها . ولا بد من الملاحظة أن حنان الام ايضاً يتخذ هذا القناع في بعض الاحيان .

وبعد قليل ، القت السيدة دنديو رأسها على الخدّة الكبيرة ، وكان رأس ابنتها على الخدّة الصغيرة ، فساد الصمت برهة ، ثم قالت الأم : « يا حبيبتي الصغيرة .. أبجاجة انا الى الشرح حين اقول لك يا حبيبتي

الصغيرة ؟ »

وانتظرت هنيئة ، ثم بدأت تنحدر من الذروة التي رفعها اليها الحب حتى بلغت الحضيض ، فقالت وهي تنظر الى سقف الغرفة :

- ارى خطأ في لصق الورق على الجدران ١ . ولو كان ابوك هو الذي قام بهذا العمل لما ارتكب هذا الخطأ . ربما كان كيت او كان كندا ، إلا انه لم يكن له مثيل في لصق الورق على الجدران . ففي ليموج لصق يوماً ورقة في قاعة الاستقبال امتدت على الحائط كله ، ولم يحدث فيها اقل خدش .

ما تحدثت السيدة دنديو مرة الى ابنتها دون أن تقول لها : « ابوك » ، و « كان ابوك » ، و « قال ابوك » .. دائماً « ابوك ! » ففي حياته ، كان في نظرها لا شيء ؛ اما بعد وفاته ، فقد اصبح محور الحديث ، حيناً لانتقاده ، طبعاً ، وللثناء عليه في اغلب الاحيان .

واخذت السيدة دنديو يد ابنتها ورفعتها ، فارتفع معها المعصم ، وتلاصق المعصان : معصم الام ومعصم الابنة ، وراحا يترجحان بلطف وكآبة . ثم قالت السيدة دنديو :

- ليت الحياة تمر كلها هكذا ! فابقي مستلقية الى جانبك ، لا تحرك ، ولا احتاج الى مغادرة البيت ، ولا اهمّ باعداد الطعام . مررت امس بالحياطة جانين ... ما اغرب حالي ! فكلما تقدمت في السن تقل قدرتي على اختيار الاشياء الموافقة . كنت في ما مضى ابلغ غاييتي من الاناقة بالاشياء القليلة والبسيطة . واذكر اني عام ١٩١٦ ارتديت صدره من الحرير الازرق استرعت انتباه الجميع يجهاها ، وكان يملأني الشعور بالفخر كما سألتني الناس : « من اين اشتريت هذه الصدره ؟ » واذكر

١ - لصق هذا الورق على اثر وفاة السيد دنديو ، وكان من جملة التحسينات التي اجريت في المنزل . - المؤلف .

ايضاً فيض السرور الذي غمرني لما سألتني كاهن بلدة « بوتورسون » أقيم في باريس ، لاني كنت مرتدية تلك الصدرية . وما اجل أن ترى المرأة الناس يحسبونها باريسية وإن تكن غير متبرجة !

والقت رأسها على كتف سولانج مرسله انينها الخافت المعهود . وكان هذا الرأس يرتفع قليلاً كلما تنفتت كسفينة يلعبها تنفس البحر الهادىء . وفي صدر الغرفة ، الى جانب المدفأة ، كانت القطتان : الام وابنتها ، نائمتين ايضاً ، ومتعاقدتي القوائم ...

ومزقت السيدة دنديو السكوت قائلة :

— اود لو افيدك بجيائي !

— وما الفائدة من هذا الفداء ، يا اماء ؟

— لا استطيع التفكير بان هذا الخنزير يصطاد الغزلان في جبال

الاطلس^١ ، بينا انت ...

— لماذا تصفينه الآن بالخنزير ؟ فنذ ثلاثة اسابيع قلت انه « بعير

لطيف » ، وهذا افضل .

— اقول انه خنزير لأنه يعذب ابنتي الحبيبة .

— دعينا من هذا الحديث ...

— امس ، بعد الظهر ، كنت ابحث عن سحف لستائر النوافذ في

خزانتنا النورمندية ، فرحت افتح ما فيها من العلب . وكم وجدت فيها

من الاشياء التي تشير الشجن ! وجدت خاتم خطبة جدتك ، وطرحه

عربي ، وسنك الاولى ... وكانت دهشتي الكبرى لما عثرت على ثيابك

١ - رهل في جبال الاطلس غزلان ؟ - المؤلف .

وقد طرح المؤلف هذا السؤال الزاخر بالهزم والسخرية امعاناً منه في اظهار

جهل السيدة دنديو ، لان نوع الغزلان الذي ذكرته : Isard ، لا يوجد إلا في

جبال البرانس .

وانت طفلة . فقد كنتِ في حجم القنينة لما وُلدتِ ، بحجم قنينة عادية
سعتها لتر واحد . وكان ابوك يقول : « ما علينا إلا أن نسميها
برغوثة ، برغوثة دنديو ... » وقد اضطررنا للذهاب الى محلّ لبيع الدمى
لنشترى لك ثياباً . هل رويتِ هذه الحكاية له ... لصيّد الغزلان ؟

— نعم .

— وماذا قال ؟

— لا شيء^١ .

— لا يدهشني منه هذا التصلب ، فاهل الجنوب خالون من العاطفة .
واني اتذكر دائماً يوم عمادتك ، فقد احتفلنا بها احتفالاً كبيراً ، وانصرف
المدعوون الى الشراب وتناول الطعام والمرح ، ونسيتي الجميع وحيدةً في
سريري ، فبكيت بمرارة ، اذ لم يفكر احد بان يرسل اليّ كأساً من
المرطبات ! ثم ارسلت الخادمة لتشتري لي زجاجة شبنانيا من السوق
كيلا اطلب شيئاً من أبيك . وبعد قليل صعد الى غرفتي ، فرآني مبللة
الوجه بالدموع ، فقال لي : « حقاً انك في منتهى الغباء ! لم يأت احد
اليك لاننا حسبناك نائثة » . ويوم مجيئك الى هذا العالم ايضاً اهلني
الجميع كأني كلبة جرباء . وأبت جدتك ان تتحرك من بيتها لان
الثلج كان يكسو المدينة . وكان هذا عذراً مردوداً لم يقتعني . وكان ابوك
يقول : « سيتم كل شيء على ما يرام » . وما ادراه بما سيكون ليفوه
بمثل هذه الكلمات ؟ اني اسألك ، فاجبي ا ولما وصلت عمك
شارلوت ...

وصمتت السيدة دنديو فجأة كعلبة الموسيقى اذ يطرأ عليها عطل

١ - اجابها كوستال : « ارى انك كنت دمية تمشي » . - المؤلف .

وقد كتب لفظه : تمشي ، بخط مائل للدلالة على انه يعني بها التسامح في
معاشرة الرجال . وهذا تمييز تستعمله العامة في فرنسا .

فتخرس في منتصف الليل الذي كان يخرج منها . ثم سألت ابنتها :
- هل انتِ ؟

فلم تسمع جواباً . فاشعلت الكهراء ، ورأت سولانج نائمة ، وقد
انساب قليل من اللعاب على جانب فمها . فبينما كانت امها شاردة في
فيافي اخبارها ، دهمها النوم ولامس وجها بقوائم غزلانه الرشيقه .
ما اعظم الليل الساجي على العالم ! وما اروع صمت الارض عندما
ينظر المرء الى وجه الحبيب النائم !

على من يرهقه الفضول ، ويريد أن يجد مفتاحاً لاسرار الطبيعة ، ان
يتجه الى الحنان البشري ، فيجد فيه منتهى القلق والاضطراب ، ومنتهى
الطمأنينة والراحة .

كانت السيدة دنديو ترتاح في سولانج ، كما يرتاح كوستال في ابنه بعد
جولاته الواسعة وتشردده الاهوج الطويل . وعلى هذا الصعيد ، لم يبقَ
اقل فرق بين كوستال والسيدة دنديو . ولو اكتشف هذه الحقيقة لاتبسم
لام سولانج من فوق الحاجز القائم بينها . إلا أن كلا منهما كان يبحث
عن الآخر في اماكن بعيدة على غير هذا الصعيد . فالنهران المنطلقان من
حنانها كانا يتلاحقان ، ويتقاربان ، ويمرّيان احدهما الى جانب الآخر ،
لكنهما لا يلتقيان ابداً .

ونظرت السيدة دنديو الى يدي سولانج ، فاذا هما هزيلتان لا تزيدان
حجماً على الرسغين كيدي القروء . وانتقل فكر الام فوراً الى يديها
هي ، فخطر في بالها ان تجمعها ، وان تصلي : « يا الهي ! اجعل ابنتي
تنجو من هذا المأزق » . الا انها قامت بحركة لاشعورية آلية صرفاً ،
بقوة ما يقال عن حلول الحب في مكان الحبيب متى بلغ منه القلق
ذروته ، فجمعت يدي سولانج للصلاة عوضاً عن أن تجمع يديها . وكانت
هذه بادرة جدبة بالدرس والتوضيح .

وما إن رأت يدي ابنتها مجموعتين على صدرها حتى خيل اليها انها

ماتت ، فوضعت يدها على صدرها لتشعر بحركة التنفس فيه ، ثم اطلقت
النور ، والقت رأسها من جديد على المحدة الكبيرة .

وكانت سولانج قد سمعت منها مائة مرة هذه الحكايات : حكاية
ثياب الدمية ، وحجم القنينة ، وزجاجة الشمبانيا ، والجدة التي ابت
ان تتحرك من منزلها خوفاً من الثلج ، ومع ذلك ، فلما اغفت والسيدة
دنديو تخاطبها ، اتخذ اغفاؤها في ذهن الام المضطربة معنى خيفاً ،
فراحت تقول في نفسها : « اجل ، لم اكن واهمة ، فقد غادرت ابنتي
هذا البيت وسافرت ... وها انا مهملة ومهجورة من جديدا »

ولم تعد تفكر بالقاء رأسها على كتف ابنتها كما فعلت منذ قليل
لئلا توقظها ، على الرغم من رغبتها الشديدة في أن تستيقظ سولانج
لعلها « تعود » .

وبذلت جهداً كبيراً كيلا توقظها . وبعد دقائق فكثرت بالدموع التي
ذرفتها منذ ساعة ، واقامت تنتظر ، ثم جاش الألم في صدرها ، فاغرورقت
عينها ، وانهمرت منها الدموع في صمت ثقيل .

خلال شهري شباط واذار، عاش كوستال عيشة البدو، وانصرف الى الصيد في ضواحي فاس . وثمة مثل عربي يقول : « المسافر المنفرد شيطان » . إلا انه قديس ايضاً . ولا ريب في ان انفراد الكاتب مدة طويلة ، والتجارب التي مرَّ بها ، والوجوه والمشاهد التي رآها دون ان تترك في نفسه أثراً ، واذعانه للطبيعة المخيفة التي استسلم لها ، كانت كلها نوعاً فريداً من الرياضة الروحية .

وكان الدكتور لوبل يطلعه على احوال خديجة . فقد أثبت فحص المادة المخاطية في أنفها ما ذهب اليه مايبون ، فبوشر علاجها في تغرمت .

وذات يوم وجّهت اليه رسالة على يد صاحب مقهى في الدار البيضاء كيلا يعلم احد انها تكتب الى رجل فرنسي ، فبدأت رسالتها هكذا : « أكتب اليك لأعلمك ان صحي جيدة » . ثم انتقلت الى مواضيع اخرى .

اما كوستال فكان يكتب باستمرار الى سولانج ، لأنه كان يودّ أن يخفف آلامها قدر المستطاع . فكان يناقش بهذا السلوك القسم الاكبر من الرجال المستعدين أبداً لتخفيف جميع الآلام ما عدا التي يسببونها . وكانت غايته القصوى أن يساعدها على الهبوط ، بهدوء وسلام ، من حالتها حبا الى ارض ساكنة ، سوّية ، تبدأ عليها حياة جديدة ، فتخطب

رجلاً آخر ، وتزوج به . ويكون هذا الرجل المهندس الشاب توماسي ،
ولا ريب .

لم يشأ اطلاعا على الحقيقة لاعتقاده انها تعجز عن احتمالها ، فراح
يحاول ايهامها بأنه ما برح يعطف عليها ، على الرغم من ثلاثي هذا
العطف كلياً من نفسه ، وهذا ما يسميه الناس عادةً : الامانة ،
والولاء .

كثيراً ما يكتب البعض الى الفتاة المهجورة : « ان اعظم برهان
أعطيتَه عن متانة حيي لك هو انفصالي عنك » . لكن هذا الكلام
دجل صارخ يُقدم الرجال عليه عمداً . وكانت من هذا الطراز أقوال
كوستال لسولانج لما كان يكتب اليها : « ازداد حيي لك ازدياداً عظيماً
بعد تحوره من تحديد يوم الزواج » ، أو : « ماذا أستطيع أن أفعل
لأرضيك ؟ »

هذا التصرف شبيه بتقاليد القبائل المتوحشة التي تكرّم رؤوس
الاعداء بعد فصلها عن أجساد أصحابها .

وحاول يوماً أن يوهما بأنه يتألم في المغرب ، فكتب اليها يقول :
« يتعذر عليّ أن أجد هنا الأمان والحرية اللذين جئتُ أبحثُ عنها
لأنصرف الى عملي » . والحقيقة انه لم يكن يتألم إلا لاضطراره الى هذا
التمثيل المنافق . فقد كانت هذه المهزلة ترهق أعصابه ، وأحياناً تشير
سخطه على ما فيها من فظاعة الرياء .

وكان يجتهد لشحن رسائله بالمبارات اللطيفة الزاخرة بالعواطف
الرقيقة ، فيخيّل اليه ان الورقة تكاد تتمزق تحت قلمه محتجة على
استعمال جمل تدل على اهوة العميقة التي تفصل بين الكلام المكتوب
وحقيقة ما يعتلج في نفس الكاتب ، وكان هذا منتهى التفاق .

وفي نهاية رسائله ، كان خطه ينتعش ، نوعاً ما ، ويصبح رشيقاً ،
مفعماً بالسرور كحصان في نهاية الشوط يشم رائحة الاصطبل . وذات

يوم ، غير ريشة قلبه ، فأصبحت عواطفه أوضح ، وأسرع بروزاً على الورق .

ومها يكن من الامر ، فقد كانت هذه الرسائل من أشد كتاباته تأسيراً في النفس . وكان يضع مسوداتها في ملف خاص تحت عنوان : « مزامير لخطيبتي » ، مشيراً بذلك ، ولا ريب ، الى حفلات الزواج في أفريقيا الشمالية حيث يطرب المحفلون على أنغام المزامير . ومن المعروف ان أجل رسائل الحب هي التي لا تكتب بصدق واخلاص . فلا شيء في العالم أقل فصاحة من الحب الحقيقي .

لما كان برونيه يعانق أباه بجمرة ، ويغمره بالقبل سائلاً : « أتعجبني أكثر مما كنت تعجبني في السنة الماضية ؟ أتفكر بي كل يوم أم مرة كل يومين ؟ » كان كوستال يرتبك ، ولا يدري بمَ يجب ، فيقول : « انك تعلم كم أحبك ، يا أبه ! » ويحس ان جوابه ليس على شيء من الحرارة المرجوة ، فيحاول أن يجد كلمات رقيقة ، ثم يقبل برونيه قائلاً له : « لم أجد في حياتي ولداً أشد بلاهة منك » .

بهذه الكلمات كان هذا الكاتب الشهير يعبر عن شعوره اذا أحب حباً عميقاً بكل قوى قلبه . اما اذا كان لا يحب فان الكلام يتدفق منه بغزارة كأنه يفيض من ينبوع . وقدماً قالت آثينا لمولس^١ : « ما

١ - آثينا ربة اسطورية يونانية ، وإلهة الفكر والفنون والعلوم والصناعة ، وابنة زفس . كان اليونانيون القدماء يمتدحون انها خرجت من دماغ ابيها مسلحة ، ومن اسمها اتخذ اسم العاصمة اليونانية .

وعولس شخصية خرافية يونانية ، ومن اشهر ابطال حصار طروادة . اشتهر بالحكمة والحيلة ، وهو من ابرز الاشخاص في اوديسة هوميروس . اكتشف اخيل متخفياً بين بنات ملك ليكوميديا فأرسله الى حصار طروادة ، وأقام هو في مغارة العملاق بوليفام ذي العين الواحدة فسلم عينه ، ونجا من جنيات البحر بأعجوبة . ولما عاد الى بلاده كان اول من عرفه كلبه الامين .

أبرعك في الكذب ا »

وفي الجهد الذي كان يبذله لكتابة رسائله لم يكن يصارع لامبالته بسولانج وحسب ، بل كان يقاوم رغبته الكبيرة في إيدائها لمعاقبتها على اقامته فضلاً كاملاً في الجحيم الافريقي . وم كما كان يعاني من الآلام لكبت هذه الرغبة والعدول عن تحقيقها ، لأنه كان يبعدها عنه كأنه يحملها ماداً ذراعاً ، فيرهقه عبثاً ا وم كما كان يتألم ايضاً كلما اندفع في سبيل الخير والاحسان ! وم كما اكتشف مؤرخو المستقبل منا فعل هذا الكاتب من الحسنات تلبية لنداء شيطان الخير ، فانهم سيصنفونه ، ولا ريب ، بين القديسين ، أبطال الاسطورة الذهبية . وبما انه سيكون آنذاك في جهنم ، فسيصبح تطويبه أفضع عقاب محل به ، لأنه سيكتوي بنارين مرتين .

في أواخر نيسان عاد الى جبال الأطلس ، ونزل ضيفاً على زعيم عشيرة عروان . وكان هذا قصير القامة ، ملتجياً ، قاسي الشعر ، يثني كالدب ، كثير المرح ، معشاقاً شيقاً ، يهاجم النساء ، ويعبد الكواكب والنار . والحلاصة ، انه كان من أبناء بلاد السباع مائة بالمائة .

وذات يوم ، بينما كان كوستال يفسل يديه قبل الغداء ، جمد فجأة في مكانه ، لا يأتي بحركة ، اذ رأى على معصمه الأيمن بقعة صغيرة تختلف كلياً عن بقعة خديجة لأنها عديمة اللون ، وحولها هالة سحابة .

تعرّى من ثيابه ، وفحص بدقة ما استطاع فحصه من أجزاء جسده على مرآة كان يحملها في السفر ، فما وجد شيئاً يثير الشبهة .

وأخذه العجب لأن وجهه لم يتغير . فكيف يكون المرء مجذوماً ولا يظهر على وجهه ما يشير الى انه مريض ؟ يا له من داء ماكر منافق !

وتعجب ايضاً لأنه لم يتأثر . ثم قرر أن يذهب فوراً الى الدكتور لوبل لاجراء الفحص اللازم .

وفي اثناء تناول الطعام ، زعم انه نسي موعداً كبير الاهمية ، وانه مضطر للذهاب الى مراكز ، ثم طلب الى مضيفه دليلاً وبغلا يوصلانه الى سوق الاثنين الواقعة على مسافة ستة عشر كيلومتراً ، على امل ان يجد هناك سيارة تحمله الى المدينة .

ولما فرغ من تدبير هذا الامر ، أكل ، وشرب ، وتحدث ، ودخن ، وتحدثاً حسب الاصول ، كأن شيئاً لم يكن ، فلا بد للحياة من متابعة سيرها الطبيعي .

كأن شيئاً لم يكن ؟

لا ! كان هذا ادعاء يختلف قليلاً عن الحقيقة . والمرح المفاجيء الذي تظاهر به في حديثه مع مضيفه كان يدل على أن سروره ولا مبالاته مصطنعان . وكانت هذه اول ردة فعل بدرت منه حيال الخطر الذي يهدده .

وبعد ساعتين كان على الطريق ، فراح يفكر . وحتى تلك الساعة لم يكن قد وجد بعد متسعاً من الوقت للتفكير .

تذكر عبارة قرأها في كتاب الطب تقول : « تظهر البقع اولاً في الوجه ، وفي اطراف الاعضاء » . وقد حفظها عن ظهر قلب و اشار اليها بخط رسمه تحتها .

وتبادر الى ذهنه انه لم يتصل بخديجة إلا منذ شهرين ، وان هذه المدة لا تكفي لظهور المرض فيه ، فاعتقد ان العدوى انتقلت اليه منذ سنتين في زيارته السابقة للمغرب ، وراح يقول في نفسه :

« لو لم يكن الانسان قادراً على الانتحار لكانت سألني مأساة مفرجة لمعجزني عن الخلاص من الآلام الجسدية حين تحملت بي . اما الآن فاذا ساءت صحي ، ويشتت من الشفاء ، وازدادت آلامي ، ففي رسعي انت انتحرت . وربما احتجت الى مسدسي الذي كنت اود أن اقدمه للسيد دندير !

« لنفترض أن امامي اربع سنوات او ست سنوات من صفاء الفكر وسلامة العقل ، فهذه مدة لا بأس بها . ولا ريب في اني استطيع أن اعيش خلالها بأمان اذا نظمت حياتي بشيء من الحنكة وقوة الارادة . فالهم في هذه المسألة ، اذاً ، ان انسف عملي لاوجد التوازن بين ملذاتي ، ما دمت قادراً على التمتع بها ، وبين عملي وما يجب عليّ نحو ابني .

« اما عملي فيجب ألاّ انهيه بخاتمته الطبيعية ، بل بخاتمة تنسجم مع هذه المرحلة التي امرُّ بها الآن ، هذا اذا تمكنت من ادارة اعمالى بدراية . ومن الضروري أن لا تأتي الخاتمة مناقضة لحقيقتي .

« اما برونيه فسيكون في العشرين من عمره عندما يوافيني الأجل ، وفي وسعه ان يتدبر اموره بوسائله الخاصة .

« الحق يقال ، ليست قضيتي مشكلة تثير القلق . يكفي أن اقتصد بوقتي اكثر مما فعلت حتى اليوم ليجري كل شيء على ما يرام . وما عليّ إلا أن أصفّي نفسي بعناية ، وان انصرف الى تنقيتها بكل انتباه .

« كنت اقول ، كلما فكرت بالحرب المقبلة : « يجب أن اسطر على المرض » .

« من المؤلم ، طبعاً ، أن يموت المرء في الاربعين من العمر . لكن ، ألم يكن من المحتمل ان أقتل في الحرب وانا في العشرين ؟ ألم يكن المحتمل ايضاً ان اموت مائة مرة بعد الحرب في المشكلات التي كثيراً ما تورطت فيها ؟

« جعل منى الجذام رجلاً محكوماً عليه بالموت ، إلا أن موعد التنفيذ ليس اقرب من الموعد الذي كنت اتوقعه لو لم اكن مريضاً .

« ثم انى ارى ان هذا المرض هو نوع من التجديد لحياتي ، لانه عنصر جديد في هذه الحياة . فحياتي خسرت من مداها الزمنى ، غير انها ستربح في مجالات الشعور ، والتأملات ، والقضاء نظرة جديدة على

الكون ، ناهيك بانها بدأت تتطهر مما كان يرسب فيها من الرماد
والنفايات ، على الرغم من الجهود التي بذلتها للخلاص من هذه
الرواسب .

« الموت المفاجيء شيء حسن . والموت بعد ست سنوات لا بأس
به ، ما دام يترك لي متسعاً من الوقت لانظر الى وراء . اما الشيء غير
الحسن فهو الموت بعد شهرين ، لانها شهران من الوعي العديم الفائدة ،
ولا يكفيان ليتدبر المرء اموره .

« انها لتجربة مجدية ، حسنت' خلالها خبرتي في التجارب ، وكانت
هذه الخبرة غير كافية . وارانى بحاجة الى كل ما انطوي عليه من
الامكانات الانسانية لاواجه ما ينتظرني .

« اما الموت في حد ذاته فلم يكن قط مشكلة . فليقلع المرشدون
عن ازعاجنا باخبار الموت .

« ما الذي سيحل بنا بعد الموت ؟

« ان العقلاء لا يطرحون على نفوسهم هذا السؤال ، بل يقولون فعل
الايان ، او لا يقولونه ، ويلتفي الامر . واذا افترضنا أن التفكير بالموت
حاجة لا بد منها ، فاني سأفكر به في الأيام الثمانية التي تسبق
انتحاري .

« ان الرجل السليم العقل لا يفكر بالموت إلا حين يراه امام عينيه ،
يكاد يلامس انفسه . والاولاد يعتبرون الموت خرافة لا تأزف ساعتها
ابداً . فعلينا أن نقتدي بالاولاد .

« كم كنت مصيباً في تحقيق القسم الاكبر من امانتي ! كم كنت على
حق في تنعمي بالحياة الى اقصى حد !

« كنت اعلم ، في اثناء الحرب ، اني معرض للقتل ، او للتشويه ، او
للشلل ، او للجنون ، بين دقيقة واخرى ، ومع ذلك كنت اغتم من
الحرب نوعاً من السرور ، هذا اذا ألقيت نظرة شاملة على ايام الحرب

يحملتها ، لا في تفاصيلها .

وأجال عينيه في ما حوله من الجبال والادوية والوهاد ، ثم قال :
« يا له من مشهد رمزي ! فورائي حياقي بما فيها من الحوادث
والاشخاص كهذا الوادي الحبي ، ووراء هذا الوادي ، في صدر اللوحة ،
انتاجي الادبي شامخ كالجبل . وانا مسافر يحثه الليل على الاسراع » .
وكان بغله يتعثر ثم يستعيد توازنه على طريق وعرة خدتها حوافر
الدواب ، وُمدَّت فيها اعمدة خشبية 'ثبَّتت' اطرافها في الصخور على
الجانبيين ، فامست شبيهة بالدرج . وكان يقود البغل رجل عجوز ،
ابيض البشرة ، مستدير الرأس ، وخطه الشيب ، له ساقان هزبلتان ،
وربلتان كربليتي صبي لم يراهق بعد ، بينما كان رجل آخر شاب ، ضخيم
كالغوربلاً ، يسير وراء البغل ، ويشده من ذنبه بكل ما أوتي من
القوة . ولم يستطع الكاتب أن يعلم هل الغاية من شدِّ ذنب البغل هي
ايقافه ام حثه على السير . فبدا له أن ذروة الاتقان في فن السفر هي
شد الدابة الى وراءه والى امام معاً ، وان هذا الاسلوب البارع وحده
يجعل البغل يتقدم على الطريق . فيا خالق العوالم ما اعظمتك ! حقاً ان
اساليبك زاخرة بأسرار لا تسبر غورها العقول ، ولا تدركها افهام البشر .
وكان الدليلان يحمسان نفسيهما بارسال صيحات فيها الكثير من
الاحرف الصوتية ، 'تسمع لها اصداء كلما مرَّ الركب باحد منعطفات
الطريق . اما المشاهد المحيطة بكوستال فقد ذكرته بالتصاوير التي 'تزَيْن'
بها الكتب ، حين يقول الناشر البخيل للمصور : « لا تستعمل في
رسمها اكثر من ثلاثة ألوان » . فلون الارض كان وردياً مائلاً
الى الاحمرار ، والثلج ناصع البياض ، بينما اللون الازرق يمتد في ظلال
الادوية والسفوح ، وعلى جانبي من السماء . وعلى المنحدر القسائم الى
جانب الطريق ، الغابات 'المكسوّة' بالاصفرار تواجه الغيوم كأنها تنظر الى
مرآة . اما المنحدر الآخر الواقع تحت الطريق فينتهي الى مجاري مياه

خانت رسالتها في الحياة اذ نضبت مياهها فعدت طرقتاً مليئةً بالحصى ، لا يُعرف خطها المتعرج إلا من شجيرات الغار الوردي النابت على ضفافها . وكانت هناك ، في الجبل ، ساقية من الجليد الاحمر ، تبدو كأنها ساقية من الحلوى المصنوعة بالعنب والكرز ، او كخندق ممتلئ بدم جديد متخثر . وكانت قطعان من الخراف تمر على السفوح العالية ، ولونها ككون الجفاف تماماً ، تتحرك كالاشباح ، وحارسها الكلب لاهٍ بالتهام قطع من الثلج المتصلب . اما الرعاة فقد غدوا كالمومياءات المستقرة في هذا المكان منذ خمسة آلاف سنة . وجدت جرادات عديدة على دغلات نابثة بين الثلوج كأنها تحشى أن تصاب بالتهاب في الصدر من شدة البرد . وفي الجو ، عقبان كبيرة ، بيضاء اللون ، تنزلق على الأثير ، وتتايل ببثل اناقة الحمام .

وبعد ساعة ، غامت سماء كوستال الداخلية كما غامت السماء الخارجية فوق الجبال ، اذ بدأ يساوره الخوف . لم يخف من الجذام ، بل من لامبالته بهذا المرض ، ومن تصرفه المخالف لتصرفات البشر المألوفة ، ومن عدم شعوره بالخوف . وربما نجمت هذه الحالة النفسية عن رغبته الدائمة في مناقضة الناس ، فاذا به لا يخاف لانه في حالة تخيف الجميع . وقد شبه نفسه بذلك المريض الذي تحدث عنه «رفو دلتون» ، فكان يرى مراحل حياته تمر من دون أن يحياها ، فلا تبدر منه ردة فعل ، فجاء يوماً يطلب الى احد الاطباء أن يعيد اليه شعوره الضائع .

وأحس الكاتب انه دائماً خارج الصف المألوف ، دائماً في حالة تمرد على المجتمع ، دائماً كأنه من سكان «بلاد السباع» ، كأنه من نوع الزعيم الذي أخافه .

أتراه عديم الشعور الانساني ؟

ما كاد يدرك انه غير خائف من الجذام حتى تبين له انه يفتقر الى شيء ، وان احساسه غير كامل . أفيجوز اعتبار « لاشموره »

كسباً؟ لا ريب في انه كسب بالنسبة الى متانة الطباع .
ومها يكن من الأمر ، فقد رسخت في ذهنه حقيقة هي أن حرمانه
الخوف كحرمانه الغيرة على نسائه . وهذا أمر يشرفه بمقدار ، ووفقاً
للمناسبات ، إلا انه خسارة على كل حال .

ودبت الحرارة قليلاً في نفسه ، اذ تحركت فيه الغريزة للقيام بعملٍ
غايته التعويض عن هذا النقص ، فقال في نفسه :

« يمازح الناس الطبيعة ، ويكيفون لها الركل واللكم ، فتدعهم يفعلون
غير مبالية بهم . ويعيدون الكرة فيتحرشون بها ، وهم لا يدرون انهم
يشدون ذنب لبوّة « سييل »^١ ، فتضربهم بقائمتها ، فتشقّم شقاً ، وهذا
حق وعدالة .

« ويتحرشون بالبحر ، ويزعجونه بانواع من الفنجج والدلال ، ويسرون
على سطحه بالسفن ، ويمخرون عبايه بالغواصات ، وتستمر هذه المداعبة
سنوات ، ثم تغضب اللجة وتبتلع اللاعبين معها ، وهذا حق وعدالة .

« ويتحرش الطيَّار بالسماء ، فيأتي يوم لا مناص منه ، تتضايق فيه
السماء من هذا البرغوث الصغير الذي يزعجها ، فتتخلى عنه ، وتسقط
الطائرة حطاماً ، وهذا حق وعدالة .

« وقد عاقبتني الطبيعة بالشيء الذي تحديتها به ، اذ كانت شهواتي
دائماً من النوع الذي يدفع المرء ثمنه من جسده : تنقلت بهذه الشهوات
بين الحرب ، والارياق الافريقية ، والحب ، والمعاشرات الخطرة . وها أنا
أدفع الثمن الآن . وفي قصة فاوست ، امتلأ جسم مفيستو^٢ بالقروح لأنه

١ - سييل : احدى ربوات الاساطير اليونانية ، وهي ابنة السماء ، وإلثة الارض ، وام
جوبيتر ، وزوجة ساتورن اله الزمان . كانت في اعتقاد المؤمنين بها تمثل قوى
الطبيعة .

٢ - الشيطان في قصة فاوست للكاتب الالماني الشهير غوته ، وقد سبقت الاشارة اليه .

نظر طويلاً الى أفقية الملائكة .

« فمن المدهش الفاضح حقاً ان لا اكون قد أصبتُ بالجدري ما دامت حياتي كانت حافلة بالمجازفات ، ناهيك بان شخصيتي كانت تقمطر الى الشعور بخطر المرض . كنت أشعر بنقصين : جهلي لمرض الجدري ، وعدم مثولي أمام محكمة الجنائيات . اما الآن فقد اكتسبت ما استعيص به عن كل نقص .

« ويا له من درس بليغ ، اذا تُقدّر لي أن أشفى !

« درس بليغ ؟ دعنا من هذا المزاح !

« فلو شفيت لعدت الى سيرتي السابقة بكل ما فيها . فيا للانسان ،

ما اغرب اطواره ! »

وبدت امامه قسبة خيرية حمراء التراب ، تسودها الكتابة التي تسود كل عظمة منهارة . وكانت الغريان تحوّم في الجو مرسلّة صيحات تشبه مواء ذكور القطط ، كأنها تحسب الغابات الراقدة تحتها قطعاناً جاء بها القدر، ويُسمع لحفيف أجنحتها صفير خافت موزون كهاث كلب متعب . فاستأنف كوستال حديثه مع نفسه قائلاً :

« اني مصاب بالجدام كاللوك والباباوات ، وكالغزاة الذين بسطوا سلطانهم على العالم الجديد . ويا للعجب ، فالصفة الموروثة لا تخلو من الجمال حتى لو كانت مرضاً !

« انه مرض مقدس » . فالليونانيون الذين أُصيبوا في حقبة من تاريخهم بمرض عصبي شامل قدسوا الجدام مرضاً الهياً . وانه لجدير بهذا التكريم ، شريطة ان تكون له القوة الكافية ليثبت في مرتبته السامية .

« ولنبحث عن عطاء المجدومين في التاريخ .

« إبتعد عن الجماعة » . هذه هي العبارة المشحونة بالكراهية التي كان يوجهها الاسرائيليون الى المجدوم في العهد القديم . فإين كنتُ انا طيلة

حياتي؟ أما امضيت ايامي بعيداً عن الجماعة ؟
« أسير وعلى ردائي صورة قلب كالمنبوذ في القرون الوسطى . وهو
رمز القلب الذي « ليس في صدري منه أثر » ، على حد قول النساء .
وإذا كنت مخدّر الجلد لا اشعر بالألم ، فهذا رمز آخر للخدّر المعنوي
والخلقي الذي اهتمتني به النساء تهمة صحيحة جزئياً . لكن ما
لنا ولهذه الثثرة . اني غريب عنها لا ادرك منها شيئاً » .

ومرت جماعة من الغلمان مغممي الرؤوس كالصبية اليونانيين على ارض
اليونان التي احرقتها الشمس . ثم مرت فتيات صغيرات سافرات ، يضعن
ايدهن على النصف الاسفل من وجوهن كلما التقين مسافراً غريباً . كنّ
متعافيات ، متينات الابدان ، وعلى جانب كبير من الوقاحة ، فراح
كوستال يقول في سره :

« يا لهنّ من قدرات ملعونات ! لا اعني خديجة ، ولا جانتون ، ولا
مارينا ، ولا وردة ، بل الاخريات . منذ هذا اليوم ستبدأ الرواية
المضحكة : ساعطين جميعاً مرض الجذام ، لعنة الله عليهن . لي في ذمة
الدهر بقية من ايام المتعة والملاذات ، فالثمي بقعي الجذامية ، باصغبرتي
الفاتنة ، انها بقع خمر .

« يبحث المجدومون عن النسيان بالانغماس في اللذات الجنسية » . هذه
عبارة اخرى وردت في كتاب الطب . فلينقل المريض العسوى الى
البشرية جمعاء اذا شاء القيام بعمل خالد في الحياة . لا اذكر ان قرأت
قصة مسلول كان يبصق في حساء زوجته كيلا يموت وحده^١ .

« تعجبت لاني لم اكن اتألم ، ثم تبين لي ان ذكريات الآلام التي
سببتها للأخرين كانت تعصمني من التألم .

« ليت الجنس البشري ينظفني معي ، لاعزي نفسي ، وانا على فراش

١ - روى هذه القصة الدكتور فيسنر . - المؤلف .

الموت ، بان وفاتي لا تفقدني احداً !

« اني واثق كل الثقة باني ساتمجب بعد حين واسائل نفسي كيف استطعت ان اعيش في ما مضى سليماً من الجذام . فالانسان يألف كل شيء . ولا يخامرني ريب في انه يعتاد حتى الاقامة في جهنم .

« لا يجوز أن انسى انتاجي الادبي ، فايوب المجدوم على مزبلته يلتقي والسيدة رولان في مركبة الاعدام في طريقها الى المقصلة وهي تصيح : « من يعطيني قلماً اكتب به خطي ؟ من يساعدني على وضع هذه الخطب في كتاب ؟ » وآخر ما فكر به ايوب واثار اسفه انه لم يكن يملك قلماً ، وإلا لكان سيد اهل القلم .

« لو كان لي متسع من الوقت لكتبت رواية عن الجذام ، ولكتبت « كلماتي الاخيرة » طبعاً . ويكفي أن يكتب المرء « كلماته الاخيرة » ليتعد عنه الموت .

« ما اجمل مؤلفاتنا مجلدة يجلد مجذومين معقم ومطهر ! فالجلود المصورة في كتاب لوبل جميلة الألوان . واملئ كبير بان يكتب الناس اطروحات لشرح احوالنا ، فالمجدومون يلهون حمية الكتاب . لذلك كتب إكزافياه دي ميستر « مجذوم مدينة اوست » ، وكتب هويسمن « القديسة ليغدوين دي شيدام » ، وكتبت رواية « الفتاة فيولين » وهي

١ - بينما كانت السيدة رولان في مركبة المحكومين بالاعدام ، في طريقها الى المقصلة لينفذ فيها الحكم ، طلبت قلماً وورقة لتكتب انطباعاتها ، فرفض طلبها .
- المؤلف .

٢ - جوريس كارل هويسمن (١٨٤٨ - ١٩٠٧) كاتب فرنسي تطور من حب الطبيعة الى التصوف المسيحي .

قصة مزيفة الابداع ، انتجها عبقرى مزيف .
ورأى كوستال أن النهار يكاد ينتهي ، فقال في نفسه : « ما قيمة
تبدل احوال الطبيعة بالنسبة الى التبدل الذي يجري الآن في
جسدي ؟ »

وفي الافق أخذت الجبال تتقلص وتغرق في الظلام ، فلا ترى العين
منها سوى الثلوج على القمم ، كأنها أكفان معلقة بالسما . ثم حدث تبدل
آخر ، فبدت الجبال بلون العنب والورد ، وفي الذرى المكروسة لشعائر
الطبيعة بدأت ذبيحة الشمس اليومية .

وكان الصمت شاملاً ، تاماً . لم يبقَ هناك حيوانات ولا
طيور ، لم يبقَ شيء من الحياة سوى حركة الرياح التي لا حدود
لها ، وهمس الشاوج الخافت ، او صوت حجر ينسلخ عن السفح ،
ويتدحرج الى الطريق ، او حفيف غصن ميت يسقط من شجرة كأنه
انذار .

وفي احدى الهنيئات ، انفتحت فجوة في الغيوم وانحدر منها
سلمٌ ذهبي الى الصخور الارجوانية . وفي هنيئة اخرى بدت في
الوادي بحيرة بنفسجية اللون تجعل الناظر اليها يتساءل هل ثمة حديقة
بنفسج ؟ واخيراً هبط الظلام فجأة ، وخرجت طغيات الجن من الجبال
السود .

ولما أيقن كوستال انه اصبح قريباً من سوق الاثنين ، لا يفصله عنها
إلا مسافة كيلومتر واحد ، ترجل عن بغله ، وتعشى بما كان مضيفه قد
زوّده به من الفواكه والحلوى واللبن . وما إن وصلت هذه المواد الى
امعائه حتى سامت في تبديل نظرته الى الحياة .

حين اكتشف البقعة في معصمه ، واجه الخطر المهدد بهدوء لأنه كان
مسنوداً بما تناول من طعام الغداء . ولما تعب ، وشحّت حمويته لصعوبة
السفر في الجبال الوعرة ، وبدأت معدته تفرغ ، انتابه هوس مضطرب مضاد

للحقيقة الرهيبة ، فلجأ ، في دفاعه عن نفسه ، الى الوسيلة التي يلجأ اليها كل انسان في مثل هذه الحال ، وهي تضليل الفكر بالادهام . فهكذا اقتنعت اندريه هاكبو نفسها بانسه يجبها ، اي انه انقلب الى نقيض حقيقته ، كما حاول هو اقتناع نفسه بضرورة الزواج يوم ذهب الى المكتبة الوطنية وراح يبحث عن عادات الزواج وتقاليده في التاريخ ولدى جميع الشعوب .

ان الميل الى شيء ما ينقذ الانسان من اخطار كثيرة . ففي التجارب ، يلجأ رجل المذات الى لذاته . اما الرجل الواسع الخيال فيكفيه ان يتصور ان اشخاصاً عظماء من الذين احرزوا اعجابه قد مروا بمثل التجربة التي يعانها ليسهل عليه احتمالها . وقديماً قال الحكماء : « ليست الاشياء بمجد ذاتها هي التي تبعث الاضطراب في النفس ، انما باعثه هو الآراء التي نكوّنها عن هذه الاشياء » .

هذا القول صحيح ، لكن الآراء التي نكوّنها عن الاشياء تساهم احياناً في انقاذنا من الاضطراب .

وكان كوستال قد حاول ان يبني حوله كوناً رومنتيقياً يخفف من عذابه ، فأفلح في محاولته لأن الطبيعة البشرية على ما يرام من المرونة وسهولة التكيف ، ويكفي ان تُعالج بشيء من الذكاء لتتقن صاحبها من معضلات عديدة .

اشتدت عزيمة كوستال بما اصاب من الراحة ، وبما تناول من الطعام ، فعاد الى هدوئه السابق ، وعادت فضائل الجذام المزعومة تحتل في ذهنه المقام الذي كانت تحتله من قبل ، فخيّل اليه ان هذا المرض يكسبه تجارب جديدة جديدة بالاهتمام ، ويساعده على استغلال ما تبقى من حياته استغلالاً ذكياً مجدياً ، ويوجّه اهتمامه الى الاشياء المهمة والاساسية .

وهكذا كان مفيستو يرى جسده مكسوّاً بالقروح فيقول : « ان

الاجزاء النبيلة من هذا الجسد ما تزال سليمة .
وفي هذه الاثناء كانت كوستال ينحدر على آخر سفح من الجبال
ليعود الى البيئة البشرية ، الى هذه البيئة الناعمة ، العذبة ، فانتابه تأثر
عميق أحس بمثله يوماً في باريس . كان ذلك في شهر آب المحرق ، في
ساحة البورصة ، وقد دنا منه بائع متجول ، وقدم له اضمومة صغيرة من
البنفسج ، فسرتي عنه ، لأنه تنسّم شيئاً من برود الشتاء وهو في غمرة
السير .

وجاشت في ذهنه طائفة من الصور ، فخيّل اليه ان الانهار تجري
مرسلة هدير مدفعية بعيدة ، وانها تتسرّب الى كل مكان مخفية عن
الانظار .

لا ، لم تكن مخفية .

فقد تجسدت اوهامه حتى رأى سيلاً ينحدر في الليل متعرجاً
كأنه افعى أصيبت بضربة عصا ، ورأى شلالات عظيمة بغزارة
دقتها ، وارتفاعها ، وشموخ القمم المنتصبة حولها ، تنساب خافقة
كالرايات الطويلة اللامعة ، او كذيل جواد عربي نشرته سرعة
العدو .

وكان القمر قد أطلّ مصحوباً بالزهرة الصغيرة الى جانبه ، كما يطل
الثور مصحوباً بالعصفور الذي يرافقه ليتغذى من روثه .

وكانت مجموعات النجوم تلمع في السماء ، على الجانب الآخر من الجبل ،
كأنها قطع من البلور الثلجي في وهج الشمس . اما السماء فكانت مزدانة
بالصور ، مكللة بالانفاس والاصوات !

على مرأى من أضواء سوق الاثنين ، أحس كوستال بكلب يجري
وراءه ضارباً بقوائمه حصى الطريق .

وعلى مرأى من أضواء سوق الاثنين ، سمع صوت طائر أضناه الأرق ،
فأرسل صيحة فيها الكثير من معنى التواطؤ .

وعلى مرأى من أضواء سوق الاثنين ، خطرت في بال كوستال
فكرة غريبة ، إلا انها مفعمة بالهدوء والسلام ، وهي : « مها
يكن من الامر ، فاني اموت وحدي ، ولا أرى أحداً يموت
سواي » .



مرّ كوستال امام باب المستشفى في مراكبش ، ولم يدخل . فقد خذلته قواه ، فقال في سره : « نحن الآن في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة . وفي الساعة التاسعة والدقيقة العشرين سأعلم انه قضي عليّ وعاد ادراجه مسرعاً ، وعلى وجهه ابتسامة تم عن مزيج من الحزن والشجاعة ، فدخل وطلب مقابلة لوبل .

ولما جاء لوبل ، دخلا الى مكتبه ، فخلع كوستال سترته ، وشمّر عن معصمه ، وقدمه للطبيب دون أن يفوه بكلمة . وكان يبتسم ، إلا أن ابتسامته كانت تختلف عن الابتسامة السابقة . فقد بدا هازئاً كأنه يقول : « اعترف ، يا دكتور ، بان هذه الحادثة مفاجئة ، وبانك لم تكن تتوقعها ! »

وانحنى لوبل على البقعة فاحصاً ، وراح ينظر اليها بامعان ، بينما الكاتب ينظر الى لوبل بقوة قائلًا في سرّه : « ها هي اللحظة التي سيلجأ فيها الى الكذب . اذا كنت لا استطيع أن اقرأ ما يحول في خاطره ، فلست جديراً بأن اكتب روايات فيها دروس نفسانية » . غير أن وجه الطبيب ظل مغلقاً في غموض مطبق .

وبعد قليل تكلم لوبل فقال :

— أليس في جسمك بقع اخرى ؟

— لا ، لم أرَ شيئاً في الاجزاء التي تمكنت من فحصها .

وبالفعل ، لم يجرؤ كوستال على فحص نفسه في الفندق ، خشية أن يكتشف بقعاً جديدة ، كالمصدور الذي يخشى النظر الى بصاقه .
واستطرد الطبيب قائلاً :

— ألا تمتخط اكثر من المعتاد؟ ألا تحس بحكة في اطراف اصابعك؟
— لا .

وساد بينها صمت ثقيل . فجعل كوستال يخاطب نفسه قائلاً :
« ها انا في اللحظة الحاسمة الرهيبة . ما عساه يكون الاسلوب الذي سيبتكره لاطلاعي على الحقيقة ؟ سيقول لي ، ولا ريب : « لا ارى دليلاً ثابتاً ، لكني افضل أن تباشر معالجة نفسك ، وربما ... »
وما كاد كوستال يصل الى هذا الحد من تفكيره ، حتى رأى لوبل يضع يده على معصمه . فاستولت عليه الدهشة ، وقال في سرّه : « ماذا ؟ انه يجازف ليشرحني ! »

وأحسّ بأنه يصفّر داخلياً ، ثم جعل يردد بجرارة ، وبشعور انساني صرف ، الصلاة المدونة في كتاب القداس : « قل كلمة واحدة فتشفى نفسي » .
قال لوبل :

— أشكرك على مجيئك اليّ ، فهذه بادرة طيبة . إلا انك لست على موعد معي ...

وساد الصمت برهة ، ثم استطرد لوبل قائلاً :
— لا اريد أن تنتظر طويلاً ، لكني لا استطيع أن استقبلك قبل ساعة . أليس لديك عمل في المدينة تقوم به ثم تعود ؟
— لا ، ليس لدي ما يشغلني في مراكش .

وكان كوستال يتكلم بفتور ، وقد تجهّم وجهه . ثم قال في نفسه :
« يا له من حيوان افراثة رأسه عطرة كرائحة جميع الاطباء . أجل ، لم يبق عندي ريب بائي مصاب بالجذام . فلو لم تكن البقعة التي رأها في معصمي تثير الشك لكارت هزىء بي . وما دامت تثير الشك ، فاني

مصاب ، وقد انتهى الامر » .

وجعل لوبل يحسب دقائق وقته بصوت مرتفع ، ثم قال :
- استطيع استقبالك بعد اربعين دقيقة . ألا تريد القيام بجولة في
المدينة ؟ ففيها مشاهد تسترعي الانتباه بغرابتها ... التي تختلف عن غرابة
برج إيفل ...

فقال كوستال في نفسه : « سيدفعني هذا الرجل الى الجنون باحاديثه
عن برج إيفل ! » ثم سار الى الباب عملاً بإشارة الطبيب ، وخرج .
ولما وصل الى الشارع جعل يُسائل نفسه :

« أيجوز للطبيب أن يتحدث عن المشاهد الغريبة مع رجل سيعلم
بعد اربعين دقيقة انه مصاب بالجذام ؟ ولم لا ؟ فاحد الاطباء طلب الى
كاتب مرموق أن يوقع على بعض كتبه قبل أن يطلعه على انه
مصاب بالسرطان .

« قال لوبل ان « بادرتي طيبة » لاني ذهبت اليه . فلو قرأ المديح
الذي كتبه عني اشدُّ اعضاء الاكاديمية الفرنسية بلاهةً في احدى
مقالاته ، لأستقبلني مرحباً ، وخاطبني بقوله : « يا استاذي العزيز ! »
إلا انه لا يعرف شيئاً من اخباري . ولأنه لا يستطيع تكوين فكرة
عني إلا بالنظر الى شكلي الخارجي ، فقد اكتفى بالقول ان « بادرتي
طيبة » . وهذا يعني اني مخلوق نافه في نظره . ولا ريب في اني نافه
وغبي ، لأنني كنت غيبياً مع سولانج ، وغيبياً مع اندريه هاكبو ، وغيبياً
مع خديجة » .

لن ينسى كوستال ابداً تلك الدقائق الاربعين التي حاول، خلالها، قتل
الوقت متجولاً في مراكش . فقد كان من المحتمل أن تقضي على رغبته
في الذهاب الى افريقيا مدى الحياة ، فجعل يقول في سره : « في بعض
الاحيان ، يكون العالم مسرحاً لحدث مجهول وقريب الوقوع : في الفترة
السابقة لنشوب ثورة ، مثلاً . اما الان فالكارثة تسير في جسدي .

وليس في وسعي إلا ان أراها تتقدم وأنا عاجز عن الفرار منها . ولا بد لي من الصبر حتى تأزف ساعة المسدس . لكن ، أستطيع الانتكال على هذا السلاح ؟ ففلان وعلان اللذان حاولا الانتحار ، وكانت لهما ، بعد ، بقية من امل واخفقا في محاولتها ، لم يجرأ على إعادة الكرة منذ ادركا انها فقدا كل امل . وقد اعترفا لي بهذه الحقيقة .

وكان اضطرابه يزداد بنسبة انقضاء الدقائق الاربعين ، فتذكر الرفيق الذي اتصل بالطبيب هاتفياً من المقهى ليعرف نتيجة فحص دمه على طريقة « فاسترمن »^١ ، وحرص على ان تكون في متناول يده كأس من الروم ليجرعها فوراً اذا كانت نتيجة الفحص ايجابية ، وأحسن بانه مهدد بالاغماء .

ولما انقضت خمس وثلاثون دقيقة ، لم يعد كوستال يطيق صبراً ، فدخل المستشفى .

سار به احد المرضين في قاعة مليئة بالآلات والاجهزة الخفيفة ، فقال في سره : « يا لهم من مبذرين ! فلو اشتروا آلة واحدة من هذه الآلات لكانت كافية لاكرامي على الاعتراف بكل شيء » ، اذ خيل اليه انه مجرم يقوده الجلاد الى غرفة التعذيب . وهذه حال من تستولي عليه الهموم .

وبأشر لوبل فحصه ، فدرس في انفه قطعة معدنية ، وداعب احدى يديه ببراعة ، وجعل يضرب احدى ركبتيه ضربات خفيفة . من تلك التي تُضحك الاولاد ، ثم فحص البقعة وقال للكاتب : « اغض عينيك » ، وراح يلامس البقعة وجوراها بدبوس قائلاً : « أشعر بشيء ؟ »

١ - يعني مرض السفلس ، فأوغست فون فاسترمن المشار اليه طبيباً الماني (١٨٦٦) - (١٩٢٥) . يعود اليه الفضل في ابتكار طريقة كيميائية لاكتشاف جرثومة هذا المرض .

انه الرجل الذي يعلم ، وفي وسعه ان يكون فظاً ، غليظاً ، عديم الذوق ، قليل التهذيب ، خالياً من الشرف ، لأنه يعلم . اما الرجل الجالس بين يديه ، فهما يكن رفيع الفكر ، سامي الادب ، متفوق العقل ، لا يستطيع إلا ان يقول له : « اني رهن بمشيتك » . والديانات تريد ان يكون الانسان في مثل هذا الوضع امام الكاهن . إلا ان الكاهن دجّال ، بينما الطبيب يعرف معرفة حقيقية .

وكان كوستال رصيناً ، هادئاً ، في استسلامه وخضوعه . فأحس انه تجاوز ... ماذا تجاوز ؟ تجاوز نطاق ارادته ، ولم يعد قادراً على عمل شيء لنفسه .

واستأنف لوبل ملامسته بالدبوس مكرراً سؤاله : « أتشعر بشيء ؟ » فتأثر كوستال وأجاب بلا تفكير ، وكيفيا اتفق له الامر . وكان يخيّل اليه احياناً ان جسمه كله عديم الاحساس ، بينما البقعة وحدها تحس . ولا ريب في ان تخيّلته كان بعيداً عن الحقيقة . ولما عالج لوبل البقعة بالحرارة والبرودة مستعملاً انايبب حقيرة ، مزعجة ، لم يعد كوستال يميّز بين الحارّ والبارد . وهكذا كان في ايام حدائته لما بدأ يتعلم ركوب الخيل ، فكان يشدّ الزمام الى اليسار ، كما صاح به المعلم : « الى اليمين ! » مع انه كان يومذاك عبقرياً ناشئاً .
قال له لوبل :

– اخلع ثيابك .

وضحك ضحكة خبيثة ، ثم استطرد قائلاً :

– لو كنت فتاة اسبانية لطلبتُ اليك ان تحتفظ بثيابك التحتانية .
فاني لا أعرفّي الاسبانيات كليا لدى معاينتهن ، لاني لا احب ان يرى المرضون الافريقيون مقدار القذارة التي تعيش فيها الاوروبيات .

ولما فرغ الطبيب من فحصه ، قال للكاتب :

– أمضطرُّ أنت الى البقاء في المغرب ؟

- لا .

- اذا ، عندئذ الى باريس حالاً . فالفحص الدقيق الذي يجب ان اجريه عليك يستغرق بضعة ايام . ولا ارى لزوماً لمباشرة هنا . فاذا كنت بحاجة الى معالجة - وهذا ما استبعده جداً - فمن الافضل ان تبدأ هذه المعالجة في باريس ، لأن ادواتنا هنا ليست على ما يرام .
قال كوستال في سره :

« لم يقل لي شيئاً من هذا لما كان الامر متعلقاً بمخديجة ، مع اني توصلت اليه ان يعالجها كما يعالجي تماماً . انها في اعتباره افريقية ، اي من فصيلة الحيوانات الحقيرة ، وليس في العالم قوة تستطيع انتزاع هذا الاعتقاد من ذهنه . »

ولم يخطر في باله ان لوبل لم ينصحه بالذهاب الى باريس إلا للتخلص منه ، بعد ان تبين له انه من الاشخاص المزعجين .
وفي نهاية المطاف ، تكلم كوستال بلهجة العاشق الخجول الذي يسأل خليلته : « أتحييني؟ » وقال للطبيب : « والنتيجة؟ »
فأجاب لوبل :

- يتعذر عليّ كلياً ان اضع تشخيصاً لحالتك الآن . فالفحص السطحي الذي قمت به يسمح لي بالقول انك سليم ، لأنني لم اكتشف اقل دليل على انك مصاب بمرض هانسن . فهذه البقعة وحدها تثير الشك ، وقد تكون نوعاً من بهق الحجر ، او الاشنة ، او مرض جلدي آخر من ألوف الامراض . فنحن في مراكش فردوس الامراض الجلدية . ويبدو لي انه من المستحيل ان يظهر الجذام بعد مرور ثلاثة اشهر على انتقال العدوى . لم اعرف قط حالة من هذا النوع ، ولم اسمع بعدوى لها هذه السرعة الصاعقة . اعترف بأننا لا نكتشف عوارض الداء بسهولة في اثناء الفحص الاول ، وبأن هذه العوارض لا تظهر إلا نادراً في المرحلة الاولى منه . فالمرضى الذين عرفناهم حتى الآن قد بلغوا حداً معيناً من

تطوّر الداء فيهم . فاذا كنتَ مصاباً فلا ريب في ان اصابتك تعود الى عدوى سابقة . وربما كانت خديجة تحمل هذا المرض منذ بضع سنوات دون ان تظهر عوارضه عليها .

وكان ككوستال على يقين بان لديه اسئلة عديدة ومهمة يودّ ان يطرحها ، إلا انها غربت كلها عن ذهنه لشدة الاضطراب الذي استولى عليه منذ اربع وعشرين ساعة ، إن لم نقل منذ ثلاثة اشهر . فقد فوجيء بمظاهر الداء ، فأظلم ذهنه واعتراه الارتباك .

ودخل احد المرضين فخطب لوبل همساً . وكان الباب مفتوحاً ، فرأى كوستال بعض المرضى الاوروبيين في غرفة الانتظار ، وقد جلسوا متلاصقين على مقاعد خشبية ضيقة ، كالمعتقلين في مخفر الشرطة . وكانت بينهم ايضاً عظمات الصدور كأن هنّ ثلاثة اثناء او اربعة ، يحملن اطفالاً يعبون اللبن من هذه الاثناء جميعاً ، كما تشرب الانهار من البحر . وكان بينهم ايضاً اسبانيون يسكون قبعاتهم باصابع مكسوّة بالشعر . اخذ لوبل سلياً صورة كانت على الطاولة ، ورفعها الى النور وقال لكوستال :

- انظر ، انها صورة جميلة ولا ريب !

وسأله الكاتب :

- ما هذا ؟

وقد ساءه ان يهتم الطبيب بشيء آخر غير مرضه ، وان يهمله بمثل هذه السرعة .

فأجابه لوبل :

- هذه صورة سرطان في المعدة .

- وهل قضي على صاحبها ؟

- طبعاً لم يبق له امل بالشفاء . لكن ألا ترى ان هذه الصورة في

منتهى الجمال ؟

قال كوستال وهو يلبس بنطالونه :

- الطب شيء حسن ، غايته الانقاذ ! لكن انقاذ من ؟ اذا عرضت علينا قضية جزائية ، فلا نكاد نرى المدعي ، او المدعى عليه ، حتى يخفق قلبنا لعدالة قضيته ، ثم يتبين لنا ان القضية برمتها غير جديرة بالاهتمام . وهكذا المرضى ، فكم بينهم يستحقون الشفاء ؟ انهم يبعثون عطفنا عليهم وهم في حالة المرض ، لأن شدة الداء تحمد شدة بلاهتهم . اما اذا ابلتوا من مرضهم ، فلا يلقون منا إلا النفور . وما عساهم يعملون بهذه الحياة التي انقذناها لهم ؟

- ما رأيك لو تبنى الاطباء وجهة نظرك وعملوا بها ؟

- أعتقد أن القتل طبيعياً تجربة رهيبة تراود أذهان الاطباء ... كنت يوماً في سفينة تمخر العباب ، وتغالب الامواج ، فخطر في بالي أنها لو غرقت لسهل علي الموت لأني أموت مع مائة وخمسين نسمة .
- أنك لمأزح !

قالها لوبل ضاحكاً وهو يعتقد أن لا وجود لهذا الشعور العجيب إلا في صدور الذين يكتمونهم ، ثم استطرد مبتسماً :

- لا ، لا ! أن حالتك غير مرضية .

وحاول كوستال أن يربط عقدة رقبته ، فما استطاع ، لأنه لم يجد مرآة في مكتب الطبيب ، فقال له لوبل :

- أنظر الى زجاج النافذة .

وكانت احدى درفتي النافذة مفتوحة في الجانب المواجه للشمس تقوم مقام المرآة ، فقال كوستال :

- كنت يوماً على سفر في احدى المدن ، فاضطرت الى معالجة نفسي بحقن في العضل . وبعد ثلاث حقن علمت أن الطبيب الذي يحقني كاثوليكي راسخ الايمان ، وعضو في جمعية مار منصور دي بول ، يتناول القران المقدس كل يوم أحد . وأعترف لك صراحةً بانى خشيت أن أتابع

المعالجة على يده .

— لا أفهم قصدك ...

— لو علم أني عدو لدود للكاثوليكين ... لخطر في باله ان يحقني بما يشاء .

— لك رأي عجيب في الكاثوليكين والأطباء ا

— روى القديس بولس يوماً إحدى كلمات يسوع وعلقت عليها قائلاً :
« ... ذلك أنه يعلم ما في نفس الانسان » . وأنا أيضاً أعلم ما في نفس الانسان .

أجاب لوبل وهو ينهض واقفاً :

— تتى بان الأطباء أوسع علماً من الكتاب في هذا المجال .
فقال كوستال في سره :

« ماذا ؟ أيعني نهوضه أنه يصرفني من حضرته ، مع أننا وصلنا في مجئنا الى نقطة نستطيع أن نجد فيها أشياء أساسية ؟ أتراه لا يعطف عليّ ؟ من الضروري أن تقوم بين الطبيب والمريض علاقة متينة » .
أين هم الأطباء الأعزاء الذين يعالجون مجاري البول ؟ أنهم يذوبون لطفاً ، ويربتون على أكتاف مرضاهم بحجة ظاهرة ، وينادونهم بـ « يا عزيزي » ، أو « يا أخي » . وفي المقابلة الأولى ، بينهم وبين المريض ، يروون له نوادر قدرة ليضحكوه ، ويرافقونه الى الباب مازحين متندرين على الطريقة الفرنسية الخالدة . واذا تواتت زيارته ثلاث مرات أو سبعا ، أصبح من الأصدقاء وأهل البيت ، ولا يكاد يدق الباب حتى يستقبله الخادم قائلاً : « أطمئنك الى أن نتيجة الفحص سليمة » . فمع أناس من هذا النوع يصبح المرض ضرباً من البطولة ، وتصبح التعقبة مكرمة تجعل صاحبها يفكر بأنه أحرز تنوياً في الجيش .

أما لوبل فالمرض الذي يزوره يبتعد عنه ويحسب نفسه لا شيء ، بل يحسب نفسه مهلاً ، مردولاً ، كالكاتب اذ ينصرف من إحدى دور

النشر .

وكان كوستال راسخ الاعتقاد ان الطبيب يستطيع ان يحقن مريضه بما يشاء . ولأنه عهد الى لوبل بان يعالج خديجة ، فقد خطر في باله ان يكون كريماً ليكسب عطفه ، فأخذ دفتر شيكاته وقال له :

— يسعدني ان تقبل مني مبلغاً صغيراً بثابة مساعدة للمستشفى .
كثيراً ما يشعر المرء ، حين يدفع مبلغاً من المال ، ان شيئاً في اعماقه يبكي . انه لا يبكي لتخليه عن المال ، بل لاحساسه بان هذا البذل عديم الفائدة .

خرج كوستال من المستشفى وقد بدا التأثر واضحاً على وجهه ، وتعذّر عليه ان يتسم حتى لو تعمدّ الابتسام . وتبلت جبهته بالعرق مع ان الجو لم يكن حاراً ، بل معتدلاً وجافاً . وكان الشارع ، في نظره ، خالياً من الاوروبيين ، والعرب ، والزوج . وقد زالت في اعتباره فوارق العرق ، واللون ، والجنسية ، والطبقات ، فلم يبق سوى فارق كبير يفصل بين نوعين من البشر : المرضى والأصحاء .

وبينما كانت احدى العربات تحمله الى دائرة البريد ليتسلم الرسائل الواردة اليه ، تحدث مع الحوذي عن انواع الأحذية ، واحتدم بينها الجدال ، فغضب غضبة رجل سليم ، وصاح بالحوذي :

— لو تساقط جسدي ارباً ، لما عدلتُ عن اصدار الأوامر ، قبحك
الله !

وهذا يعني ، باللغة الدارجة لدى الأباطرة والملوك : « ان احدى قدمي في القبر ، لكن لي قدماً ثانية لأركل بها قفاك ! »

وفي الفندق أحس كوستال انه في المكان الذي يحتوي فيه المريض بنفسه ، وفي البرهة التي تمكنه من لطم وجهه ، والتي يسهل خلالها للطبيب التمييز بين المرض والمعافية ، كما يسهل للنظارة ان يميزوا المنتصر من المغلوب بين رجلين في حلبة الملاكمة ، — في البرهة التي يشعر

فيها الراكض ان قواه خارت وخذلته .

تبادرت هذه الافكار الى ذهن كوستال ، فراودته رغبة طاغية في مطالعة الكتاب الطبي الذي يتحدث عن الجذام . إلا انه خشي ان يفتحه وقال : « سأطالعه في وقت آخر حين اشعر بتحسن حالتي الصحية ، واكتسب مزيداً من القوة لمواجهة الاشياء المريعة التي سأجدها فيه » .
وقف الى جانب الطاولة وعيناه مفتوحتان على الفراغ ، وقد استولت عليه الحيرة وخارت قواه اذ تبين له انه غير خالد .

أتراه كان ذلك الرجل نفسه الذي نظر بالامس الى بقعة الجذام في معصمه وهو هاديء ، رابط الجأش ؟
أتراه يعاني كابوساً مخيفاً ؟
كيف استطاع مواجهة الكارثة بلا زعر ؟ وكيف يتابع حياته الآن ؟

أذهله صموده الهاديء أمام الموت ، بقدر ما أذهلته قدرته على العيش بعيداً عن ابنه خصوصاً في الايام الاخيرة .

الانسان لفض معلق عويص . هذه حقيقة ندرکہا في الفوص الى اعماقنا ، لا في درس الآخريں . فكيف يستطيع المرء ان يواجه بهدوء عجزه عن متابعة التمتع بهذا العالم ؟

كثيرون من « الابطال » و « الحكماء » و « القديسين » وسواهم يواجهون الموت بقوة ، غير ان ما يسمونه : « الموت الكريم » او « الأنوف » ، لا يخرج عن كونه غلاظة عليا .

إيه ! ان مختلي العقول وحدهم يرتكبون هذه البلاهة . وربما كانوا من الذين لا يرون في الحياة سوى التفاهة والسخف . وليست المأساة في فقدان الحياة ، بل هي في فقدان السعادة . لولا السعادة لما كان الموت مخيفاً . هذا هو العقاب الاكبر الذي ينزله القدر بالسعادة . هذا انتقام سكان « وادي الدموع » . فالطريقة المثلى لمواجهة الموت بلا خوف هي القرف

من الحياة .

دفع كوستال ثمناً باهظاً لسعادته ، لأنه تنعم بالحياة تنعماً جنونياً ، وأراد المزيد من الملذات . فرؤية الوجوه الجميلة تجعله جباناً ، وكلما وقعت عينه على احد هذه الوجوه الالهية ، ازداد نفوره من الوجود ، وقال في نفسه : « كيف يجوز ان لا أرى هذا الوجه مرة اخرى بعد اليوم ؟ »

تذكر ، وهو في هذا التأمل ، جملة كتبها في احد مؤلفاته ، وهي : « لن اموت ، فشواتي تربطني بهذه الارض » . إلا ان شهواته كانت تطرحه خارج الارض ، فيتوسل اليها لتبقيه حيث هو ، لأنه لا يريد ان يتلقى إلا منها ، ومنها وحدها ، الخير كله ، او الشر كله .

وتحوّلت تأملاته الى انتاجه الادبي . قال بيروت في مثل هذا الموقف وهو على فراش الموت : « اني أخلف للعالم شيئاً عزيزاً عليه » . اما كوستال فكان يعلم انه سيخلف للعالم انتاجاً ما أثار في النفوس سوى الاستنكار والاحتجاج .

في اليوم السابق ، حسب ان اربع سنوات من الحياة تكفيه لانجاز الاعمال التي باثرها ؛ اما الآن فقد ادرك انه وامم ، ففي الرعب الدائم امام الموت ، وفي الآلام الجسدية ، والضعف المتزايد ، يستطيع المرء ان يكتب صفحات متفرقة ، لا ان يبني مؤلفاً راسخ الدعائم ، متين البنيان .

وإذا ، فسيزول من الوجود تاركاً للناس من بعده صورة ناقصة عن حقيقته ، وستكوّن عنه آراء تحط من قدره لأنه كان بحاجة الى بضع سنوات من الحياة فلم يحصل عليها .

وكم سيبعث زواله من السرور في نفوس زملائه ا ان هذه السمات وحدها يجب ان تشدد عزيمته ليبقى في قيد الحياة .

إلا ان تألمه من سرور الزملاء كان في نفسه أخف من أسفه على
الم لذات التي سيقدها ، ومن أسف آخر ... هو الانفصال عن برونيه .
ففي تلك الساعة العصبية اتجه فكره الى ملذاته ، والى عمله الادبي ،
ثم اتجه الى ابنه ، اي الى الاشياء الثلاثة التي استقلت باهتمامه طيلة
حياته .

وتمثلت صورة برونيه في خياله فجعل يقول في نفسه : « ما الذي
سيحل به ؟ ما يكون مصير امرىء لا يجد من يحبه ؟ » وكانت الضربة
التي نزلت به قاسية موجمة حتى انه وضع يده على عينيه .

هذه سنة الطبيعة ، لا تحول ولا تزول : فالحياة في مفهومها الاسمي
ان تظل خالية من الألم . لكن يكفي ان يتعلق المرء بشخص ما
لتعرق روحه في القلق والعبودية . وما كادت هذه الفكرة تخترق في باله
حتى قال بصوت مرتفع : « من القضاة ان يجب المرء احداً من الناس !
لماذا أُنجبت هذا الفتى ؟ لولاه ، ولولاه وحده ، لاجتزت الحياة كتنين خالٍ
من العوار ... »

وكان قد اعتاد ان يدون فوراً كل ما يحدث في نفسه تأثيراً عميقاً ،
فكتب على صفحة بيضاء من احدى الرسائل التي وصلت اليه منذ قليل :
« أتذكر ذلك اليوم من نيسان الماضي ، حين ذهبت الى « كان » لأرى ابني ،
فنزلت في (لك ان تضع هنا اسم فندق فخم يُحظر في بالك) ، لأن
العمال كانوا يقومون بترميم منزلنا . وأتذكر خصوصاً ذلك الصباح البهيج
الذي جلسنا فيه معاً في حديقة الفندق .

« كان كل شيء حولنا مزدهراً ، وقد مدت نافورة الماء ذيلها ، كأنه
ذيل نجم مذنب فوق ملعب كرة المضرب المائل الى الاحمرار . اما الجبال
الخضر ، القائمة في مرمى النظر ، فكانت تحمل بيوتاً بدت كأنها معلقة ،
كأنها تفاحات القدرة والسعادة .

« جلس ابني الى يساري وراح يقرأ نشرة فيها شرح ضافٍ لاحدى .

عشرة وسيلة تقنية تؤدي الى الفرق حسب الاصول الفنية اذا استعمل المرء زورقاً صنعه بيده . كانت رجلاه على كرسي حديدي ، ورأسه على كتفي . ومن حين الى آخر كان يدفني بقوة كجدي يجب النطاح . وكان يغمض عينيه ويتشم ، كلما كانت احدى اللسبات تحمل الى وجهه رشاش الماء من النافورة القريبة ، فأقول له : « ترصّن قليلاً ، فللخدم عيون ... » فيمدّ شفّته كالطفل المدلل في عائلة ثرية ، اي كطفل قليل التهذيب ، ويحجب : « لا تضايقي ! انك تدفع مبلغاً كبيراً من المال هنا ، فدعني اعمل ما يطيب لي » .

وهنا توقف كوستال عن الكتابة .

استعاد هذه الذكريات محاولاً اكتشاف دليل على ان ابنه ليس على ما يرام ، لعله ينفر منه فيهرب من سجن حبه له ، فتبّين له ان برونيه لا يخلو من الغلاظة والسخف ، إلا انه لم يستطع النفور منه ، لأنه يجب . فأيقن انه سيجعل معه حب هذا الفق الى القبر ، كارلوك الفرسان الذين تقوم تماثيلهم على اضرحتهم ، وقد جلس الى جانبهم احد خدمهم المفضلين ، فقال متلهفاً : « لا اااا اريد ان افقد هذه الاشياء الممتعة ! »

وفي هذه اللحظة حدث ما لا يصدق احد : فجميع الاصابع الاخطبوطية والكلابات الخيفة التي كانت قد نبّتت منه لتشدّه الى الحياة ، تراخت فجأة ، وفقدت قواها ثم انهارت . فالانسان اعجز من ان يستمر طويلاً في حالة متوترة ، حتى لو كان سبب هذا التوتر الخوف من الموت . وهذا موضوع يبلى كغيره من المواضيع العديدة .

واكبّ كوستال على الرسائل التي وصلت اليه في ذلك اليوم ، ففضّها وقرأها ، ما عدا رسالة اندريه هاكبو ، فقد وضعها في الملف الخاص بها دون ان يفتح غلافها ، ثم شرع يكتب اجوبته همة واجتهاد . فلاحظ ان خطه في منتهى المتانة والقوة ، فقال في نفسه : « الى متى يبقى لي هذا النشاط ؟ »

ورأى صورة وجهه في المرآة ، فآخذه العجب لأن ملامحه كانت
تدل على القوة والتصلب ، ثم خطر في باله ما وراء هذا المظهر من
تطور المرض الخبيث ، فزجر ساخطاً .
وفي اليوم التالي ، أبحر من ميناء الدار البيضاء .

من

اندرسه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

(أرسل هذا الكتاب من باريس الى مراكش)

١٧ آذار ١٩٣٨

ما أجل السرور البريء الذي تحتفظ به بعض النساء حتى الشيخوخة
إذا احسن اثنين محبوبات ! كنتَ معي في منتهى اللطف ، منذ اربعة
ايام ، لما ذهبنا الى مفترق الطريق في ظاهر البلدة ، قعدتُ من هذه
الزهوة منتعشةً غملاً البهجة كياني .

صفحتَ عن اساءتي اليك في رسالتي الاخيرة ، ففي توجيهي اليوم
اليك كنتُ كالعشبة الطفيلية تعيش على جذع السنديانة وتلومها زاعمةً
ان هذه السنديانة تأسرها وتشوش حياتها .

اني اكنّ لك اصفى الشعور بعرفان الجميل لانك قبلت بان احبك .
فمنذ ثلاثة اشهر عدتُ الى مراسلتك بانتظام . وكان يوسعك ، لو شئت ،
ان تصارحني بان رسائلي تزعجك ؛ إلا انك لم تفعل ؛ اذاً انت راضٍ

عني لانتك تحبني .

الله وحده يعلم مدى السرور الذي يغمر نفسي عندما اكتب اليك ،
والمباهج التي غنمتها خلال الاشهر الثلاثة الماضية ، وانت وحدك صاحب
الفضل فيها . اني احتفظ بك كما تحتفظ بي ، لكن احرص عليّ جيداً ،
لاني لم أنل بعد حصتي كلها من السعادة . ربما تكون قد رضيت ، هذه
المرّة ، بان اكون لك مدى الحياة

واني اغتم هذه الفرصة لاسألك : ما معنى صورة القلب المطبوعة
على الصفحة الاخيرة من غلاف كتابك الاخير ؟ رأيتها على جميع الكتب
التي ارسلتها الي ؛ اما النسخ التي اشتريتها من هذه الكتب فانها خالية
منها^١ .

لاحظت^٢ في قصتك المنشورة في جريدة « كنديد » انك استعملت رسالتي
الاخيرة اليك^٣ ، فسرتت بدخولي الى ما تكتب ، وأسعدني ان تكون
بجاجة اليّ لتبدع . وكلما عشتّ معي اصبح أفضل مما كتبت ، اذ
تكتمل بك الوثقي .

مرّت بسان ليونار سيارة دعاية لمؤسسة « إكس » التجارية في
اورليان ، فخامرتني رغبة جنونية في شراء اشياء كثيرة . فاشتريت
حذاء . وها انا مسرورة بحذائي غاية السرور ، لاني احسست ، لما انتعلته ،
اني في مقتبل العمر ، واني شبيهة بالفارسة إلسا .

ولما خلعت^٤ هذا الحذاء ، كنت انت جالساً الى جانبي ، فضممت^٥
حذائي بين رجليك بطريقة فيها الكثير من المداعبة ، كأن رجلي ما
تزال في داخله .

منذ قليل انشدت^٦ بصوت مرتفع اغنية على احد ألحان الفالس التي

١ - يطبع الناشر هذه الاشارة على أغلفة الكتب غير المخصصة للبيع . - المؤلف .

٢ - لم يقض كوستال غلاف هذه الرسالة . - المؤلف .

كانت رائجة قبل الحرب ، وعنوانها : «عاشقة» . لا شيء يتقضي من
مومي كالتناء بهذه الطريقة ، خصوصاً اذا رفعت صوتي قدر المستطاع .
الحياة جميلة .

ألا أملك ما اردت امتلاكه ؟

كنت اريد مكاناً فريداً في قلبك . ما كان اسمدي لو كنت ارملة
شابة ولي منزل في باريس ، مع ... لا مجال لهذا البحث الآن !

أ.

(وضعت هذه الرسالة في الملف الخاص بها من غير ان يُفرض غلافها)

لما وصل كوستال الى المغرب ، كتب الى سولانج يقول : « لا بدّ لي من توجيه كلمة ثناء الى البحر لأنه كان هادئاً لما عبرته » . اما في اثناء عودته فقد تغيّر رأيه في البحر واصبح يعتبره نكبة . فالامواج الهائجة كانت تسد ثلاثة ارباع نوافذ الباخرة ، وحياناً تسدّها كلها ، من غير ان تحطمها . ربما كانت تتراجع هرباً من تتانة الناس المتراكمة في حبهرات كل سفينة فرنسية .

أسدل كوستال ستار نافذته قائلاً : « افضل ان احسب نفسي في غواصة » . إلا ان الستار كان معلقاً بطريقة تجعل المسافر يرى اضطراب الباخرة اذ تتقاذفها الامواج ، وكان هذا منتهى اللطف من قبل الذين فكروا بهذا الامر .

نهض من سريره وهو يكاد يتقيأ ، وسار مترنحاً الى الورقة المعلقة على الباب ليرى رقم زورق الانقاذ الذي يجب الذهاب اليه اذا غرقت الباخرة . غير انه كان في سفينة فرنسية ، فوجد مكان الرقم خالياً . اما زناير النجاة فكانت على ما يرام ، يستطيع المرء الاتكال عليها ليعوم ، شريطة ان يكون رأسه تحت الماء ، لان اشروطها كانت طويلة .

والخلاصة ان كل شيء كان حسناً ، لولا هذه الذبابة الشرسة التي لا تدفع اجرة سفرها ، ولا تصاب بدوار البحر .

لا ان حالة كهذه لا تطاق .

لم يعد كوستال يهتم بان يفكر ، بل حصر همه في ان يقاوم ليصمد ، وراح ينظر الى ساعته مرة كل خمس عشرة دقيقة ويقول : « لم يبقَ امامي سوى ثماني عشرة ساعة . وبعد عشرين دقيقة سيدقى سبع عشرة ساعة واربعون دقيقة ... لكن ، لا ! يجب ان احسب حساب التأخر . لعنة الله على حساباتي »

وأحس ان انفه مسدود ، فمطس وامتنخط . أترى هذا الزكام من عوارض الجذام ؟ وما هي لحظة حتى أحس بمحكة في ابطه ، ثم في داخل احدى فخذيه ، وكان يعلم ان الحكمة تحدث غالباً في بدء الجذام .

الجدران والحواجز الخشبية تئن تحت وطأة العاصفة . والباخرة ترتعش احياناً كما يجرّك الحصان جلده . وقرص كوستال اصابع احدى يديه وهو في هذه المحنة ، فما أحس بألم ، فبلل العرق جبينه اذ خيّل اليه انه مصاب بجدري الجذام . لكن احساسه عاد بعد قليل الى حالته الطبيعية ، فأدرك ان يده كانت مخدّرة لانه قبض بها على الاطار الاعلى من السرير فترةً طويلة ، فتمسّّب منها الدم وخفّ احساسها . اما الزكام والحكة فظلاً على حالهما .

في الساعة العاشرة ليلاً هدأت العاصفة ، فانتهت ازمة الاحتضار ، واستعاد الكاتب وعيه وراحة شعوره .
الوعي وراحة الشعور هما كل شيء .

يتعذر على المرء ان ينعم بروعة الشعر ، وان يقدر الشعراء ، اذا كان حداؤه ضيقاً يؤلم رجله . والصروح الروحية الشائخة تنهار في اضطراب الباخرة انهيار القصور في الزلزال .

إلا ان كوستال ما كاد يخرج من حفرة شقائه الجسدي حتى سقط في حفرة شقاء معنوي اذ رأى نفسه وجهاً الى وجه مع الديانة

المسيحية .

إن من يُضي أيام حدائته بين المسيحيين يتعرض ، في اغلب الاحيان ، الى تضخم الشعور المسيحي فيه كلما خارت قواه واستولى عليه الجبن ، ولا يستطيع التخلص من هذا السم الزعاف إلا متى بلغ سن الرجولة والنضج .

لم يكن كوستال يكره هذه الديانة ، لأنه لا يحقد إلا على الامراض التي تفتك بن يجب ، وجميع الذين يحبهم متعافون ، لم يحل بهم داء المسيحية . ولم يبغضها لاعتبارها « عدوة الجلس البشري » ، على حد قول تاسيت^١ ، لأنه لا يذوب هيأماً بالبشرية ليغض اعداءها . انه يحقر الديانة المسيحية ، لا اكثر . ولأنه ربي في جوثا ، كان يسهل عليه ان يتصورها كما هي تماماً ، وكثيراً ما استطاع التصرف كأنه مسيحي ، وهذا ما لمسناه في رسائله الى « مريم فردوس » .

وعلى اثر عودته من المغرب ، واجه مرضه بذهن صافي ، ودرسه بامعان ، فخطر في باله ان يُنصّر^٢ ا

لا ، لم يفكر بان « يؤمن » بالدين المسيحي ، مع انه كان يحسد الكهنة الذين يكفسون من ايمانهم قوة تساعدهم على مجابهة الموت ، وعلى الاذعان له بسرور . كان يحسدهم كما يحسد الحيوانات ، ظناً منه انها لا تحشى الموت . إلا انه كان مخطئاً في هذا الظن ، بقدر ما كان عاجزاً عن الشعور بالايان .

لا ، لم يكن مستعداً ان يؤمن . فكلمة شاتوبريان^٣ : « بكيث وآمنت » ،

١ - مؤرخ لاتيني (٥٥ - ١٢٠) . اشهر مؤلفاته : « تاريخ الالمانيين وطبايعهم » ، و« حوار الخطباء » . لم يكن دائماً متجوداً في ما كتب ، فقد حرف احياناً الحوادث التاريخية ، ولكنه تميز بوضوح الجملة ودقة التعبير .

٢ - الليكونت فرنسوا رينه دي شاتوبريان (١٧٦٨ - ١٨٤٨) كاتب فرنسي شهير =

كانت في نظره اسخف ما قيل في تاريخ الادب الفرنسي . غير انه أراد تخفيف التجربة التي نزلت به باعطاءها طابعاً شعرياً من نوع جديد . وفي هذا السبيل قرر ان يتزهب ، وان يعتزل في احد الأديار . فالمجذوم في هذا العصر مخلوق فظيخ يشير الشفقة ، ولا يجوز له ان يعيش بين الأصحاء . اما المجذوم ، الذي يهتدي بفضل مرضه الى « الهياكل القديمة » ، فانسان حسن الصورة ، رفيع المقام . وهذه حقيقة لا يرقى اليها شك . وحتى غير المؤمنين يكتنون احتراماً ابله للجسم المكسو بالقروح اذا كانت عليه جبة راهب ، لأنهم يسايرون الرأي العام . ولا بد من الملاحظة ان السلول لا يسترعي انتباه احد ، حتى لو اهتدى الى الهياكل القديمة .

تحمس كوستال لجميع هذه الاعتبارات ، لا لأنه اخذ يفكر جدياً بان يتخصص في الشعوذة الكاثوليكية الجذامية ، كما يتخصص آخرون بالطقوس اليهودية ، او باللواط العقائدي ، بل لأنه تصور شخصاً آخر في وضع من هذا النوع .

وكانت حماسته حيال الحالة التي اوصله اليها المرض كتلك الحماسة التي ألهبت شعوره في المكتبة الوطنية ، لما راح يبحث في بطون التاريخ عن صور رائعة للزواج ، ليتمكن من احتمال زواجه .

= من رواد الحركة الرومنطيقية . سافر الى اميركا وعاد الى فرنسا قبيل الثورة ، ثم هاجر مع الاسترطاطيين عام ١٧٩٢ ، وأقام في انكلترا ، ولم يعد منها إلا عام ١٨٠٠ . وبعد عودة النظام الملكي عين سفيراً في لندن ، ثم وزيراً للخارجية من عام ١٨٢٢ الى عام ١٨٢٤ . اشهر مؤلفاته : « عبقرية المسيحية » ، و « مذكرات من وراء القبر » ، و « رحلة من باريس الى اورشليم » . كان واسع الخيال ، متألق البيان ، جمع بين رهافة الشعور ، وقوة البلاغة ، وورعة الوصف ، فجدد مناهل الفكر في فرنسا ، وكان من أشد الكتاب تأثيراً في ابناء عصره والايغال التالية .

ويوم قاتل رجال عبد الكريم متطوعاً ، كان قد تصوّر امرءاً يتقلب فيه حب المغامرة على الخوف من الموت ، فأراد ان يقتدي به . وها هو يجتهد الآن ليخلق في اعتقاده شخصاً يرى الموت جميلاً اذا كان سببه مرض الجذام . وهو ينصرف بكليته الى العمل الفكري كلما مرّ بفترة من فترات هذا الخلق ، فيخطيء من وجهة التأليف الأدبي ، إلا ان خطيئته تنقذه من النكبة التي حلت به .

وما دام غوته ، وهو الرجل الشهير ، قد كتب : « ثمة اربعة اشياء اكرهها كرهى للسم والأفاعي ، وهي : دخان التبغ ، والبقر ، والثوم ، والمصلوب » ، ثم تجرأ على القول : « أفضل أن يسيء الدين المسيحي اليّ ، على أن أُحرم استخدامه لأجعل رواياتي التمثيلية جديرة بالاهتمام » ، فلا يجوز أن يُرجم بالحجارة من يحمل باستخدام الدين المسيحي ، لا ليُجعل تمثيلياته جديرة بالاهتمام ، بل ليتمكن من العيش وهو مجذوم . انه يتعاطى الدين كما يتعاطى المريض الدواء .

وكان يخطر في باله أحياناً أن رغبته الشديدة في مجامعة النساء تمصمه من الجذام ، فيقول في نفسه : « سيتلاشى المرض من جسدي يوم أصل الى باريس وأعائق غيغيت . لا ، ليس من المحتمل ألا ينتصر حب الحياة على الموت متى كان عظيماً مثل حيي ، وليس من الممكن ألا يهزم السرور الموت متى بلغ حداً معيناً من القوة » .

وفي أحيان أخرى كان يتبادر الى ذهنه جدّياً انه لو عائق غيغيت أو امرأة أخرى مرة واحدة لهان عليه الموت . وقد تذكر قصة روتها له احدى الممرضات ، بطلها احد جرحى الحرب جرحاً خطراً ، كان ينتزع أو سمته من صدره وينظر الى هذه الممرضة بعيني ذئب جائع وهو يصيح : « لا تهمني الأوسمة . ما أريد هو الجماع ... مرةً واحدة قبل الموت » .

لماذا لا تتألف جمعية نسائية تجعل واجبها القيام بتعزية المرضى

المحكوم عليهم بالموت ؟ ألا يمكن انشاء مؤسسة خيرية من هذا النوع ؟
لماذا لا تقوم احدى الرهبانيات بهذا العمل الذي يبلغ احياناً ذروة
السمو في الاحسان ؟

ها هو من جديد في فرنسا المعجوز المفتقرة الى كل شيء . لا ماسحو
احذية في الشوارع ، ولا من يحمل لك حقيبة ، والسواكير تنطفئ من
تلقاء نفسها .

ولم يكن خادمه بيكار قد عاد بعد الى شارع هنري مرتان ، فقد
ذهب الى قريته في الريف لما سافر كوستال الى المغرب . ولا ريب في
انه لم يتلق بعد الرسالة التي دعاه بها الكاتب للعودة الى العمل .
وكانت رائحة المنزل كريمة كرائحة البيوت التي تخلو من سكانها
وتثقل ابوابها ونوافذها مدةً طويلة ، تمازجها زخخة دخان التبغ . فلا
شك في ان بيكار دخن ونسي ان يفتح النوافذ .

اما الجو فكان شديداً يجو بيت مات فيه احدهم ، ثم هجره السكان .
ورأى كوستال من النافذة جارته المعجوز فقال في نفسه : « هذه امرأة
اخرى لم تمت بعد ! »

وفي هذه الغرف الخالية ، المكسوة بالغبار ، الفارقة في الكتابة ،
بين النوافذ القذرة الزجاج ، والسجاجيد الملقوفة ، استولت على كوستال
ازمة جديدة من الضعف ، كأن اشباح جميع الازمات التي ما برحت
ترهقه منذ خمسة اشهر قد احتشدت حوله ، فعاوده الحنين الى سولانج .
لم يجرؤ على فتح حقائبه لئلا يزيد مكتبه فوضى ، فقد امر خادمه ،
قبل سفره ، بالآ ينقل شيئاً من مكانه ، فكان الترتيب مفقوداً في
جميع الغرف .

احس بالبرد في ذلك اليوم السابع والعشرين من نيسان ، ولم تكن
نار التدفئة المركزية قد أشعلت بعد ، وبسدت السماء عابسة ، فدخل

غرفته واستلقى على سريره كما كان يفعل من قبل كلما تعب .
ويجب ان ندرك انه كان في تلك الساعة :

١ - رجلاً تنتظره عشرة اعوام يماني خلالها مرضاً فظيماً لا امل بالشفاء منه .

٢ - انه فقد الكثير من قدرته على المقاومة من جراء الصدمة القاسية التي حلت به لدى اكتشافه بقعة الجذام في معصمه ، وبعد رحلته الطويلة التي استغرقت يوماً كاملاً في الجبال على ظهر بغل ، ثم تلتها رحلة في السيارة طوال ثماني ساعات ، ورحلة في البحر الهائج استمرت خمساً وسبعين ساعة ، ورحلة في القطار مدتها سبع ساعات .

٣ - ان منزله البارد ، العديم الترتيب ، كان يصب في نفسه سيلاً من العموم .

٤ - ان صورة سولانج كانت الى جانبه في كل مكان كالظلمة المشؤوم .

وكانت هذه المتاعب تكفي ليستلقي على سريره من جديد ، ولا يأتي بحركة .

اما جنبه الذي جرّه في الباخرة الى الدين المسيحي (وقد تلاشت طلامس هذا الدين الآن) فقد بدأ يجرّه ، في كآبته ، الى المرأة ، الى المرأة « المعزّية » ، الى المرأة « الملاك الحارس ! » .

يا لها من اعتبارات مدمشة ومشؤومة في اذهان الرجال ! فالحقيقة الوحيدة هي ان الرجل لا يلجأ الى هذه الأساليب إلا حين يكون مغلوباً على امره - وإن مؤقتاً - فيقترب من المغلوبة على الدوام : المرأة . في المصور القديمة كانت كلمة « مغلوب » تعني المرأة . وكانت نمة شعوب ، اذا ارادت ان تذلل العذر ، دمغته برسم زاوية تمثل الفرج .

والى اي امرأة يلجأ كوستال ؟ انه يلجأ الى سولانج ، ويا له من شذوذ عجيب ! ذهب الى التي ألحقت به ضرباً من الشر ، كما يذهب

الكلب الى سيده الذي ضربه ، ويرتمي على قدميه .
وتذكر اعلاناً كان معلقاً على باب حافلة القطار ، جاء فيه : « دخول
هذه الحافلة محظور على كل مريض من شأن مرضه ان يزجج
المسافرين » .

وخيل اليه انه حجر ألقى في بئر الابدية التي لا قرار لها .
ونشأت في ذهنه فكرة مذهلة نشوة الاعشاب الضارة في الارض
الهزيلة ، اذ خطر في باله ان سولانج قادرة على اغاثة رجل سيدب
الفساد في جسده وهو حي ، وقادرة على تقويته معنوياً ، وعلى تعسده
بالعناية . ومتى كانت سولانج الى جانبه لا يعود منزله في نظره ضريحاً
له ، ولا يضطر الى الانفراد بنفسه ، وهو الآن يرتعد منه فرقاً . لقد
أزال المرض من نفسه حبه للانفراد .

احسن ان ميله الى الاتسة دنديو عديم النبل ، وانه يلقي الآن عليها
نظرة عرفان بالجميل كالتى كان يلقيها في الباخرة على خادمه البحار كما
ساعده في مقاومة الدوار لدى اشتداد العاصفة . فالمرضى يجعل النبل
دائماً في الدرجة الثانية من الاهمية .

أتوافق سولانج على الاقتران به متى عرفت حقيقته ؟
قرر ان يطرح عليها هذا السؤال بطريقة عامّة ومبهمة ، كأن
يقول لها : « أقدمين على الزواج برجل مجذوم اذا كنت تجبينه ؟ »
وكان على يقين من انها ستجيب : « نعم ! »

على هذه الهدنة التي يلقي عليها رأسه التقى رأسها اكثر من مرة .
واسترسل في خياله ، فحسبها الى جانبه ، يخاطبها ويسمع صوتها . قال
لها : « هربت منك مرتين بعد ان بعثت في نفسك الامل ، فصفحت
عني . حشنت برعدي ، فصفحت عني . ساورني الحذر منك ومن امك .
اما الآن فاني أتلو قانون الايمان بالطبيعة البشرية واستسلم لك » . وختم
حديثه بالعبارة التقليدية التي يقولها الرجل الكبير حين يدب فيه

الوهن : « أريد أن أحيا وجيبي متكئة على ركبتيك » .
وفي إحدى فترات التأمل ، انتابته رغبة شديدة حارة في أن يعقد
زواجه بسولانج حالاً ، فهبّ واقفاً وهرع الى الهاتف . أحب أن تأتي
اليه في ذلك المساء . فاذا وصلت وقالت له : « نعم » ، سهل عليه أن
يسمع : « نعم » الطبيب عندما يقول له : « نعم » ، انك مصاب بالجذام !
غير ان الهاتف ظل صامتاً . ربما قطع خطّه لأنه لم يدفع الرسوم
المرتبة عليه . وفي اثناء اقامته في جبال الأطلس كان يزعم انه لا يدري
الى من يجب أن يدفع هذه الرسوم . لا بد اذاً من الخروج لتوجيه رسالة
الى مصلحة الهاتف .

ما أقطع العزلة !

كان له في ما مضى وجه صديق حبيب ، فأصبح اليوم ضرباً من
الوحشة المفعمة بالكتابة .

ارتدى ثيابه وخرج هرباً من الإقامة في المنزل الضريح . ولم يكن قد
فتح حقائبه بعد ، فقرر أن ينزل في الفندق حتى اليوم التالي على الأقل .
وها هو في الفندق .

وما العمل الآن ؟

استيقظ فيه الجانب القوي من نفسه ، ربما لأنه وجد نفسه في غرفة
نظيفة ، حسنة الترتيب ، فعاد الى عمله الأدبي عودة المهر الى الفأر ،
ليتحرش به قليلاً قبل أن يهجره كلياً .

جلس الى الطاولة وتناول مخطوطته ، فقرأ بعضها حتى وصل الى
الصفحة التي توقف فيها عن الكتابة في جبال الأطلس يوم اكتشف بقعة
الجذام في معصمه .

ما كاد يكب على العمل بهدوء ، كما كان يفعل في منزله بشارع هنري
مرتان ، حتى تلاشت حوله المتاعب كما كانت تتلاشى هموم الزواج لدى
لجونه الى الكتابة .

يظن المرء انه لو رأى يديه مصفدتين بقميد رجال الشرطة لأغمي عليه . وحين تقيد يده لا يبقى مالكا وعيه وحسب ، بل يرى انه يستطيع أن يتذوق فنجان قهوة أو كأس خمر ويده مصفدتان .

وهكذا باشر كوستال عمله باهتمام وهو على يقين من ان هذه اليد التي يكتب بها ستفسد قريبا ، وتهتز ، وتلساقت أصابعها تباعا ، فلا يبقى منها سوى جدعة شوهاء ، ومن ان القيح سيسيل من انفه ، ومن ان اعضاءه التناسلية ستجف وتنفصل عن مكانها في جسده .

وعلى الرغم من هذا اليقين راح يكتب ، وينقح ، ويضيف ، ويمحو ، ويبحث في ذهنه ثلاث دقائق ليجد كلمة « دقيق » .

وبينا هو في هذه الغمرة من النشاط ، رنّ جرس الهاتف ، وسألته سولانج أيريد أن تأتي اليه ، فبدرت منه حركة تدل على التذمر وفراغ الصبر .

حقا ، ان في الدنيا نساء يعددن الى حياتهن الرتيبة ، والى حياكة الصوف ، بعد مرورهن بأزمة كبرى ...

تخلت سولانج عن رغبتها في الزواج بكوستال دون أن تنقم عليه . فالأمامي الخائبة لا تلبث أن تتخلص وتزول . وهذا ما سراه في الفصول التالية من جديد بالنسبة الى البطلة الثانية في هذه القصة .

أذعن الآنسة دنديو للأمر الواقع ، لكنها احتفظت بمودة لكوستال لا تخلو من الحب ، فكانت تردد : « انه يجذبني كما يجذب المغنطيس الحديد ، وأنا عالقة به كالحديد بالمغنطيس » . وقد أثبتت لها الرسائل ، التي كان يوجهها اليها بانتظام من أفريقيا ، انه يبادلها المودة والعطف ، فأحست ان صيحتها : « لا لا لا لا أريد أن أخسرك ! » ما تزال تتردد في أعماقها ، فراحت تقول في نفسها : « ليفعل ما يشاء ، فأنا مستعدة لقبول كل شيء لتبقى علاقتنا كما كانت قبل سفره » .

لم تكترث بفقدان العلاقة الجنسية التي كانت تربطها به . غير انها لم تستطع التخلي عن قبلاته ، عن عناقه ، عن وجوده الى جانبها . لم تقو حتى على التفكير بهذه الحسارة . فلو ابتعد عنها بعض الوقت لاحتملت مصيبتها بصبر ؛ اما ان يهجرها الى الأبد ، فأمرٌ تعجز عن احتماله .

لر تلقت من كوستال ، يوم كان في المغرب ، اقتراحاً جديداً كالاقتراح الذي قدمه لها منذ ثلاثة أشهر ، عارضاً عليها أن تأتي الى منزله في شارع هنري مرتان لتمضي الى جانبه أياماً من كل اسبوع ، لما انتفضت

ثائرة كما فعلت في المرة الأولى . إلا ان الكاتب حرص على تناسي هذا الموضوع لئلا توافق عليه ، فيضطر الى ملازمتها مدة معينة من حياته ، ولا تلبث ان تتدخل في شؤونه الخاصة وتفرض نفسها عليه . وكانت قدرتها على المقاومة تراخي كلما تذكرت اقامتها معه في جنوى ، حتى انها سألته في احدى رسائلها ، بلا حياء ، أيستطيعان العودة الى ايطاليا ، فاعتذر متذرعاً بكثرة أشغاله . ثم أعادت عليه الكرة ، وكان طموحها قد خف ، ورضيت بتمضية بضعة أيام معه في احد الأرياف القريبة من باريس عندما يأتي فصل الربيع ، فأجابها اجابة مبهمة .

وفي هذه الاثناء ، لم تكن تجهل انها ستخسره كلياً متى تزوجت بسواه . غير انها كانت تفكر بان هذا الزواج مسألة أخرى لم يحن الوقت بعد للاهتمام بها . فكل فتاة تعتقد اعتقاداً ثابتاً ان الزواج يأتي في حينه دون أن تبذل في سبيله المساعي .

اما السيدة دنديو فلم تتأثر كثيراً لما تلقت رسالة كوستال الأخيرة ، ولم تجد فيها ما يدعو الى الدهشة أو الاستغراب ، لأنها لم تكن تشاطر ابنتها ثقها بتانة تلك الخطبة . وربما ساعدها ترملةا على اجمال الضربة القاسية بسهولة . استاءت من رسالته ، لكنها احتفظت بهدوء أعصابها ، ولم ينفجر غيظها كما لو كان السيد دنديو حياً في هذه المغامرة . فتورة الأعصاب وحدها تفقد المرأة اترانها ورسالتها .

منذ عشر سنوات احست السيدة دنديو انها اوفر قوة ، واشد سيطرة على نفسها . ذلك انها صارت تنام في غرفة غير غرفة زوجها . فقد شعرت ان سريرها لها وحدها ، تستطيع التحرك فيه على هواها ، وان شرافها لا تستعمل لأحد سواها . فاطمأنت وادركت ان الزواج كالجحيم اذا كان الزوجان ينمان في غرفة واحدة ، وكالمظهر اذا نام كل منهما في غرفة . اما اذا سكن كل منهما في بيت بعيد عن بيت

الأخر، واتفقا على ان يلتقيا مرتين في الاسبوع ، فقد يصبح الزواج نعيماً .

ولم يكن في وسع السيدة دنديو ان تحقد على احد غير زوجها ، فما نعتت على كوستال ، وراحت تعزي نفسها بالاعتبارات المبتذلة التي تلجأ اليها جميع النساء في الأزمت . فالمرأة تحتاج الى الشعور بانها محمية ، وبان لها حصانة معصومة ، ولتستطيع الاعتماد عن هذه الاعتبارات .

كانت تقول ، مثلاً : « لا يمكن ان نتوقع من الرجال سوى الحنيات . هذه سنة الحياة . وافضل ما نفعه هو ان نحب ... حلاً . فالوهم اجمل ما في الحياة ، لأنه اساس حبنا الانساني المسكين ... »

بهذه البلاهات كانت تعزي نفسها ، وتحاول تعزية سولانج ، كما تروي الامهات حكايات الحوريات لجلب النعاس الى عيون ابنائهن .

والمعروف عن السيدة دنديو انها كانت ضعيفة مع ابنتها ، وعزلاء من كل سلاح ، لانها كانت تبحث في هذه الابنة عما تبرر به وجودها . لذلك كانت تعتبر ضعفها وهزال شخصيتها نوعاً من التجرد ونكران الذات .

فصححت كوستال بالسفر ، لكنها لم تحظر عليه الاتصال بسولانج . ولم تكن مرثاحة الى استمرار تبادل الرسائل بين كوستال وابنتها لاعتقادها ان هذه الرسائل تغذي عاطفة يائسة من الافضل ان تحتنق وقوت . غير انها لم تطلب الى كوستال ان يقطع رسائله عن ابنتها ، لانها رأت سولانج مسرورة بها ، تسمتد منها الكثير من البهجة والنشاط .

عاشت هاتان المرأتان في الغموض لانها خلقتا له . ولما لمحت سولانج الى العلاقات التي ستتجدد بينها وبين الكاتب لدى عودته من المغرب ، كأنها علاقات طبيعية لا غبار عليها ، ما دامت في الظاهر « على صعيد الصداقة البريئة » ، لم تُبدِ السيدة دنديو اقل احتجاج . وكانت تعلم

انها ستضطر يوماً ما الى وضع حدٍ لهذه العلاقات متى ارادت ان تزوج
ابنتها ، لاعتقادها ، كسولانج ، ان هذا الوضع لا يمكن ان يستمر بعد
الزواج . إلا انها كانت تؤجل دائماً اللبث في هذا الامر على امل ان
بسأم هو ، او تسأم هي ، فيتم الانفصال دونما حاجة الى تدخل احد .
ولما ذهبت سولانج الى الفندق الذي دعاها اليه كوستال كانت
تشعر بانها عادت الى حياتها الماضية واستأنفتها من النقطة التي توقفت
عندها منذ ثلاثة اشهر . غير انها قفزت من فوق جثة حلم الزواج لتشكل
طريقها . وعلى الرغم من استمرارها في التبرج القليل عادت الى تسريح
شعرها على طريقة الفتيات العذارى . فهذه حال جميع النساء ، لا تحول
ولا تبدل ، من اندريه هاكبو ، الى خديجة ، الى سولانج .

وكانت كوستال ينتظرها في بهو الفندق ليجد ذريعة تمنعه من
تقبيلها ، خوفاً من انتقال عدوى الجذام اليها . فلما قدّمت له وجهها ،
وقال لها : « بعد قليل ... فالناس ينظرون ! » اخذتها الدهشة . ولكنه
عالجها بالطف والكلام المعسول حتى استأنست . وكَم كانت العودة الى
الحياة الماضية في منتهى البساطة !

شابت علاقتها المتجددة كونها عابرة لا اساس لها . إلا أن سولانج
فكرت بانها علاقة حسنة على كل حال ، ومن المحتمل ان تستمر طويلاً ،
ناهيك بخلوها من الرغبة في الزواج ... هذه الرغبة التي تصلّب الارادة
وتوتر الاعصاب . ففي مثل هذا الجو لا تحتاج سولانج الى تعذيب من
تحب ، فتراه سعيداً بمصولة على ما يجب ، وعلى ما كان يود من استمرار
علاقة الحب بينها ، لا اكثر .

وكانت كوستال قد قرر ألا يتحدث اليها جدياً إلا بعد العشاء ،
فتناولوا طعامها في جو من البهجة والسرور ، وروى لها أخبار رحلته
وعمله . ومن حين الى آخر كان يفتح حقيبتها ويبيد ملاحظات مزعجة
ولطيفة معاً بشأن الأشياء النسائية التي تحتويها ، كما كان يفعل من قبل .

ولم تكن غايته إلا تعذيبها قليلاً ، فهو يجب أن يعذب حتى النساء اللواتي يحبهن .

أخبرته بأنها شفيت من دماغها ومن افتقار جسمها الى الكلس ، فأجابها :

— هذه نتيجة طبيعية . كان من الضروري أن أصارحك باني لا أريد الاقتران بك لأعيد اليك العافية . واني لعلّ يقين من ان بولنا لم يعد أصفر كما كان .

وكان هذا القول صحيحاً ، فخلال الاشهر الثلاثة الماضية شفيت سولانج من كل ما كان قد ألمّ بها ، مع ان المنطق الطبيعي كان يقضي بان تتفاقم حالتها الصحية بعد الضربة القاسية التي حلتّ بها . فالجسم البشري شيء عجيب كالروح ، اللهم إلا اذا كانت سولانج قد أفادت من العقاقير التي تناولتها ... فاذا صحّ هذا الاستنتاج تكون المسألة غير جديرة بالتفكير .

وكانت كلما أدار وجهه عنها قليلاً ، تفتح حقيبتها ، وتنظر الى مرآتها الصغيرة ، وتصلح تبرّجها ، فلا يوبخها ، بل يتكلم بصوت مرتفع كما يفعل جميع الشبان . ولأن أقواله كانت كلها مبالغاة لا تُصدّق ، اضطرت الى تأنيبه قائلة : « أخفض صوتك ! » وكانت جالسة على قفازها ، وكانت هذه عادة عزيزة عليها .

قالت له :

— ما يزال كل شيء على حاله منذ اشهر . فقد تناولنا الطعام في هذا المكان ، وجلسنا الى هذه الطاولة ... لم يخطر في بالي ، يوم ابتعدت عني ، اننا سنلتقي بعد ، ونعود الى ما كنا عليه .

فأجابها بطيش لا يخلو من القساوة ، مع علمه بانسه لا يجوز للمحدث اللبق ان يذكر محدثيه بهزائمهم ، فقال :

— اما انت فقد تغيرت فيك شيء . ويبدو لي اني لو اقترحت عليك

الآن ان تسكني معي ، في منزلي ، من حين الى آخر ، لقبلي ، مع ان هذا المشروع كان قد اجفلك في كانون الثاني الماضي .

- قلت لك ، يومئذٍ ، ان وضعاً كهذا لا يجوز ، لأن عار الفضيحة يلوث امي . إلا اننا نستطيع ان نجد حداً وسطاً : لا « اسكن » في منزلك ، بل امضي عندك جانباً من النهار في بعض ايام الاسبوع ، فاعيش في جوّك ، وشاركك في حياتك اليومية . من المفروض فيّ ان اكون لك سكرتيرة . وفي وسعي ان اقوم بهذا العمل الى حد ما . واود بجرارة ان اقدم خدمة لك في سبيل عمك . لماذا لا تقول اني ابنة عمك ؟ لا يصعب علينا اكتشاف علاقة نسب غامضة بيننا !

- تعلمين جيداً انه يجب عليك ان تسعي الى الزواج ، فكيف تقبلين الاقامة في منزلي بعض الوقت كأنك خليلتي العلنية ؟ ومن يصدق انك سكرتيري او ابنة عمي ؟ ثم كيف تستطيعين افناع زوجك المرتجى بانك فتاة طاهرة ؟

نظرت اليه بعينين مليئتين بالأسف كعيني تليذة امام عملية حسابية صعبة ، ثم قالت :

- أخطر في بالك ، لحظة واحدة ، ان هذا الوضع لا يكون صعباً عليّ ، وحافلاً بالمتاعب والآلام ؟ لكنني مدعنة له لانه ضروري ، ولا مفر منه ...

- ماذا تعنين بـ « انه ضروري » ؟

طرح عليها هذا السؤال وهو يدرك تماما ما تعني ، فاجابت :

- انه ضروري لاني احبك . لكنك لم تشأ قط ان تفهم اني احبك .

- صحيح . ربما كنت لا ادرك حب المرأة لي ، لأن هذا الحب لا يجبني ، ولا اجسد فيه ما يسرني . غير اني هذه المرة متأثر بكونك حافظت على حبك لي بالرغم من اساءتي اليك . سنبحث مشروعك فيما

بعد ، فهو يتعلق بقضية ساطعك عليها بعد العشاء .
ثم قالت له كلمة بالغة الشراسة ، فقد كتبت اليه ، يوم كنت في
المغرب ، ان مريني خنازير من نورمنديا طلب يدها ، وعلقت على هذا
الخبر بقولها :

— ربما قررت يوماً قبول طلبه .

— أتفضلينه على المهندس توماسي ؟

— أجل ، افضله عليه ، لاني لا اعرفه !

وقبل خروجهما من المطعم ساعدته على ارتداء معطفه ، فارتاح الى ما
وجد فيه من الدفء .

وفي طريقها الى الفندق قال لها :

— يجب الآن اطلعك على الحقيقة ... اني على شبه اليقين بانى أصبت
في المغرب بمرض عضال ، لا تنتقل عدواه بسهولة كما يظن الناس ، إلا
انها تنتقل إن لم تتخذ التدابير الواقية . فبوسعنا ان نتابع
علاقتنا ، وان نلتقي ، لكن يجب الانقطاع كلياً عن التورط في الوصال
الجنسي . وسأشرح لك كل شيء في غرفتي .

وكانت تسير الى جانبه صامتة ، تنظر الى رأس حداثها ، ثم

قالت :

— اظن اني حزرت .

— لا تستطيعين ان تجزري . لعلك تظنين انه من الامراض التي يقال

لها زهرية ؟

— نعم .

— انك غخطئة .

وفي المصعد ، راحت تنظر اليه صامتة ، وقد بدا عليها التأثر

والارتباك . وما إن دخلا الغرفة حتى قال لها :

— اجلسي هنا .

لم يشعل الكهرباء . فأشعلتها . فأطفأها .

وكانت تتسرب من بين ستائر النافذة أضواء حمر من واجهة احدى دور السينما المجاورة ، أشبه بأضواء هيب جهنم ، فتخلق الجو الذي يجبه مفيستو ذو القروح .

كانت جالسة على احد الكراسي ، فجلس على كرسي آخر امامها ليكونا وجهاً الى وجه ، ووضع يده على معصمها . ولما تناولت يده سحبها منها قائلاً :

— ضعي يدك على معصمي فوق الكمم اذا شئت ، ولا تسمي بشرتي .

وظللاً برهة في هذا الوضع كأنها يتصافحان على طريقة الرومانين القدامى بالقبض على المعصم ، ثم قال :

— لا تخافي ، ولا تتأثري . اذا كنت مصاباً بهذا المرض — وأنا على يقين بانى مصاب به — فاني استطيع ان اعيش عشر سنوات بكثير من العناية وأكثر من الآلام ، ثم انتهي كأني مسخ تجسدت فيه الفظاعة . لكن لا مجال للتفكير بهذه النهاية لأنى سأنتحر في الوقت المناسب . و بانتظار ما سيكون ، سأظل مخوقاً طبيعياً على وجه التقريب ، ونستطيع ان نلتقي بعض الوقت ، شريطة ان لا يمس احدنا الآخر ... إلا من فوق الثياب ، كما نحن الآن .

لم يفرغ صبرها ، ولم تلح عليه لتعرف حقيقة مرضه ، ولم تصرخ به : « وبعد ، فقل لي ما هو هذا المرض ؟ » بل ظلت كما كانت : « الآنة سكوت » ... ظلت في ذهولها تنتظر النهاية . انها تنتظر دائماً !

وتجت النافذة ، رن جرس السينما في الشارع ، ثم نبح صوت يقول : « الدخول فوري ومستمر ! القاعة هوائية ! فيلم حب ومغامرات ! جميع أخبار الساعة ! »

فجعل كوستال يسائل نفسه : « ما معنى هذه الاقوال ؟ وكيف تكون

القاعة هوائية؟ وما هو الدخول الفوري والمستمر؟
كاد هذا الخلط يفقده رشاده ورباطة جأشه . غير انه عاد الى
موضوعه فسأل سولانج :

- أتردين ما هو مرض هانسن ؟

- لا .

--- أتردين. من هو الابرس ؟

- الأبرص؟ لم اسمع به . لعله البخيل . قل لي ماذا ...

- أتردين ما هو الجذام ؟

فسجبت يدها عن معصمه بحركة عفوية كأنها لامست تياراً كهربائياً .
ومها يكن مقدراً للأحوال ان تتطور بينها في الآتي من الايام ، فلن
ينسى كوستال هذه الحركة وهذا الخوف الغريزي من ملامسته .
قالت :

- لا ، لا يمكن ان تكون مصاباً ...

- بلى ، او بالحري ارجّح اني مصاب .

- لا ! غير ممكن ، غير ممكن !

وتحت الأضواء المجر ، بدا الذعر على وجهها ، فرأى كوستال صورة
بليغة من صور جهنم ، وراح يتكلم بسرعة وفصاحة ليعود الى الصعيد
البشري ، قال :

- انك لا تعلمين ما هو هذا المرض . وللناس عنه فكرة خاطئة .
ففي باريس ثلاثمائة مجذوم ، عشرون منهم فقط في المستشفيات ، وفي
ردهات عامة ؛ اما الباقون فيعيشون بين الناس ، ويختلطون بالجهير ...
ربما كان الخادم الذي قدم لنا طعامنا في المطعم مجذوماً ... وثمة نساء
عشن ثلاثين عاماً مع ازواج مجذومين ، فلم تثقل العدوى منهم اليهن . ليست
هذه الاقوال مزاعم بعيدة عن الحقيقة سمعتها من الذين أرادوا تخفيف
مصيبتني . لا ، لم يقلها لي احد ، بل قرأتها في كتاب طبي ، وما عليك إلا

ان تشتري كتاباً مثله .

— كيف أُرِصت بهذا المرض ؟ هذا اذا سلّمنا جدلاً بانك مصاب به ،
لكنني لا اصدّق ...

— انتقل اليّ من امرأة .

ان الحقيقة فاتنة باهرة كاللوت .

وبعد صمت قصير ، استطردت سولانج قائلة :

— أكانت امرأة عابرة أم خلية قديمة ؟

— كانت خليلتي منذ اربع سنوات . وهي افريقية .

وكانت تنظر اليه بعينين متسمتين رعباً وجامدتين ، يكسوهما الضوء

الاحمر ، كعيني طائر ليالي مصلوب على الحائط تحضبه الدماء .

امسا هو فكان تحت تلك النظرات كحيوان ضعيف من حيوانات

الحقل ، انطوى على نفسه ، واقشعر رعباً تحت عيني احد الكواسر .

ان بلاهة الافلام السينمائية السقي تمهّر كل مأساة كانت أعجز من ان

تشوّه صورة ذينك الوجوهين المتقابلين في ذلك الجوّ الرهيب من الذعر .

فقد بدت الحياة قوية لا تقهر في تلك اللحظة .

قال لها :

— اذا كنتُ أخيفك ففي وسعك ان تذهبي في سبيلك حالاً ، وان

لا تري لي وجهاً بعد اليوم ، واني لأعتبر تصرفك هذا طبيعياً للغاية .

— لست خائفة . اني اصدّق ما تقول . واعلم ان لا خطر عليّ . فلو

كان الدنو منك سَخِطِراً لما دَعَوْتِي .

يا لثقتها المطلقة به !

ولم تكتفِ بالقول ، بل أرادت ان تعطيه برهاناً حسيّاً عن انها

غير خائفة ، فوضعت يدها على معصمه ، ثم ابتسمت له قائلة :

— قلتَ لي : « لا تتأثري » ، فكانت هذه النصيحة عديمة الجدوى ،

لأنني سأتأثر حتماً متى اعلن الاطباء انك مصاب . وقبل الوصول الى

هذه النتيجة لا اصدق انك ابرص ، او بالحري لا اصدق إلا نصف تصديقي .

ولم يكن كوستال مسروراً بشكها في حقيقة مرضه . ولو نُحِير في تلك اللحظة بين ان يكون مصاباً او غير مصاب ، لكان من المحتمل ان يختار المرض ليقنعها بأنه لا يداجي .

حدثها طويلاً عن الجدام ، بينما كان جرس السينا يرنٌ من حين الى آخر . وكان ، كلما سمع ذلك الرنين ، يتذكر اجراس البيوت السرية التي كان يذهب اليها مع احدى النساء ، فترن الاجراس لتنبهه الى ظهور خطر مباحث . وفي هذه البيوت كان يشبه الامر عليه احياناً ، فيظن انه في منزله ، وان الجرس الذي يرنٌ هو جرس بابه ، فيخرج الى البهو حافياً ، ومسدسه في يده ، ليرى هل هناك رجل يريد الدخول ، وهو مستعد ان يضرب الباب بقبضته ان لم ينفتح امامه بعد لحظة .

وكان يقف مفكراً بان امامه عدواً لا تفصله عنه إلا لوح من الخشب .

وفي اثناء حديثه ، كان وجهه سولانج هادئاً ، اكثر هدوءاً مما كان ساعة دخولها الى الغرفة . كان هادئاً وعليه طابع التفكير العميق .

قالت له كلمات عذبة لتعيد اليه ثقته بنفسه . وكانت تستعمل باصرار لفظي : « لو » و « اذا » ، لتجدد فيه الأمل ، قالت :

— اذا كنت مصاباً بهذا المرض فمن المحتمل ان يحمل بك ما هو أشد منه وأدهى ، كأن تموت فجأة . اعترفت لي مرة بان اوراقك غير مرتبة . وقلت ، منذ هنيهة ، ان امامك عشر سنوات من الوقت ، وهذا وم ا فليس بين الاصحاء من يحمل ضماناً بأنه سيعيش عشر سنوات في هذه الايام . لا تنس ان الحرب قد تنشب بين يوم وآخر . واذا قُدر لك ان تعيش فانك ستبلغ ، بعد عشر سنوات ، الخامسة والاربعين .

وليس في وسعك ان تزعم ان الكتاب ، في مثل هذه السن ، يكونون قد عيبروا عن كل ما يريدون التعبير عنه ، ولم يبق لهم إلا ان يجتروا اشياء من كتاباتهم السابقة .

قال في نفسه : « ما ابرعها في اظهار الحقيقة ! فكل ما تقوله صواب . كنت ألس احياناً براهين ساطعة عن انها لا تفهمني ، ولا تعرف من انا . اما الآن فيبدو لي انها تفهم وتعرف . وما اعظم حكمتها وحصافتها ! انها فتاة ممتازة على كل حال » .

وفي هذه اللحظة أراد ان يطرح عليها السؤال الذي ما يتردد في خاطره منذ التقائها ، فقال لها :

— أفضلتين الزواج برجل أبرص تحبينه ، على الزواج برجل سليم لا تحبينه ؟

— نعم .

وبعد صمت قصير استطردت مؤكدة :

— طبعاً ، ويكل تأكيد .

طلب اليها ان تستلقي على السرير ، اذا شاءت ، دون ان تخلع ثيابها ، ثم قال لها :

— سأقبلك من فوق الثياب ، فلا أمس بشرتك ، او بالحري لن أقبل حتى ثيابك ، بل التي بوجهي عليها ، وسأل بس قفازي .

— وما الفائدة من القفازين ؟ ليس في يديك شيء .

لكنه لبس قفازيه ، واستلقى الى جانبها في الظلام ، اذ لم تكن الاضواء المهر تصل الى السرير .

وكان جرس السينارين من حين الى آخر ، إلا ان صاحب الصوت المزعج انقطع عن المناداة .

اندست سولانج بين ذراعي كوستال منطوية على نفسها كما كانت في رحم امها . فظل فترة طويلة ملقياً خده على صدرها ، يتلمسها برفق كلها

تحرك ليعرف مكان وجهها ويديها فلا يمسا بشفتيه .
أحس بالأمان ينساب الى اعماقه ، وغدوق غدوية منعشة لم يدر انها
كانت مزيفة ، وشبيهة بالموجة التي تشرئب ، وتلحس الشاطئ وهي تلمع
قبل ان تزل الى الأبد .

ونبتتها ضجة الناس الخارجين من السينما الى ان ساعة الفراق قد
أزفت . فجلست سولانج على حافة السرير ، ولقت جدليتي شعرها اللتين
كانتا قد الملتنا كأنها تلميذة تستيقظ من النوم في مدرسة داخلية .

في اليوم التالي اصبح كوستال اشد سيطرة على نفسه بعد ان اخذ
قسماً من الراحة ، فقرر ان يباعد بين مواعيده مع سولانج حتى تنقطع
علاقتها كلياً ، مها تكن كلمة الاطباء الاخيرة في حالته الصحية ، بعد ان
قرر ان يعدل عن مشروع الزواج الارعن الذي كان قد فكر به في
اليوم السابق .

وكان لقراره سببان :

فالسبب الاول انه لم يشأ ان يتزوج بفتاة ليجعلها ممرضة لرجل
أبرص ، بعد ان رفض الزواج الذي يجعل منها رفيقة حياته .
والسبب الثاني - وهو الأهم والأوجه - انه لم يشأ الانزلاق على الطريق
الخطير الذي يضطر سالكه الى الرد على النبل بالنبل ، اذ لا يجوز ان
يصبح السمو قادراً على كل شيء . فحال العالم تزداد سوءاً أكثر مما هي
عليه اذا كان يكفي ان نضع درهماً من النبل في الكفة المشؤومة من
ميزان الحياة لتحت هذه الكفة وتشيل الكفة الأخرى .

الموت في سبيل قضية لا يعني ان هذه القضية صالحة وعادلة .

لقد بلغت سولانج بتصرفها النبل ذروة السمو، إلا ان سموها لم يكن
يعني ان الزواج بها ليس حلاً رديئاً وعقوفاً بالخطر وليس له مبرر .
فالقاعدة التي يجب ان يسير عليها اذاً هي اجتناب النبل ، وعليه ان

يردد دائما: « كانت سولانج نبيلة معي ، وكان من واجبي ان اقابلها بالمثل ، غير اني لا ارى ما هو العمل الذي استطيع ان اكون فيه نبيلًا . واذا تابعتنا سيرنا على هذه الحطة كانت العاقبة وخيمة حتماً ، لأن النبل ليس من الاشياء التي يجوز اللعب بها ... »

ولما التقيا بعد خمسة ايام لم يذهبا الى الفندق ، ولا الى منزل كوستال . وانما تذرع بخوفه عليها من العدوى ، فتنزها كأن احدهما غريب عن الآخر ، وحضرا احدى الحفلات الموسيقية . وكان كل شيء بينها يضيع في اللامبالاة كما تضيع الانهار الافريقية في رمال الصحراء وتتلاشى كأنها لم تكن .



انصرف الى اللذات. في هذا العالم الذي تسيطر عليه الفوضى .

عمر الخيام^١

كل مخلوق ذكي على وجه الارض ينطلق كل صباح لاقتناص
السعادة .

استندال^٢

بعد ستة ايام ، الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر ، وصل كوستال
الى ساحة القديس اغسطينوس متوجهاً الى شارع المجدلية . فالربيع كان
ثقيل الجو، يكاد يكون لزجاً من تبخر زفت الشوارع . والشمس محتجة
وراء ضباب ابيض لتستطيع ان تكون شريرة بكل هدوء ، كما هي
حالتها في الصحراء الافريقية . وبعض المارة يلفون على اعناقهم عصبات

-
- ١ - عالم رثاعر فارسي عاش ايام السلجوقيين رسام في اصلاح الحساب السنوي
الفارسي . توفي عام ١١٣٢ . اشهر مؤلفاته : « كتاب الصادرات » عن اقليدس ،
و« مشكلات الحساب » . وله في الشعر رباعيات شهيرة ، نقلها الى العربية
شعراً وديع البستاني ، واحمد الصافي النجفي ، والسباعي ، ونقلها نثرأ احمد حامد
الصراف . وقد تعلم الخيام على ابن سينا ، واتصل بجنس الصباح الاسماعيلي .
- ٢ - كاتب فرنسي (١٧٨٣ - ١٨٤٢) وضع دراسة عن راسين وشكسبير .
اشهر مؤلفاته : « الاحمر والاسود » . وهو رومنطقيي النزعة ، مرهف الشعور ،
لاذع التهكم ، لم يشتهر الا بعد وفاته بزمن طويل .

عنتق بالرغم من شدة القيظ ، لان هذه العصبات من مظاهر الاناقاة واليسر .

خرج كوستال من عيادة الدكتور روزنبوم بعد ان استمر فحصه اربعة ايام بالاضواء الكهربائية ، فتبين انه خالٍ من المرض . لم تكن البقعة التي ظهرت في معصمه إلا حكة بسيطة لا تبعث على القلق . اما الزكام فكان سببه البرد وهواء البحر . وحكاك الفخذين الذي زال كلياً نجم عن تبدل المناخ بين المغرب وفرنسا ، وهذا ما يحدث للمسافرين في اغلب الاحيان .

قال كوستال يوماً للدكتور روزنبوم انه ما كاد يشترى قارورة الدواء حتى احس بتحسُّن صحته قبل ان يتناول من الدواء شيئاً . قال الدكتور الى الاعتقاد ان كل ما شكاه منه الكاتب كان وليد الهم . وعلى المرء ان ينتبه لهذه الامور ، وان يقاوم بشدة ميسله الفطري الى وضع نفسه في مواقف سخيفة ومضحكة .

هزى الطبيب قليلاً بكوستال ، وقال له : « انك واسع الحيال ! » فالقى عليه الكاتب نظرة احتقار من تلك النظرات التي يلقىها المريض بعد شفائه على طبيبه ، وكتلك النظرة التي القاها كوستال على زوار النجاة لما وصلت به الباخرة الى ميناء بوردو .

وراح كوستال يستعيد ذكرياته ، فقال في نفسه : « قال لي روزنبوم ايضاً اني جاموس عافية . ولعله لم يقل هذا القول إلا لأنه سيرسل اليّ فاتورته بعد ثمانية ايام ، وهو يريد ان احبه خلال هذه الايام الثمانية لا يبادر بسرور وسرعة الى دفع المبلغ المترتب عليّ » .

ولكن الدكتور « ليدشوتس » قال له ايضاً ان له جسماً متيناً كأنه مبني بالحجارة والكلس . وصارحه البروفسور في الطب « ليفي دورمر » بان له صحة جنرال بوليفي . ولما كان كوستال يجب الوثائق المخطوطة ، فقد اجاب كلاً من هؤلاء الاطباء الثلاثة : « اذاً ، فاعطني شهادة خطية

واذكر فيها ما قلت .

هل كان سعيداً بهذه النتيجة ؟

لا ريب في ذلك !

ولكن هل كان سعيداً مائة بالمائة ؟

طبعاً ، لا . فقد اقتصرت سعادته على تسعين بالمائة . ومن المعروف ان الكاتب الشهير اذا قرأ مقالة تقرّظ كتبت فيه ، واكتشف سطرأ واحداً منها فيه بعض التحفظ ، توقف عنده ، واصبح لا يرى من المقالة سواء . وهكذا اصبحت العشرة بالمائة من «الاسعاده» كوستال مستأثرة بالقسم الأكبر من اهتمامه . ولا ريب في ان أليعازر ، لما خرج من القبر ، أحسن ان في حياته عشرة بالمائة من الاسعاده ، وتدمر من يسوع المسيح .

فمنذ خمسة عشر يوماً ، كان مستقبل كوستال برمته مبنياً بناء متيناً على مرض الجذام ، فاذا بالبناء كله ينهار . ثم ان هذا المرض كان نوعاً من العظمة المستقلة بذاتها ؛ اما الآن فقد اصبحت العظمة تقوّم أولاً على الاختراع ، وثانياً على الغزو والفتح ، وثالثاً على التنظيم . و بانتظار تحقيق هذه الاعمال ، لا بسد من العودة الى الحياة اليومية العادية ، مما جعل كوستال يحسّ كان باباً أغلق في وجهه .

وكان روزنبوم على حق حين قال له العبارة التقليدية التي يقولهها الطيب للريض الذي أبلّ من مرضه : « لم يعد امرك جيدراً بالاهتمام » . وما إن خطرت هذه الفكرة في باله حتى جعل يتم جملة يعتبرها تجديفاً وكفراً ، جملة يتنكّر لها ويصق عليها ، إلا انه لم يستطع منعها من الصعود الى شفّته اللتين واحتا ترددانا : « لم يبق امامي سوى مجرى الحياة ... »

أتراه لا يجب الحياة ؟

بلى ، ولكن خيّل اليه ان الجذام يجعل حياته اكثر اكتنازاً وأعتم

غوراً ، ناهيك بما تسببه الصحة الجيدة من المتاعب والمشاكل المزعجة .
يوم كان يظن انه مصاب بهذا الداء ألغى المحاضرات التي كان ينوي
القائها في الربيع ، وقرر ان يتحرر من جميع الارتباطات والتعهدات ،
فتخلص من جميع التزاماته وواجباته نحو المجتمع . اما الآن ... فلا بد
له من العودة الى ما كان عليه .

لا ، لن يعود بسهولة . سيزعم انه في طور النقاهة بعد شفائه من
مرض وبيل كالتهاب الرئتين او غيره ، وانه بحاجة الى فترة طويلة من
الراحة . فحالة المشرف على الموت مفعمة بنوع من الامتياز لا يجوز
التخلي عنه بسرعة .

ولما فرغ من هذه التأملات قال في نفسه : « كفى حماقة ! يجب ان
افكر بالامور المهمة ا » وفي هذه اللحظة التقى رجلاً وجهه مكسو
بالثوب ، فاقشعرّ بدنه اذ تذكر المصابين بالجلام .

وعلى كل حال ، اذا كان جذامه عزيزاً عليه الى هذا الحد ، فانه لم
يفقد امه بان يكون مصاباً به ، لأن العوارض بطيئة ولم يحن وقت
ظهورها بعد ...

في وسط التسعين بالمائة من سعادته ، وجد الحياة العادية ، والتقى فيها
بإبنه . ومن سيئات الامراض انها تكررنا على الاهتمام بنفوسنا اكثر مما
نهتم بمن نحب . وفي الاسبوع الاخير قرر كوستال ان يستدعي ابنه من
انكلترا اذا كانت نتيجة فحصه الطبي سلبية ، فيتسنى لبرونيه ان يعيش
في باريس حياة جديدة .

وتذكر الصيحة التي انطلقت من صدره في احد فنادق مراكش :
« ما الذي سيحلّ به ؟ ماذا يحلّ بمن لا يحبه احد في هذه الحياة ؟ »
انه لا يستطيع ترديد هذه الصيحة دون ان يستولي عليه الاضطراب .
وكثيراً ما يضطرب حين يتذكر كلمات قالها في ما مضى ، او كتبها
في احد مؤلفاته . وهذا ما جعله يتخذ قراره النهائي بشأن ابنه ،

فقال : « اذا أراد المرء ان يجعل من يحب سعيداً ، فليفعل فوراً ! »
وفي وسط العشرة بالمائة من لاسعاده ، وجد خديجة ومصيرها ،
فعزم على مساعدتها والسر عليها ، وقد تحدث الى روزنبوم بشأنها ،
فأجابه الطبيب بأنه يفضل ان تعالج في فرنسا ، وفي باريس ، لا في
فالبون . ووعده بأن يكتب اليها بهذا الصدد ، وبأن يعمل في سبيلها كل
ما يمكن عمله .

كان كوستال سبائراً على غير هدى ، وهو غارق في تفكيره ، فوصل
الى ساحة كنيسة المجدلية ، الى تلك الدرجة الحجرية التي جلس عليها مع
سولانج ليلة خطبتها ... فقال في نفسه : « انتهى هذا الكابوس كما انتهى
الكابوس الآخر » ، وقد عنى بالكابوس الآخر مرض الجذام الذي لا يقل
هولاً عن الخطبة . وأحس بنسمة سعادة هبت عليه من عهد فتوته ، يوم
كان في السادسة عشرة من العمر ، فاستطرد يقول : « نجوت من جذامين
اثنين ، وعدت الآن اليك ، يا طهاري الاولى ! فلأكن منذ اليوم جديراً
بهذه الطهارة » .

ان المعبد الملقب باسم المجدلية ، على الرغم من الازساخ الكثيرة
المترابكة عليه ، هو من الصروح النادرة التي تتحلى بمسحة من الجلال في
باريس . فخامرت كوستال رغبة في الدخول اليه ، لأن في صدره روحاً
دينية . واذا كان لم يرفع رأسه قط الى السماء ليبتهل ويطلب ، فانه يرفعه
احياناً بطريقة فطرية ليشكر .

ليشكر من ؟

ليشكر عبقرية ما هو مكتوب له في لوح القدر ، اي ليشكر نفسه
في ما هو مقدر له .

هذا المعبد كان الهيكل المسيحي الوحيد الذي يستطيع كوستال ان
يتحمّله بين جميع هياكل باريس . أف تكون هذه العاطفة وليدة ذكرى
عزيزة عليه ؟

يوم كان صبياً دخل الى هذا المكان المقدس ومدّ لسانه ساخراً من امرأة لا يعرفها كانت تصلّي ، فشكته المرأة الى مربيته الانكليزية التي روت هذه البطولة في المنزل العائلي وهي تقاقي بلغتها الانكليزية : « هذا الولد نمر ... نمر ! »

وتذكرت السيدة كوستال هذه الحادثة بعد سنوات ، فقالت لابنها : « انك شرير للغاية ... وستكون يوماً ما المسيح الدجال ! » فأجابها ، وهو آنذاك في الخامسة عشرة من العمر : « لن اتعب نفسي الى هذا الحد ! »

وربما كان معبد المجدلية عزيزاً عليه لأنه يذكره بالاسقف « ريفيار » الذي كان خادماً لهذا المبد قبل ان يُسام اسقفاً ، وكان يمد يديه المضمختين بالطور الى أنوف البنات اللواتي يلقي عليهن دروساً في التعليم المسيحي وجميعهن مغرعات به .

لا ، فالارجح ان كوستال كان معجباً بمعبد المجدلية لأنه الكنيسة الوحيدة التي لا ترى العين فيها أثراً واحداً من الآثار المسيحية بين جميع كنائس باريس .

ظلت هذه الكنيسة هيكل الاجاد طوال تسع سنوات ، في عهد نابوليون ، فبقيت في نظر كوستال هيكل الاجاد بالنسبة الى الفرد والى الامة جمعاء . غير انها تمثل ايضاً اشياء اخرى .

انها هيكل توحيد الآراء ، هيكل تلاحم المتناقضات : متناقضات العالم ، ومتناقضات كل مخلوق حي . ففي مقدمة البناء ، تبدو الى يسار زفس سبازيوس المسيح صورة ديونيسوس^١ وهو شاب عارٍ يثير ردفاه القلق ، والى يمينه مراهق عارٍ ايضاً يمثل عبقرية الرقص او احد اشقاء

١ - اله الكرمة والحرف في الاساطير اليونانية . وهو ابن زفس رب الارباب من زوجته سيميلي .

كاهن السكر والعريدة الذي نحت تمثاله كاربو^١ .
وفي داخل الكنيسة ، مذبح خالٍ من الاسرار ومن الشعوذة : لا شيء في اليدين ، لا شيء في الجيوب^٢ ، اي انه نقيض الدين المسيحي كلياً .

وخلف المذبح ، تقع العين على صور اطفال رائعي الجمال لهم اجنحة ، يُخرجون من محارة كبيرة افروذيت حديثة ، كما خرجت في قديم الزمان افروذيت الحقيقية^٣ . وافروذيت الحديثة هي المجدلية ، البغي المقدسة . وتبدو الخاطئة في هذه الصورة خافضة العينين ، لها بطن حبلى في شهرها التاسع وفي منتهى الجمال ، وقد بسطت ذراعها كأنها تقول :
« لم يكن لي مفرّ من ان يحصل لي ما حصل ... »

ما اجل ان يشعر المرء في هذا المكان انه ليس في هيكل العذراء ، هذه العذراء التي لا يذكرها الانجيل إلا في ما ندر ، والتي لا نعرف عنها شيئاً ، اللهم إلا ان ابنها هجرها ، ولم تكن إلا أداة لتجسيد الكلمة ، كالعذارى الارضيات اللواتي لا فائدة منهن إلا اذا اصبحن ادوات لانجاب الرجال .

انه هيكل الامة وهيكل الاجساد . غير انه هيكل البغي ايضاً . وهو قائم على الضفة اليمنى من نهر السين التي اصبحت ساحة البغايا . ولهذا السبب نضاه واجهته ليلاً باضواء لها مغزاها لانها بلون برمنغانات

١ - جان باتيست كاربو (١٨٢٧ - ١٨٧٥) نحات فرنسي شهير ابدع في نحت تماثيل الراقصات والراقصين .

٢ - كتب المؤلف هذه العبارة التي يستعملها المشعوذون في ألعايم « السحرية » امعاناً منه في تشويه الدين .

٣ - ربة الجمال والحب في الاساطير اليونانية . اطلق عليها الرومان اسم فينوس ، وهي في الاصل عشتار الفينيقية . وكان المؤمنون بها يعتقدون انها ولدت من محارة كبيرة كما يولد اللؤلؤ .

البوطاس^١ . وقد اعتاد كوستال ان يدخل هذه الكنيسة كلما اقتنص امرأة من نساء الشارع ، فيرتفع ويرتفع ، ويشكر لكونه سعيداً .
واليوم جاء يشكر ايضاً . إلا أنه طلب هذه المرة الى « الوجود غير المعروف » القوة والجرأة على التفكير دائماً بسعادته . واتخذ قراراً بان يتذكر دون انقطاع ان من واجبه ان يكون سعيداً ، و بان لا يتوقف عن متابعة ملذاته من اجل احد ، ولا من اجل شيء . اتخذ هذا القرار بطريقة رسمية . ثم خرج من الكنيسة ، ووقف قليلاً على احدى الدرجات .

كانت باريس بيضاء ، رمادية ، سوداء ، وسخة ، ملوثة ، كشرشف السرير بعد ليلة غرام . ولم تكن العين تقع فيها على شيء جميل مها امتد منها النظر ، اللهم إلا تلك البراعم التي بدأت تظهر على اغصان الاشجار ، وهي نضرة الاخضرار تبعث الرغبة في حمايتها من كل عبث . انها تبشر بالربيع ، الربيع النقي والدنس ، المثل من الافق كأنه مركب كبير وصل بعد طول انتظار ، حاملاً الاطياب من بلدان مجهولة . ولا شيء قوي في هذه المدينة سوى هذا الجمهور الحامد الوجدان ، المسلح بإمكانات لامتناهية .

يوم كان كوستال فتي مراهقاً ، خرج مع ابيه للقيام بنزهة في احد الشوارع الكبيرة ، فسمع ابيه يقول : « في هذه الشوارع كل شيء للبيع : الاشياء والناس » . فنشأ في نفسه لهذه الشوارع احترام يخالطه الأمل . ومنذ تلك الايام صار يحيط مطامعه مترامياً لا شواطئ له ولا حدود . ثم لم يلبث ان خامره الشك بقول ابيه ، اذ قال في نفسه : « انا ايضاً كنت في احد هذه الشوارع ، وكان والداي معي ، وليس فينا من

١ - سنة ١٩٢٨ كانت واجهة كنيسة المهدلية تضاه بانوار بنفسجية اللون ، وكانت هذه بطولة في فساد الذوق . - المؤلف .

هو للبيع . اذاً ، فقول ابي لا يشمل الجميع ، وهذا ما يدعو الى
الأسف المرير ... » إلا ان هذا التفكير لم يقوَ على انتزاع تأثير كلمة
ابيه من ذهنه .

كان واقفاً على درج المبدع ، فرأى تحته ، على الرصيف اللزج ، نهراً
جارياً من الشعب ، من الرجال ، واشباه الرجال ، والنساء ، كلاء القدر
المتحلب من كومة الزبيل . وكان هذا المجرى ينقسم شطرين على قدم
المبدع . فاحس كوستال انه سيلقي في هذا النهر نطافاً من ماء ذكورته ،
وهي اطهر مادة تفرزها الاعضاء البشرية ، بسل هي المادة الوحيدة
الطاهرة في الكون - الطاهرة والنقية كحبة القمح .

لقد أبغض ، في ما مضى ، شنار هذا الجمهور الباريسي . ومرت به
ايام كان يطرق فيها الى الارض كلما التقى احدي نساء باريس لثلا
يظن احد المارة انه يشتهيها ، اذا رآه ينظر اليها ، وهذا ما كان يملأ
نفسه خجلاً^١ .

اما الآن فاصبح يحب هذا العار ويقول في نفسه : « هذه مادتي » .
فالغوريلاً اللاتيني ، والقرود الباريسي ، والبقي الصفراء الوجه ، والمتشرته
العاري القفا ، الدنس الفم ، المتكلم بصوت فتاة ، هؤلاء جميعاً يتوقون
الى الشر ، يتنافسون على الرذائل ، وجلّ مهم ان يخدعوا ، ويسرقوا ،
وين... ، ويحتالوا ، ويسيروا متتابعين في صفهم الطويل .

هذه الفوضى اللاتينية المتهوذة تخيف الاوروبيين الشماليين المعتصمين
بالحشمة والذوق ، لأن مظهرها الخارجي يدل دلالة واضحة على الفوضى
الداخلية ، ويثبت ان كل شيء ممكن في هذا البلد ، بل في هذه المزبلة

١ - « هنّ (الباريسيات) متوسطات جمال الوجه ، واقرب الى الدمامة في اغلب
الاحيان » . (جان جاك روسو : هيلويز الجديدة ، القسم الثاني ، الفصل الحادي
والعشرون) . - المؤلف .

من الاجساد والارواح التي تعركها الشمس وتغطي بها وجه الارض ،
فتبرعم وتنتج النبات الملتف الكثيف .

وكان كوستال يعلم ان في هذه الزبالة لآليء عديدة ، فقال في سرّه
مردداً كلمة فينيلون : « أنتخلي عن قطعة الالاس لأننا وجدناها في
الوحدل ؟ » غير ان حبة الطهارة في هذا الحُضْم من القذارة تشبه الاسنان
السليمة البيضاء في فك كلب ميت .

أحس ، وهو في هذه الغمرة من التأمل ، انه على أتم الاستعداد لمطاردة
النساء ، لأنه لم يكن قد حلق ذقنه في ذلك اليوم . وكان في مطاردته
النساء يجب ان يكون خشن الذقن ، مهمل الهنءام ، لتكون رياضة
المطاردة على شيء من الصعوبة ، وخصوصاً ليبرهن انه يحتمل النساء
اللواتي يطاردهن ويستطيع السيطرة عليهن بلا عناء . وكثيراً ما كان
يخاطب نفسه قائلاً : « ليس بينهن واحدة جذيرة بان ازعج نفسي لأجلها .
ليأخذني كما أنا ! هذه المرأة او تلك ، لا فرق » .

وكانت خشونة ذقنه تضاعف ثقته بنفسه فيقول : « لا ريب في اني
قوي ما دمت استطيع المطاردة بهذه الذقن ! »

وكان اذا مُني بالاخفاق وجد في ذقنه عذراً فيقول : « كيف يمكن
أن أنجح وانا ملتحم كسكان الغاب ؟ »

وللمرة الاولى ، منذ عودته من افريقيا ، كان يسير في الشارع بلا
معطف ، وبلا قبعة . فحين يتحرر المرء من هذه الملابس التي تكسبه
احترام الناس يدخل حيلة جديدة كمرأة تقصر شعرها فتتخذ نوعاً
جديداً من الانوثة . وهكذا نرى الجندي الراجل ، اذا انزل حمله الثقيل
عن ظهره ، اصبح قادراً على مطاردة العدو بسهولة وسرور ، كاولئك
المسافرين الذين كانوا في الباخرة صفر الوجوه ، مشعثي الشعر ، يبدو
عليهم العياء ، فما كادوا يصلون الى الميناء وينزلون الى البر حق
تغيرت حالهم ، ففدوا متأنقين ، لامعي العيون ، يفيض البشر من

اشعل سيكارة وراح يستعد للمغامرة .

ومجرمة فظرية ، وكما يشد رجل الكهف وسطه قبل المعركة ، وكما يشد الجندي زناره قبل الساعة الصفر ، وكما يلتف مصارع الثيران بردائه حين يدخل الى الحلبة ، بكثّل كوستال زرّ سترته الاوسط واقبل على الغاب الباريسي ليتوغّل فيه .

وكما تخرج الوحوش الضارية كل يوم لتبحث عن طعامها ، استعداد حياته السابقة وراح يخرج كل يوم لبحث عن طريدة جديدة . ولم يكن بحاجة الى هذه الطريدة بقدر ما كانت بحاجة الى الصيد . وقد قال « ليسنج » في هذا المعنى : « لو اعطاني الله الحقيقة لرفضتها لاني احب البحث عنها » . والفتنة متى انفجرت اصبحت غير جدية بالاهتمام ، إلا انها تسترعي الانتباه ، وتبعث الخوف ما دام انفجارها متوقفاً .

لم يكن كوستال جائعاً في ذلك اليوم ، إلا انه بدأ مطاردته قائلاً في نفسه : « ربما كان هؤلاء الخنازير الذين يملأون الشوارع لا يريدون ان اعمل ما يعجبني ! » وكان يلجأ دائماً الى هذا السبب : سبب النكايّة بالناس ، حين لا يكون لديه سبب آخر للعمل . فالنكايّة كانت من اشد العوامل التي تدفعه الى المغامرة .

من واجب المعجبين بالحب ان يستلنجوا من حياة كوستال ان الانسان يصبح دمثاً غفوراً اذا مرض ، ثم يعود الى قسوته وطغيانه متى أبلّ من مرضه .

قبل ان تنظر المرّضة الى ميزان الحرارة لترى ان الحمى قد زالت ، يكون الرجل الذي تعنى به قد استعاد ملامحه العادية ، ملامح القرصان

١ - غوتولد فرايم ليسنج (١٧٢٩ - ١٧٨١) كاتب ألماني . حمل على المدرسة الكلاسيكية الفرنسية حملة شعواء لينفذ الادب الألماني من تأثيرها .

المتأهب للبطش .

هذه هي سنة الشرّ وسنة الحياة ، فالانسان المتعافي يجب الحرب دائماً ويسعى الى اضرار نارها . فدوافع حيويته تزيد القتال ، على الرغم من عقله الذي يدلّه على عظمة الخير الذي يحققه اذا بذل في السلم الجهود والفضائل التي يبذلها في الحرب .

لذلك نرى جميع القوى الاجتماعية تقاتل الحياة التي تتعبها وتقض مضجعها . إلا ان هذه القوى تعجز عن مهاجمة الحياة في اجسام الناس ، وتحتاج اليها للمحافظة على قوة الامة ، فتعتمد الى مهاجمة الحياة في النفوس ، وتحققها بمبادئ الاخلاق الدينية .

وبينا كان كوستال يسير في الشوارع ، اخذ يتسلى بالاحتكاك بالمارة ، ويدفعهم بيديه وكتفيه ، ولاسيا الذين كان يرى انهم مغرورون ينظرون الى الدنيا من عل . وكثيراً ما كان يتعمد الهجوم عليهم مسرعاً ليحيدوا من دربه ، فكانوا يحميدون دائماً ولا يبدر منهم اقل احتجاج : كانوا فرنسيو عام ١٩٢٧ الذين لا يحبون الرياضة العنيفة التي يمارسها الناس في شوارع الجزائر واسبانيا واطاليا .

اما النساء اللواتي كانت يمرّ بهن فكنّ شبيهات بالنعاج باقفيتهن السمينة ، ووجوههن المطلية بالادهان كالدمامل المكسوة بالمرم . لم يشك لحظة واحدة بحقيقتهن ، لانه يعرفهن حق المعرفة ، ويعلم انهن غير جديرات بشهوته . غير انه كان يود ان يدمغن جميعاً بطابعه ، ويهملن الى الابد ، ثم يأبى ان يعرف من اخبارهن شيئاً . وكان في هذا العمل ما يُدخل الى نفسه سرور فلأح يرى قطعاً من الابتقار تحمل كل منها دمعة تدل على انها ملك له .

جعل يستعرض المارة ويزيّن بنظره كل من تقع عليه عينه : يزين النساء ليرى ما يمكن اخذه منهن ، ويزين الرجال ليعلم ما يجب ان يحذره منهم . ويلحق تلك ، فاذا به نصف مطارد ، ونصف مطارد ،

كالحيوانات المطلقة للصيد ، وهي نصف ضارية ، ونصف خائفة . وكان كوستال في جولته مثلها تماماً .

وكان يجد في ذلك الغاب الباريسي متعة كبرى ، ويتهيج بان يكون حذراً بقدر ما يتهيج بان يجعل الآخرين على حذر . وكان الخوف يرّ عليه ، كالموجات الصغيرة ، مروراً الماء على الصخر . اما هذا الصخر فكان ايمانه بانه معصوم . فقد كانت له من شبابه ، وعاقبته ، ووقاحتها ، وانتاجه الادبي ، وابنه اللطيف المحبوب ، وعقد خليلاته الصغيرات السن ، جميع حسنات القدرة ، دون ان يتحمل مسؤولية واحدة من مسؤولياتها . فلا عجب اذا احس بانه خالٍ من العوار ، واذا اعتقد انه اقوى ، واكثر مرونة ، واقدر على الاحتمال ، واشدّ شراً من جميع الزجلك الآخرين .

كان يسير دافعاً رأسه الى الامام كالافعى ، يتنمّ طريدته من بعيد ، ويتوجّس خوفاً من الخطر ، وقد بدت رقبته غليظة كرقبة الجاموس الذي شتهه به الدكتور روزنبوم . كان جاموساً واقعى معاً ، وكان يشعر دون انقطاع بهذه الحقيقة .

ان قوة الحياة ، والرغبة في الامتلاك ، والرغبة في البطش ، والرغبة في الاقساد ، والرغبة في التضليل والمخادعة ، كانت كلها تظهر على وجهه في نوع من اللعان يُكسبه لون الذهب ، لا في قطرات من العرق . فقد كان متألقاً كموسى الكليم لدى هبوطه من سجيل الطور .

وفي هذه المرحلة من الصيد الحيواني كان يخلق باستمرار . غير ان خلقه كان افضل واجمل كلما قدم ذبيحة للحب . ويقدر ما كان يعين في التضحية للحب كانت رغبته تزداد احتداماً . وقد حظي باجمل الصديقات الصغيرات على اثر خروجه من الخلوات الدافئة ، ولم يعرف لانطلاقه حذراً يقف عنده . فالاغراق في التمتع يجعله اشد قدرة على الرصال . وهكذا نرى ان اشد الخطوط الحديدية لمعاناً هي التي يمر

ير عليها اكبر عدد من القطارات ، بينما الخطوط المهمة تهتريء ويعاوها الصدا .

يقول الاطباء ان للأجسام الحيّة قوةً جنسية تفوق التصور . وهذا ما لمسهُ كوستال عن كثب ، لأنه لم يجد أقل فرق في نشاطه الفكري والجسدي ، وفي صفاء ذهنه ورباطة جأشه ، وسيطرته على نفسه ، وكل ما يجعل للانسان قيمة محترمة ، بين فترات امعانه في اللذات ، وفترات الصيام والحرمات ، اي في ايام الحرب وفي اثناء رحلاته الجبلية .

وتبين له انه بقدر ما يبذل للحب تزداد عاقبته الفكرية والجسدية . وكان كلما خرج من خلوة غرامية أحس بان حياته تتجدد ، كالكلب الذي يُطلق من عقاله ، فيركض حول اصحابه كالمجنون .

وبكلمة موجزة وصريحة ، كانت الافرازات الجنسية ضرورية لصيانة صحته .

لقد بُعث حياً من ذلك العالم الآخر ، عالم المرض والموت ، عالم اليأس والافكار المحمومة ، فلم يشأ ان يعود اليه من جديد ، بل عاد الى الحياة ، الى حياته المعهودة كالناقم الخارج من المستشفى للمرة الاولى ، كالضابط العائد من الصحراء الى المدينة بعد متاعب وأخطار استغرقت سنتين . وهذا ما جعله يتحمس الى اقصى حد لقيامه بعمل تأفه بسيط ، ما كان إلا نزهة عادية في شوارع باريس . ولهذا السبب ، ما كعاد يمشي عشر دقائق ، حتى تهيج تهيجاً مشوباً بقلق غير مألوف ، فاذا به هذا المريج العجيب من الحماسة والاضطراب عبء ثقيل لا يطاق .

كان مصدر قلقه تساؤله عن الطريدة التي ستقع بين يديه ، وخوفه من الاخفاق . كان قلق مصارع الثيران حين ينزل الى حلبسة الصراع معرضاً نفسه للنطحة القاتلة ، قلق من نجا من تنين المرض الخفيف ، وصرع هيبوغريف الزواج ، وقهر مسخ الانتاج الادبي فراح يطرحه ارضاً كل يوم . وما كان عليه الآن إلا ان يبطح الغول ، وان يلقيها على ظهرها

رافعة قواثمها في الهواء دون ان يعاني أقل عذاب .
أحس بالم في جفونه ، واستولى عليه عياء مقدس حفر في وجهه
تجاعيد عميقة ، اذ عاوده أسفه الدائم لكونه لا يستطيع ان يأخذ جميع
صبايا مدينة باريس الجميلات بلا استثناء .

وقبل ان يصل الى زاوية شارع ريشليو بقليل (وكان هناك بيت ذو
منفذين ، وهذا اعلان للقراصنة) ، وقف تحت قنطرة احد الابواب ،
واغض عينيه لتهدئة الارتجاج الذي كان يصعد من اعماقه ، وليخفف وتر
وجهه المتجهم الذي كانت ترتسم عليه معاني النهم ، والجشع ، والنفاق ،
والبليغ التعمير الى حد جعل صاحبه يتضايق من حمله في قبة جسده
ليُفهم الجميع ان هذا المخلوق خطير يجب عليهم ان يحدروه ، بينما
كان يودّ ان لا يسترعي انتباه احد ، وان يغفل الناس عنه حين
يُر ٣٣٠ .

وفجأة سمع اصواتاً ضعيفة ، سخيفة لشدة هزائها... كانت اصواتاً
من عالم آخر، من دنيا الاشباح والديدان ، رفعت فوق الجهور موسيقاها
الناشزة كأنها صادرة عن وتر مقطوع في آلة موسيقية مصدوعة ، هذا
اذا لم تكن هذه الاصوات اغنية كئيبة ينشدها أجنّة ما يزالون في
الارحام ، وكانت تقول : « اشترُوا الكتاب المقدس ! » وكانت الدمامة
المسخية البادية في وجوه اصحاب هذه الاصوات الناصرين^١ تغني عن كل
تفسير ، فقال كوستال في نفسه : « أيحوز ان اموت قبل ان ارش احد
هذه المخلوقات بالنفط واضرم فيه النار ؟ »
أشاح عنهم بوجهه متألماً من شدة الغضب والقرف ، وهو الذي تعود
ان يلوذ بالفرار كلما تعرّض لمثل هذه البشاعات الخفية .

١ - نسبة الى مدينة الناصرة في فلسطين ، ويعني بهم الكاتب دعاة يسوع الناصري
والمبشرين .
تعليلهم .

وعلى زاوية ضاحية مونمارتر ، وقف برهة وهو متردد حائر ، لا يدري
أيشتهي امرأة وقع عليها نظره او لا يشتهيها . كان يبدو عليها نوع
من الفقر الكثير الوجود ، خصوصاً في حداثها الرث . والحق يقال انها
كادت تعجبه . فأخرج من جيبه قطعة نقد معدنية ولعب بها لعبة :
« الطغراء او النقشة » ، قائلاً في نفسه : « الطغراء تعني اني اشتهي ، وتعني
النقشة اني لا اشتهي » . ولما فتح كفه رأى النقشة ، فترك المرأة تمضي
في سبيلها .

وعلى مقربة من شارع روجون ، أشعل لرجل عجوز سيارته ، فأحس
انه قام بعمل خيري . والمرء لا يعمل إلا ما يستطيع .
وبعد خطوات قليلة ارتعش اذ وقع نظره على مشهد غريب ، فقد
مرت أشعة الشمس من خلال زجاج احدى سيارات الاوتوبيس ، فنقلت
أرقام هذه السيارة الى ظهر احد الركاب ، فبدا كأنه من المحكوم عليهم
بالاشغال الشاقة .

أعجبه هذا المشهد ، فقال يخاطب نفسه : « إيه ! ليس في الحياة إلا
ما هو جدير بالاهتمام ! »

وعلى مقربة من ضاحية « بواسونيار » دخل الى احدى المبالو .
وكان قد رأى احدى صديقاته القديمات مقبلة صوبه ، فارتعد خوفاً
من ان ينتهي يومه بعمل خيري ، وهو الذي بدأ حافلاً بالوعود الطيبة .
لم يكن راغباً في الحصول على تلك الصديقة ، إلا انه لو التقاها
وجهاً الى وجه لدفعته الرحمة الى مرافقتها لتمضية السهرة معها في مكان
ما من أمكنة اللهو ، عوضاً عن متابعة سيره في الشوارع على غير
هدى .

وفي المبولة اخذ يردد : « لا انا الله لا يتخلى عني ا » ولم يكن قوله
هذا تجديفاً على الله لأنه لم يكن يؤمن به . وبالفعل لم يتخلى الله عنه ،
فتواتر صديقه القديمة عن الانظار .

وعاد الى الغوص في الشارع ، فسار على طريق مصيره . ثم راح يفكر باليلة المقبلة ، بليلة يرتاح فيها وجهه ، فلا يُحوم عليه شيطان ، ولا تساوره احلام .

وكان يفكرّ ايضاً باللحظة الاولى من الفجر المقبل عندما ترتجف انوار المدينة ارتجافاً خفيفاً كأنها تعلم انه لم يبق لها من حياتها الا بضع دقائق . اما النجمة العالية في السماء فلا ترتجف ، بل يعترها الجود ، لانها تعلم ، هي ايضاً ، انها على وشك الانطفاء . فالفجر الحجول ساعة لم يقدرها الناس حتى قدرها ، فعدت كشخص مرهف الشعور ، حيي ، لا يتباهى ، ولا يتبجح كما تفعل ساعة غروب الشمس لكثرة ما تغنى بها الكتاب .

ووجه العظمة في الفجر ان الناس يتساءلون عندما يطل : ما الذي سيحدث اليوم ؟

فالشك يخامر الاحياء امام بداية النهار كما يخامرهم امام حياة ما تزال في مطلع الشيايب . وكانت كوستال ، في مثل هذه الساعة ، يجلس الى طاولة عمله وهو نير الفكر ، نقي الذهن ، مصمم على الانتاج ، وقد ارتوت عيناه من النوم .

واول ما يطرق اذنيه في الصباح طرطقة اوعية اللبن يجعلها صبي ليوزعها على المنازل ، فينهض من وراء طاولته ويذهب الى النافذة ، وعلى صدره اضواء طفولة النهار كأنها غسل مذهب ، فيطيب له ان يسمع اشاعات اليوم الجديد ترتعش على جسده .

كان يذهب الى نافذته ليكون اول وجه يقع عليه نظره وجهاً فتياً كأنه بشير الخلاص وضمانة الامل طيلة اليوم المقبل .

ثم تأتي فرحة الماء ، فرحة الاغتسال على الطريقة الرومانية القديمة ، فقد جعل كوستال من حياته حماماً كبيراً . ومن المدهش ان لا تكلف كأس الماء البارد ستة فرنكات في المطعم ، مع انها افضل من

جميع الخمر .

ومن المدهش أيضاً ان تعاطينا مع الماء لا يعتبر خطيئة ، مع انه لذيذ ممتع ، ولا خوف من صدور حكم يقضي علينا بالسجن اربع سنوات اذا دخلنا في مغطس كما ندخل في احدى الفتيات العذارى ، مع ان العملين متساويين بالبهجة والسرور .

ومما يثير الدهشة اننا لا نتعرض للعقوبة اذا سكبنا ماءً على رؤوسنا . فيا للحقائق - حقائق الخواس - ما اجملها انها في نجوة من العقاب ، ولا حد لها إلا الشبع والارتواء !

وبعد الحمام ، يخرج من منزله ، ويذهب الى غابة بولونيا حيث تفرّد العصافير لنفسها ، وهناك يبدأ عمله في مخطوطته وهو يتمشى .

يرى اولاً سيارات الاثرياء الاحساء ، ثم يظهر الشعب المغمور الذي يبدأ عمله في الساعة السابعة ولا يعرف البغض ، وفيه الكتّاب الصغار في الدوائر الذين يعرفهم كوستال جميعاً ويصبحهم بالخير ، وعمال الليل المرهقون تعباً ، والحراس الذين لا يستطيعون ان يدلوك على طريق اللهو ، والجزّارون المنطلقون على دراجات هوائية ذات ثلاث عجلات ، فاذا رأوك تنظر اليهم ساروا على عجلتين ليظهروا لك عظمة براعتهم ، كما يبول الكلب اذا رآك ليملاً نفسك اعجاباً به .

يعود حراس الليل الى منازلهم بعد ان يكونوا قد حمو الاثرياء الذين لا يُقتلون لانهم يدفعون اجوراً لابناء الشعب ليقتلوا عوضاً عنهم . ويذهب الاثرياء الى السماء بعد موتهم ، لان ذوبهم يدفعون حسنات قداديس عديدة لراحة نفوسهم .

ولا تضي فترة قصيرة حتى يظهر الرياضيون المجانين في قصابهم الضيقة ، وهم يركضون ، ثم يقفون ليقوموا بحركات موقّعة . واخيراً يطل الاغنياء الذين يتعنتون كي لا يدفعوا نفقة لطلقاتهم ،

ويسخنون ابنهم الوحيد في المدرسة الداخلية ، لكنهم يأخذون الى
النزهة كلهم العزيز لأن ثمنه الفا فرنك ، لا لأنه يجب التنزه .

اما الصبيان البورجوازيون فيسيرون في الهواء الطلق كأنهم فقايع
صابون ، بينما يمشي الفجار المحترفون متظاهرين بالرشاقة واللامبالاة ،
ووجوههم موصومة بالكآبة ، ونظراتهم السريعة تنم عن القلق
والاضطراب .

وفي نهاية هذا المشهد يبدو نهر السين الازرق وما وراءه من الهضاب
الزرق ، والضباب المائل الى الزرقة ، وقبة جرس توحى بكل ما في
الشعب الفرنسي من النزعة الروحية والتقوى . واذا كنت لا اكتب جملة
عن هذه القبة فلأني لست رجلاً .

وفي النهر مراكب صغيرة تقلب مدخنتها عندما تمر تحت الجسر ،
فتشبه في عملها المرأة لدى استسلامها للرجل .

ولا تنس اشباه البورجوازيين والبورجوازيات في رواحهم ومجيئهم ،
والخيول اللامعة النظيفة التي تحرك قفاها بطريقة غير لائقة ، وهي
فخورة بما في وجوهها من الشرايين النافرة ، ناهيك بالاولاد الذين
يخرجون ، فترى على وجوههم ان الحشرة في داخلهم ايضاً ، وهم على
درجات هوائية لها لون اليعاسيب ، ولون السم ، وألوان اخرى لا مثيل
لها في واحات الصحراء . انهم اولاد مدهشون ، جديون ، يسيرون
وكأنهم في حلم ، ويتمرنون على دورة فرنسا الرياضية ، فيزعجون
بمركاتهم الفراشات البيض التي لا تدرك لهذه الحركات معنى .

وفي كل مكان من الغابة يتعرف كوستال الى بقعة تضائق فيها
وعرف الذل بسبب امرأة ، فيعيد عنها نافراً كحصان يحفل لدى وصوله
الى منعطف رأى فيه افعى في زمن مضى .

كان يجتنب هذه الاماكن ، فيخيل اليه لدى اجتنابه اياها انه يأكلها .

ولما وصل الى المكان الذي قبّل فيه سولانج للمرة الاولى ، خاطب

نفسه قائلاً : « ماتت الاعمى ، ومات سمها ! »
وخطر في باله ان ابنه سيصل بعد ثمانية ايام ، فيردف نفسه وراءه
على دراجته الهوائية الزمردية الرفاريف ، ويصر على السير في طريق
محظور السير فيها ، ويضع يده على كتفه كلما اوشك ان يقع ارضاً .
وفي بهجة الصباح يمشي مع ابنه بين العصافير الضاحكة استبشاراً
بيوم جديد .



أسيرُ بكِ دون رحمةِ وانا اعلم عذابك .
(اغنية بدوية في جنوب تونس يخاطب فيها الحَيَّال فرسه)

ان الحياة التي تتحرك بك اكثر مما تودّ لتشبه تلك السلاسل الكبيرة
التي لا تكاد تحركها بتؤدة حتى تقوى عليك وتجري يدك ، وربما جرتك
كلك إن لم تتراجع فوراً ...

ل « أ » صديق من ايام المدرسة هو « ب » . ومنذ ان اقام « ب »
في شارتر، واصبح يحيي مرة ، كل خمسة عشر يوماً ، لتمضية ثنائي واربعين
ساعة في باريس ، رسخ في ذهنه انه يجب عليه ان يمضي واحدة من
سهرتيه البارستين مع « أ » .

وكان « أ » يرى ان هذا كثير ، وان صداقته القديمة ل « ب » تكفيها
سهرة واحدة كل شهرين . وكالت بؤدة ان يقول له ما قاله النبي محمد
لأبي هريرة : « يا أبا هريرة : زرني غباً ، تزدد صداقتي لك » (عن
سعدي) . غير انه لم يقل له شيئاً ، بل اعتذر مرتين على التوالي ،
وكان ذلك كافياً ، اذ فهم « ب » قصد صديقه ، وراح يباعد بين
دعواته .

وقد يكون صديق ايام المدرسة رجلاً غليظاً ، غارقاً في اعماله المادية
الرامية الى كسب المال ، فهو انسان ، او من بذرة الانسان ، اي ان ليس

فيه نوع من الكرامة وحسب ، بل نوع من الذكاء يضع به نفسه في مكان الآخرين ، ويرضى بان يحسني من السهرة المشتركة سروراً اعظم من سرور صديقه بها . وكان يعترف بان من حق هذا الصديق ان يتمتع بالسهرة مثله ، واذا كان لا يفعل ، فليس في التفاوت بينها ما يمس جوهر صداقتها .

وليست الحال كذلك مع المرأة . فمن الصعب والمتعب جداً ان يفهمها المرء انه لا يحبها ، او لم يعد يحبها ، وان وجودها الى جانبه اصبح وقرأ عليه وسبباً لاضاعة وقته ، وان كل ما يلتمسه منها هو ان تتوارى عن الانظار .

من يحاول اغراق امرأة على مهل كمن يحاول اغراق هر : ففيها حيوية شديدة المقاومة . لذلك يمكن اعتبار القطيعة افضل انواع العلاقات بين الرجل والمرأة .

أحسن كوستال بذلك النوع من الانزعاج الذي يشعر به المسافر عندما تبتعد الباخرة عن الميناء ، فيحرك ذراعيه مبتسماً لذويه الواقفين على الرصيف ، ولا يستطيع مخاطبتهم لبعده المسافة بينه وبينهم ، فيحار في امره ، ولا يدري كيف يجب ان يتصرف .

كان ، في الواقع ، قد ودّع سولانج وداعاً اخيراً ونهائياً ، وأصبحت علاقته بها مقتصرة على تبادل بعض الابتسامات المبهمة ، بينما كانت المسافة بين مواعيدهما تزداد بعداً حتى تصل الى القطيعة التامة .

راحت تتصل به هاتفياً كل مساء ، في الساعة العاشرة ، لعلمها بان الخادم لا يكون في المنزل في هذا الوقت ، فيضطر كوستال الى مخاطبتها ، فلتسأله : « متى نلتقي ؟ »

وكم كان يضغط على نفسه ويعاني من الغيظ المكبوت كي لا يقسو عليها ويفهمها انها مزعجة !
وكان على الآنسة دنديو ان تدرك دخيلة نفسه من صوته البارد ،

المرتبك كأنه يتخبط في الوحل . إلا انها لم تشأ ان تفهم . ففي كل مخابرة من مخابراتها كان يقول لها في ختام الحديث : « اني مثقل بالاشغال اليوم ، وسأرسل اليك اشارة بعد بضعة ايام » . ومرة في الشهر كان يقول لها : « اني على موعد مع احدهم يوم الثلاثاء ، الساعة الحادية عشرة والنصف ، أفتردين ان نلتقي في الساعة العاشرة والنصف على مقربة من المحطة الفلانية ؟ »

وكم كان يحتمد غيظاً من مواعيده مع النساء على ارضفة الشوارع !... غير ان سولانج كانت تجيب محتجة : « ألا تعطيني إلا ساعة واحدة ؟ انها لا تكفي ! »

في بداية هذه المرحلة كانت تتذرع باعذار سخيفة لتبرر اتصالها به ، كأن تبدأ حديثها قائلة : « كلمة واحدة ... فصاحب مكتبة أثنان طلب اليّ ان اسألك أوافق على توقيع نسخ من مؤلفاتك في مكتبته تلبية لرغبة القراء ؟ » وكان هذا اختراعاً محضاً ، فصاحب المكتبة لم يطلب اليها شيئاً ، لأنه منذ ثمانية ايام طرح سؤاله على كوستال وتلقى منه جواباً .

كان هذا في البداية . اما اليوم فانها لا تبحث عن اعذار ، بل تسأل بلا مقدمات : « متى نلتقي ؟ » فيجيبها : « أما التقينا منذ ثمانية ايام ؟ » فتحتج : « ثمانية ايام !... التقينا في الرابع والعشرين من الشهر الماضي ، منذ سبعة عشر يوماً بالضبط ، وانت تعلم اني أودّ أن أتحدث اليك ! »

قال لها يوماً : « اسمحي لي بان أكون صريحاً : فسرورك بالتحدث اليّ يبدو لي غريباً وبعيداً عن المنطق ، وأكاد أقول أنه نوع من المرض ! »

وكان يعني ما يقول ، فلقاؤه بها كان يجعله كئيباً ، بادي الاستياء ، قليل الذوق ، فكيف يسرها وجوده الى جانبها وهو في مثل هذه الحال ؟

وكانا يتحدثان في موضوعات تافهة ، كأن احدهما غريب عن الآخر ،
فتمسك بيده ، او يمسك بيدها بدافع العادة ، بلا شعور .

لم تعد راغبة في الزواج إلا بأحد اصدقاء كوستال لتحافظ غلى هذه
« الصداقة الصافية » القائمة بينها ، وهذا ما كانت تحشى ألا يتسنى لها اذا
كان زوجها المقبل غريباً ...

اضطر كوستال الى قطع خط الهاتف كل مساء معرّضاً نفسه لخسارة
مخابرات مهمة متعلقة باعماله . فجعلت تتصل به في الساعة الثامنة
صباحاً . ولما قطع الخط في الصباح ، انهالت عليه رسائلها بلا انقطاع ،
فما ردّ على واحدة منها .

ضايقته الى اقصى حد ، حتى الارهاق . فاطول ساعات السفر هي
الساعات الاخيرة .

كان يقبض على رأسه بكلتا يديه قائلاً : « لا ! لا ! ليس في العالم
شيء يبعث السأم في النفس كالمرأة ، اذا كانت تتألم ! لسنا بحاجة الى
حبها ، الى هذا الحب الذي تريد فرضه علينا . حين تحتاج لان تكون
محبوبة ... فانها تصبح مخلوقة ثقيلة الظل ! فأفضل عليها شخصاً
يجب كسب المال . أجل ، الى هذا الحد من احتقارها تدفعني بالحاحها
العجيب . المرأة لا تدرك انها مزعجة ، ولا تفهم ما تخلق في الرجل
الشاب من ضيق الصدر والنزق . لذلك نستطيع تحديدها كما يسلي :
« المرأة ؟ انها مخلوقة تجتذب الرجل باغرائها ، ثم تطارده بلا هوادة » .
والمرأة التي لا تطارد نادرة الوجود . وكم اود ان يجري البحث عن
هذا النوع الرصين من النساء لمنحه وسام جوقة الشرف ! »

كان من عادته ، في الربيع ، ان يذهب الى مكان معين من غابة
بولونيا ، بالقرب من منزله ، لينصرف الى التأليف . ومن سوء حظه انه
أطلع سولانج على هذه العادة . وذات صباح ، بينما كان جالساً على بنكه
المفضّل ، اقبلت عليه يستخفها الطرب ، وفي وجهها آيات من السرور

والإبتهاج ، قالت :

— لا تظن اني أتيت لاراك . كنت ذاهبة الى بيت فلان في شارع
ميكال أنج ، فمررت من هنا لانتشق الهواء النقي البارد ، وارى الحضرة
المنعشة .

فطوى اوراقه . ولسنا بمحاجة الى شرح الغيظ الذي يستولي على
الكاتب عندما يقطع عليه احد المزعجين مجرى افكاره ، فهذه فكبة
يعرفها الجميع .

احتفظ بها عشر دقائق ، ثم صرفها عنه بقسوة . فالمرأة الفضولية
تخلق دائماً رجلاً قليل الادب . ولما همت بالانصراف سألته : « متى
نلتقي ؟ »

اختار كوستال لعمله بنكاً آخر بعيداً عن الاول ، ولم يستطع العمل
إلا تحت كابوس القلق ، ليقينه بان سولانج ستظل تبحث حتى تكتشف
مكانه الجديد .

وفي هذه المرحلة من حياتها لم تعد تلك الفتاة الأنوف التي عرفها ،
بل اصبحت كلابية ، لصقة ، كلاعب كرة القدم الذي يكون مكانه
خلفك فلا تراه إلا امامك . فاذا خرج من اجتماع ادبي التقاها في
الشارع ، وسمعا تقول بدهشة مصطنعة : « انت هنا ؟ ما الذي جاء
بك الى هنا ؟ » وتكون قد قرأت في احدي الصحف انه
مدعو الي هذا الاجتماع ، فجاءت تلتظره على الرصيف . واذا مرّ
بالمكتبة التي تعرض مؤلفاته ، عثر هناك « صدفه » على سولانج .
ومصدر هذه الصدفة ان صاحب المكتبة قال لها : « السيد كوستال
سيمر بنا غداً ، الساعة العاشرة » .

كان وجهه يتجهّم كلما التقاها ، فلا تلاحظ شيئاً ، او تتظاهر بانها
لم تلاحظ شيئاً ، فتتابع تصرفها هذا المقيت يهدوه لتثير حفيظته عليها ،
وتجعلها ينفر منها نفوره من الفطاعة .

قلنا مرات عديدة ، في الكتب الثلاثة السابقة ، اننا نجد احياناً في بعض اشخاص رواياتنا ملامح تفوق قدرتنا في مجال الدرس النفساني . ونفضل الاعتراف بهذه الحقيقة على ان نذرّ الرماد في عيني القارئ محاولين تبرير عجزنا باساليب الشعوذة والنفاق . لذلك لا نحاول تفسير حالة الانسة دنديو، ولا ندرى هل غرب عن ذهنها انها تزوج كوستال ، أم أعمتها المواعيد التي كانت يضرها لها ، على سبيل الصدقة ، مرة كل ثلاثة اسابيع ، فحسبتها برهاناً عن عطفه عليها ومحبتها لها ؟ ولا نعلم هل أدركت هذه الحقيقة وأصرّت بعبادتها على متابعة خطتها دون أن تكون بحاجة الى الاقتران به ، أو الى مضاجعته ؟ فاذا صحّ ذلك تكون مدفوعة برغبتها في التحدث اليه وهي تعلم انها تفرض عليه سخرة كريمة .

ومها يكن من الامر فقد خيّل الى كوستال انه يرى تحوّلًا مريعاً من تلك التحولات المسخية التي تقوم بها الطبيعة ، اذ تنقلب الدودة فراشة ...

اجل ، انقلبت سولانج الى اندريه هاكبو . هذه الفتاة التي كانت متحفظة ، عزيزة النفس ، وتأبى ان تكون البادئة في المكالمات الهاتفية ، أصبحت كالكلب الذليل يتمرغ على قدميك ليحظى بقطعة من السكر . انها في سعارها الرهيب تأبى ان ترى ما يفقأ بحقيقته العموت ، وتصرّ على الالتصاق بما في اعتقادها الضيق من الثقة العمياء والاساليب الاستراتيجية العديمة الفائدة . فهي اليوم المثل الاعلى في الإرادة العاجزة ، الباطلة .

انفجرت الحقيقة واضحة متألقة ، فجميع النساء اندريه هاكبو ... واذا باندريه هاكبو تبدو كأنها وثن عملاق ، اكبر من العالقة العاديين كتمثال آئينا الذي نحته فيدياس^١ . وهكذا التمثال بدت مخيفة ،

١ - اكبر تمثال عرفه الاغارقة . ولد في آئينا حوالي سنة ٤٧١ قبل الميلاد .

وسخيفة ، وبالغة منتهى العظمة ، كأنها جمعت في نفسها جنس مليارات
مليارات من النساء اقبلن عليها وانديجن بها ، ليصبحن اندريه
هاكبو .

فأندريه هاكبو هي « المرأة » .

وذات صباح ، كان كوستال يرتدي ثيابه بسرعة ونزق ، لأنه مدعو الى
الغداء في المدينة الساعة الواحدة ، وكانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة
والنصف ، فحسب ان تأخره عن الموعد لن يكون أقلّ من عشرين
دقيقة ، وإذا يجرس الهاتف يرت ، وإذا بصوت سولانج يطرق مسمعه
كأنها لم تدرك بعد الى اي حد تضايقه .

قالت له : « أما تزال حياً يرزق ؟ »

وكان يتسلى برفع رغوة الصابون عن أذنيه ، وبوضعها في ثقب سماعة
الهاتف ، فما كاد يسمع سؤال سولانج حتى ثار في صدره بركان
الغضب .

انهارت في لحظة واحدة جميع الجهود التي بذلها خلال ستة اشهر ،
ضاغطاً على نفسه وأعصابه ، ليظل مهذباً ، محسناً ، يجود بالصدقات ،
فاذا به ينتفض كفصن شجرة كان مشدوداً الى الارض ثم افلت ...

قال لها :

— اسمعي جيداً ، يا آنسة دنديو : أكون لك شاكراً اذا أقلعتِ عن
الاتصال بي تلفونياً كل ثلاثة ايام .

— اعذرني ، فاني ازعجك ...

تفوهت بهذا الاعتذار متلعثمة ، فسقطت كليتها سقوط عصفور اصابه
الرصاص ، فهبط ميتاً كالحدى اوراق الخريف . فأجابها :

— اجل ، انك تزعجيني . لنتفق ، اذا شئت ، على ان نلتقي مرة في
الشهر . التقينا في الاسبوع الماضي ، فخابريني بعد ثلاثة اسابيع . والى
اللقاء .

وقطع المكالمة .

انقطعت الآنسة دنديو عن مكالمته هاتفياً وعن مراسلته . فعندما ندخل شخصاً ما الى حياتنا يساورنا القلق ، ونبادر الى البحث عن طريقة نخرجه بها . إلا ان هذا القلق غير ضروري . ففي اغلب الاحيان تتولّى الحياة مهمة انقاذنا ، وتقوم بها على مهل ، في هدوء تام ، وبقبول الجانبين ، اللهم إلا اذا تعذر التوفيق بين الجانبين وأقدم احدهما على قتل الآخر .

هُزمت الآنسة دنديو بضربة قاضية في هذا الصراع الطويل .
واليك بمراحل الهزيمة :

في الجولتين الاولى والثانية ، سجّل كوستال بعض التفوّق . وفي الجولة الثالثة أصيب بضربة شديدة ، فسقط أرضاً ، وقال : « نعم » ، مذعناً لمشروع الزواج . فلو تابعت سولانج ضربه في تلك الفترة العصبية ، ولو قالت له أمها : « الزواج قبل انقضاء ثمانية ايام ، أو الوداع الى الأبد » ، لاستسلم وكانت هزيمته كاملة ...

إلا انها تركته يستعيد قواه ، فهبّ واقفاً ، وكان بطاشاً عنيداً ، فتابع الصراع حتى طرحها أرضاً بضربة قاضية ، لولاها لانتصرت عليه .
وانتهى كوستال الى الاعتقاد انه هو الذي فرض هذه اللعبة وأدارها على هواه ، فقال في نفسه : « احتفظت بقواي للجولة الثالثة ، فكان النصر للتفوّق ! »

وتعمق في تفكيره ليبرر تصرفه ، فقال :

« لم تعذبني بوصفها امرأة ، لأنني لا أرضى بان تعذبني النساء . لم أتعذب بسببها هي ، بل كنت وحدي مصدر عذابي . لم تكن سولانج إلا ذريعة من شأنها أن تضاعف قلقي واضطرابي أمام الزواج . لم يكن من المحتمل أن أتعذب لأجلها لأنها لم تسيء إليّ قط . فبعثت عذابي ان سولانج أصبحت « خطيبة » ، والخطيبة بجد ذاتها هي الشيء الذي لا

يطاق . والحقيقة الراهنة هي اتي تأملت من الفكرة التي تكوّنت في نفسي
عن الخطيية - كل خطيية .
وبعد هذا التفسير ، انتفضت فيه الحياة من جديد ، فقال : « كلبا
هجرتُ امرأة تجددت في الحياة » .



الخاتمة



العام ١٩٢٨

١

من

بيار كوستال
باريس

الى

اندرية هاجو
سان ليونار

١٧ ايلول ١٩٢٨

آنستي العزيزة !

بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٢٧ كتبت اليّ حوالي مائتي رسالة . لم يكن
عملك هذا باطلاً أو سيئاً ، وقد حملت نفسي أحياناً عناء الرد على بعض
هذه الرسائل .

ومنذ عودتك الى الكتابة في ٣٠ كانون الاول ١٩٢٧ ، حردت حرداً
لطيفاً استغرق ستة اشهر ، تلقيتُ منك احدى وعشرين رسالة ، لم أفض
منها واحدة لدى وصولها اليّ ، بل تركتها كلها في غلافاتها ، وحفظتها كما
هي في ملف خاص . وأصارك بان هذا الملف كان أصلاً علبة حذاء ،
وما دام الحذاء الذي كان فيها قد أصبح اليوم في لندن فان شرفك لم

٢٦٣

يس . كنت أود أن أعلمكم رسالة تستطيع الفتاة أن تكتب إلى رجل .
أما دون أن يرد عليها ، فعلمت أنها تكتب إحدى وعشرين رسالة ، وليس
هذا بكثير .

لا أدرك تماماً ماهية القوة الغربية التي تدفعني اليوم للكتابة اليك
بعد ان حملت نفسي على فض جميع رسائلك ، او بالحري اني اعرف هذه
القوة - وبالأسف ! - اكثر من اللزوم . ولنسمها ، اذا شئت ، في هذه
المناسبة : احترام شخصية الانسان التي احترمها فيك .

افهميني جيداً : اني دائماً مقيم نصف اقامة ، بوصفي مؤلفاً روائياً ،
وحتى بوصفي انساناً ، في الاماكن التي لا احبها . واذاً ، فأنا مقيم قليلاً
فيك ، شئت أم أبيت .

منذ ايام ، وقعت في يدي رسائلك القديمة التي يرقى تاريخها الى عام
١٩٢٧ ، فاستغربت قولك لي اني احاول ابتزازك . كيف يخطر هذا
الابتزاز في بالي ما دمت لا اريد منك شيئاً ؟

يقولون ان العطاء يفتح مجال الارجيف ، وانت لم تعطني جسديك
لأخيفك بأثارة الفضائح . ليس بيننا شيء ثابت ملموس ، ولم آخذك مرة
واحدة ، على ما أذكر .

تصفحت رسائلك وكنستها بنظري في بعض صحافتها . أتذكرين تلك
التي كتبتها في باريس ، في بداية اسبوع حافل بالالام ؟ كانت رسالة
« رسمية » تبدأ هكذا : « النار تهدر في الموقد ، وباريس تموج تحت
المطر » . لا استطيع ان امنع هذه الجملة البسيطة من ان تكون بداية
ارتعاش في شعوري . فقد تمثلت في غرفتك بالفنسدق الصغير ، حيث
سرق الخادم قارورة عطر عزيزة عليك ، ورأيتك بعين خيالي ترتجفين
برداً ومعطفك على كتفك ، تكتبين إلى بشغف مجنون تحت مصباح
كهربائي ضئيل وبعيد في سقف الغرفة .

ثلاث سنوات مرت على تلك الليلة . وثلاث سنوات من حياتي توازي

بثرائها حياة رجل آخر بكاملها ، إن لم أقل حيوات عديدة . ولتقف عند هذا الحد . غير ان بعض الصور تثبت في ذهني وتستقر فيه ، واعتقد انها ستبقى مدى الحياة .

افهميني جيداً : لم أكن لك قط ذرة من الشهوة ، ولا ذرة من الحب ، ولا ذرة من المودة ، ولا ذرة من العطف . وليس لك اليوم في نفسي اكثر مما كان لك من قبل . لكني احبب عليك ، فما سبب هذا الحذب ؟

ليس من شأن حبك لي إلا ان يثير نغمتي عليك ، لأنني لا احبك . واذ كنت قد تعذبت لأجلي ، فاني لا ابالي مطلقاً بمذابك لأنني ما احببتك قط . وفي اعتقادي ان حذبي عليك نلجم عما بيننا من التناسق والتجانس . من يقرأ رسائلك المكتوبة عام ١٩٢٧ يحسبك خالعة العذار ، ومن يقرأ رسائل عام ١٩٢٨ يظنك حقاها . أما رسائلك يحملتها قسداً على انك ثرثرة مزعجة ولصقة جديرة بالخلود .

هذه أحكام قد تخطر في بال الناس ، لكنني لا اتبناها . وقد وبخني بعضهم على اني عاملتك بكثير من رفع الكلفة . وقيل لي انه من غير المعقول ان يضيع رجل مثلي وقته في علاقة مع فتاة مثلك عديمة الامة وقليلة الشأن ، وان مغامرتي معك ضرب من خمول الفكر او من الرذيلة . إلا اني اعلم ما اعلم . ففبك عنصر من العظمة لا احسبني غطتاً في قدره . احب رسائلك الاخيرة ، فهي نشيد حزين ضائع كالاناشيد التي يتغنى بها الاولاد وتروي بعض الحكايات .

ألا تدركين بوضوح ما اعني ؟

إيه ! من ذا الذي علمك ان قدركي بوضوح ؟

ان تربية الفتيات عندنا فاسدة من اساسها .

أكنت قليلة الاحتشام ؟

لا بأس عليك ، فجميع الفتيات يعرضن نفوسهن على الرجال مثلك ،

لكن في مناورات لا تخلو من البراعة

كان الجندي المختص بخدمتي في ايام الحرب يقول لي : « سيدي الملازم ، ان صراحتك ستقتلك ! » لذلك اقول لك ان العزلة تجرّ الناس الى اعمال دنسة .

بقيت الشتائم التي وجهتها اليّ . فلا اريد التعليق عليها ، لأن من يشتغني يسليني .

وأخيراً ، كعدت أنسى رحمتي الكبرى للنساء ، وانت أدرى الناس بفاعليتها ونتائجها . فحين افكر بالتنبؤات العديدة التي كان الاممال من نصيبها لما رفعتها يد رجل ، تدهمني رغبة في طلب الغفران من النساء اللواتي لم يجدن في الحياة من يحبهن .

أودّ صادقاً أن أراك . ومن البديهي ان علاقتنا ستبقى على حالها فلا يتبدل فيها شيء على الاطلاق . ولنفترض ان هذه الرغبة الطارئة في نفسي ليست إلا نوعاً من الفضول المقدّس ...

ك

حاشية اولى . - وقع نظري في احدى رسائلك على نبذة تعبرين بها عما انتابك من التأثر العميق لدى رؤيتك ، في متحف « دنيري » ، تماثيل اقمى يرقُ جسما من جراء التفافه على بيت سلحفاة ، خصوصاً على اطراف هذا البيت . وقلت ان رجلاً ، في مكان ما من الصين ، وقف منذ قرون مبهتجاً بمشهد الافمى الملتفة على السلحفاة ، فبادر الى نحت تماثيلها ، وصوّر رقة جسدها على اطراف البيت . وسنة ١٩٢٨ ، وقفت فتاة من « سان ليونار » تنظر بدورها الى هذا المشهد وتتأثر . ويسرني ان تكون جملتك التي عبّرت بها عن تأثرك في هذا الصدد من الجمل التي تقودني اليك .

ويا لها من سلسلة عجيبة بدأت يوم نظر الفنان الصيني القديم الى

جسم الانفى الذي رقّ بالتفافه على بيت السلحفاة ، وما هي تستمر حتى هذه الدقيقة وتجد ما يبررها تبريراً رائعاً .

حاشية ثانية . - اما قولك لشقيق صديقتك الشاب ان عليه ان يقرأ والقلم في يده ليدون ما يحول في خاطره ، فمن الاقوال التي تثير الهزم والسخر . فالكون بأسره يضحك مستخفاً حين يسمع هذه النصيحة لسبب واحد هو انك على حق .

حاشية ثالثة . - رسالتك المؤرخة ٢٩ كانون الاول التي عبّرت فيها عن رغبتك في مجامعتي كانت في غاية الروعة . من اين نقلتها ؟ أمن مذكرات إلآنسة دي لسبيناس^١ ؟ أم أدريان ليكوقرور^٢ ؟ أم ماري دورفال^(٣) ؟

حاشية رابعة . - انك جيدة الصحة ، لم تظهر في جسمك دماغل ، ولم تصابي بالافتقار الى المادة الكلسية . فانت اذاً ارض جيدة للزرع . عافاك الله !

-
- ١ - جولي دي لسبيناس (١٧٣٢-١٧٧٦) من ارقم سيدات المجتمع الفرنسي في عصرها . جعلت منزلها نادياً للعلماء والادباء الذين وضعوا دائرة المعارف الفرنسية ، وكانت صديقة الفيلسوف الفرنسي دالامبير .
 - ٢ - ممثلة فرنسية شهيرة (١٦٩٢-١٧٣٠) .
 - ٣ - ممثلة فرنسية (١٧٩٨-١٨٤٩) مثلت ادوار بطلات التمثيليات الرومنطيقية ، وكانت لها علاقة غرامية متينة بالشاعر الفرنسي الفريد دي فينيي .

من

اندرينه هاجبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

٢٠ ايلول ١٩٢٨

عزيزي كوستال !

انك تملك ، ولا ريب ، سرّ التغلّب على السحر . وللمرة الاولى في حياتي ادركت معنى هذه العبارة بكامله . منذ خمسة عشر شهراً لم اسمع من اخبارك شيئاً ، ولم ادرِ أحييُّ انت ام ميت . ومنذ تسعة اشهر لم تجب عن واحدة من رسائلي اليك ، واذا بك تتلطف اليوم باعلامي انك احتفظت بهذه الرسائل دون ان تفضها ، وانك صفتها واحدة الى جانب اخرى بكل عناية وترتيب . وها انا اراها كما هي تماماً : فقد تحوّل الشلال المتدفق الى مستنقع . وهذا ما يضحكني .

إذا ، عزمت على العودة اليّ . وها انت تحاول ان تعيدني اليك ، ان تربطني بركبتك ١ من جديد .

١ - اشارة الى طريقة الإبطرة الرومان الذين كانوا يربطون العطاء من اسراهم :

بدأت أفهم لعبتك ، وأكاد اسمعك تقول لي : « ابتعدي ... اقتربي ...
حبيبي قليلاً ... أقل مما كنت تحييني من قبل ... هكذا ، لا بل كذلك ...
لا ، لم تفعلني بعد ما أريده منك بالضبط ... » فأنا في نظرك كلبة صغيرة
تعاني الوقوف والقفز حسب مشيئتك . وكثيراً ما سمعتك تقول : « احب
الاحتفاظ بالمبادرة في شؤون الحب » . إلا انك بدأت هذه المرة تتقهقر .
ففي رسالتك بكاء وعويل تحاول اخفاءهما . لكن لا سبيل الى المراوغة .
فاذا كنت قد خرجت من هدوتك بعد صمت استغرق سنة ، فلأنك
تشعر اليوم بمجاثتك اليّ .

غير انك دعوتني مرةً من قبل لتقسو عليّ في مشغلك بشارع بور
رويال . لقد بدأت أفهمك . فانت توهم الناس بما ليس فيك . توهمهم بانك
متقلّب ، وبان لك الف وجه ولون ، وانت انت دائماً لا تتغيّر ولا
تبدّل . تعود دائماً الى النعم نفسه كموسيقى موزار . وها انت تعود
بالنزوات نفسها التي عرفتها فيك منذ سنتين . غبي انت ، وغيباً ستظل .
وقد عدلت عن محاولة هدايتك .

وأصارك بانك واهم ومخطيء في ما تظن بشأن رسائلي اليك .
اعتدتُ مراسلتك ، فاستحكمت هذه العادة في نفسي ، وهذا كل ما في
الامر . اني اكتب اليك كما كنت اكتب الى صحيفتي المفضلة قبل ان
اعرفك ، وكما اكتب رواية . لم استطع ان اعيش ، في جميع مراحل حياتي ،
دون شخص اتأمله وأبشه ما في صدري . بحث لك باشياء عن نفسي لم
يعرفها ابي ولا امي . وضعت امام عينيك امرأة في انقى واصفى حال
من احوالها . غير اني منذ سنة لم اعد متعلقة بك إلا لاعتبارك شاهداً
على حياتي الداخلية .

= بالركبة التي يمتطونها للاحتفال بهرجان النصر . وكانت طريقة يُقصد بها تعظيم
الامبراطور واذلال اعدائه .

أجل ، مات في شيء ، فعدوت كالمثوفين الذين يتابعون حبيهم ببطء
وهدهوء ولا يخامرهم أقلّ شعور انساني .

قبل ان أصل الى هذه الحالة ، كنت اذا سمعت بمقالٍ منك أرسل
حالا في طلبه . وفي اغلب الاحيان كنت اعطي في رسالة الطلب عنوان
احدى صديقاتي خوفاً من ان اصبح شهيرة عند اصحاب المكتبات . وكنت
القي رأسي الى وراه حين اقرأ عباراتك كأني أتغرغر بها ، ثم اقتطع
المقال واحتفظ به . وكثيراً ما كنت ادسه في صدري ليفرح به قلبي ،
واحيانا ليبت فيه هذا القلب قليلا من العطف الذي تقتقر اليه .

ومنذ سنتين لم اقرأ مؤلفاتك الاخيرة التي اصدرت منها عدداً
محدوداً من اللسخ . اما قبل هاتين السنتين فكنت اذا طلبت احد
كتبك من احدى مكتبات باريس او اورليان اتظاهر بانني نسيت اسم
المؤلف كيلا اتلفظ باسمك امام صاحب المكتبة . لم اكن اذكر اسمك إلا
امام نفسي في خلوات التأمل . اما الآن فاني افوه به دون ان يخالطني
اقل تأثر .

ما تزال صورتك معلقة على حائط غرفتي . لم افكر قط بانتزاعها
من مكانها . إلا اني لا انظر اليها البتة ، فيكفي انها باقية هنا .
كتبته اليّ في ٢٧ حزيران تقول انك لا تريد ان تصبح خليتي كيلا
« تسقط » في نظري ، وانك تفضّل البقاء على قاعدة مرتفعة . وما انت
الآن على قاعدتك المفضّلة .

اني سعيدة وانا في هذه الحال . ففي ما مضى كان غيابك الطويل
العامل الفعال الذي نهش علاقاتنا ومزّقها ؛ اما الآن فقد غنمت خيراً
كبيراً من غيابك وسكوتك ، اذ كانا لي بمثابة دواء داخلي عاجلت به
نفسي ، ورحت اتسلى بالكتابة ، وصرت لا احتاج اليك إلا اذا طاب لي
ان اتابع هذه التسلية .

ليتك تعلم ما فعلت في فترة سكوتك ، وما حققت خلالها بكل

بساطة ! فقد انشأت لنفسي حياة اخرى الى جانب حياتي ، وغرقت في
الحلم الذي يسميه الرجال حبا . أما كنا خليلين ؟ كم كانت حياتي حافلة
برقة الشعور ورهافة الاحساس !

اذعنت لانقطاع رسائلك عني ، هذه الرسائل التي كان يخفق لها قلبي
طرباً ، ولم اعد اتوقع منك شيئاً ، فتخلت عن الالاحاح في الطلب ، وعن
بذل المحاولات لأفهمك .

تنازلت عن كل شيء ، وأنا واثقة بانني عملت كل ما في وسعي ، وبان
الامر لم يعد في يدي . وانقطعت عن البحث ، وقلت في نفسي ان ما
لاقيت هو مصيري في الحياة ، وهذا حسي .

وجدت الراحة في اليأس . واعني اليأس بدلوله الواقعي ، وهو فقدان
الامل ، فكانت الصفحة الثانية من راحتي آلاماً مبرحة . غير اني عزيت
نفسي بان لكل شيء وجهين في هذه الحياة ...

فلماذا تريدني ان اقابلك وانت ما برحت كما عرفتك في ما مضى ؟ رأيت
صورتك الاخيرة في مجلة « فو » ؛ فأدركت من ملامح وجهك انك لم
تتغير ، وأحسست بالعياء والسأم مسبقاً .

أفريت في هذه القضية كثيراً من شجاعي ومن ثقتي بنفسي ، فاذا
التفتيتك فاني اخشى ان ينهار حوالي كل ما بنيت في اثناء غيابك . ولا
اخفي عنك اني ما كدت اقرأ رسالتك الاخيرة حتى احسست ان
حيواناً متألماً قد استيقظ في نفسي ، وكان من الافضل ان يظل غارقاً
في سباته العميق .

أتريدني ان اعود الى ذلك الجو الثقيل الجاف الذي نقتني فيه ست
سنوات ، كنتُ خلالها كأني في غاب يكسوه الصقيع ، ارضه قاسية ،
وسماؤه ظلام ؟

اني اعرف ما ينتظرنني من المزاح المزعج المزوج بالفظاظة ، ومن
الوقاحة المداعبة السريعة الغضب . وهذه رسالتك بين يدي مثال حيّ

لهذه الصفات الراسخة فيك .

وما تراني اقول في ما تزعمه من تفكيرك النيّر الذي يسمى دائماً
الى تحقير ما يعتبره الناس مقدّساً ، وهو يسىء اليك حتى بوصفك كاتباً
روائياً ، اذ ما قيمة انسان يرفض احترام القيم الطبيعية ؟
لا ! انك على ضلال مبين . فقد قال « استندال » ان التجربة الكبرى
التي تتعرض لها الصداقة القائمة بين رجل وامرأة هي الحب ، ولا يمكن
التغلب عليها إلا بطهارة القلب والشعور الشريف . لا ادري من منا كان
يفتقر الى طهارة القلب ونبل الشعور ؟ جل ما عرفه اننا لم نتغلب على
التجربة .

اذا كنت تريدني حقاً ، كما يتضح لي من عودتك اليّ في رسالتك
الاخيرة ، فكن صادقاً وصريحاً . أما اذا كنت تلهو ولا تشعر بميل
جسدي اليّ ، فلا فائدة من لقائنا .

قلت لي يوماً ان علاقة الرجل بامرأة لا يشتهيها فرصة نادرة
له ، لأنه بتنديبها ينتقم من النساء اللواتي أسأت اليه . فدور
المرأة السقي لا تشتهي في الحياة كدور الشائر في تحزيب النظام
الاجتماعي .

ما عساني اقول لك ؟ تزوجني ، اعطني ابناً ، جُدْ عليّ بشيء آخر
غير الصداقة ؟ | اني لفي حاجة الى غير هذه العلاقة .
اعطني ما تشاء إلا الصداقة ، فاني لا أقوى على احتمالها . ان الحب
الميت يفسدها كما تُفسد جثث الذباب اثناء العطور الذي ورد ذكره في
التوراة .

ألم يحدث لك مرة أن دهمك التعاس وانث مسافر بالقطار ،
فأغضت عينيك خمس دقائق ، ثم فتحتها ، فاذا برغبتك في النوم قد
تلاشت ؟ ان الرسائل التي وجهتها اليك ، خلال السنة الماضية دون ان
أتلقي منك جواباً عنها ، هي بالنسبة اليّ كهذه الدقائق الخمس ، لأنها

قضت على رغبتى فى الحصول عليك . وكل شىء فى حياتى قد تقلص
الآن .

وبعد ، فما الفارق بين جسد نعم بالوصال وجسد لم ينعم به ؟
ان الاشياء التى نظن اننا نجعلها تمضي فى سبيلها ، ثم يأتى يوم نشعر فيه
اننا رأيناها كفايةً ، فنودّ لو تتوارى عن انظارنا .

يسائل المرء نفسه فى بداية الازمة : « كيف استطيع العيش
بـ « لا شىء » ؟ » ثم يتبين له انه عاش بـ « لا شىء » ،
فيستقوي .

تعلم هذه الحقيقة ، يا صغيرى ، فربما أفدت منها فى تأليف
رواياتك .

السكون يغمر القرية ، والليل بدأ يرخي سدوله ، واخذت تلمع
اضواء المطابخ وزرائب الماشية . اسمع من حين الى آخر خشخشة سلاسل
الدواب ، ووقع خطوات الفلاحين الثقيلة ، بينما مصباحي الكهربائي
لا ينير سوى طاولتي تارضاً بقية غرفتي فى الظلام . وكل ما
حولي هو هو . هكذا عرفته . انه لم يتغير منذ احدى وثلاثين
سنة ...

فى هذا الجو ، يعود كل شىء الى جوهره ، فبرى المرء ما فى اعماقه
اذا اراد النظر الى هذه الاعماق . وما اراه الآن فى نفسي هو انى احببتك
ولم أحسن حبك ، لأنى لم ابذل لك التضحية التى طلبتها لأحتفظ بك .
وبعبارة اخرى انى لم احب إلا نفسي وملذاتي .

والشرط الوحيد الذى افرضه اليوم لأعود اليك هو ان لا تحزمنى
المتعة الجسدية ... إلا انى واثقة بانك ستصر على بقائى فى الحرمان .
وبذلك يقع الذنب عليّ ، لأنى ابيت ان افعل ما تشاء .

الوداع ، يا سيدي العزيز . كن سعيداً ، وأنعم دائماً بحظك الثريد
الذى يفتح لك ابواب السعادة الانسانية . واذا كنت لا تجد السعادة بما

لديك من الوسائل ، وبما تبذل في سبيلها من امكانيات وجهود ، فلا امل
لأحد بالحياة ...

أ . هـ

حاشية : - ربما كانت رسائلي اليك قضيع في الفراغ . لكن لا
بأس ، فاني سأتابع محاولتي ، مهما يكن الثمن ، لأحافظ فيك على حياة
الروح .



من

اندريه هاكيو
سان ليونارد

الى

بييار كوستال
باريس

٢٤ ايلول ١٩٢٨

عزيزي كوستال !

ستحسبني مجنونة . لكن على رسلك ، فقد قرأت رسالتك من جديد
بينما كان الراديو يذيع قطعة موسيقية بصوت خفيض ، فاذا بكل ما
كتبته اليك خالٍ من المعنى .

أتريد ان تراني ، وارفض طلبك بشموخ ؟

هذه وقاحة مني . سأركب القطار غداً صباحاً وأجيء اليك . اكتب
اليّ ، او اتصل بي هاتفياً الى فندق ر... ، شارع فرنوي ، حوالي الساعة
الثامنة . وبهذا اكون قد فعلت كل ما في وسعي لتجميل مصيري ، ولجعله
كاملاً ومتمثلاً . لك باخلاص .

اندريه

٤

من

بيار كوستال

باريس

الى

انمرية هاكبو

فندق ر . . .

شارع نوروي ، باريس

٢٥ ايلول ١٩٢٨

آنستي العزيزة !

أتعرفين المطعم الارمني ، الكائن في شارع شوسيه دانتان ، رقم ٤ ،
على زاوية شارع الكبوشيات تقريباً ؟ تناولت فيه الطعام خمسين مرة مع
امرأة كنت احبها ، فلا بأس اذا طهرتُ هذا المكان بتناول الطعام فيه
من جديد مع امرأة لا احبها .

سأنتظرك هناك غداً ، الثلاثاء ، ٢٦ ايلول ، الساعة الواحدة . وأرى في
الروزنامة ان هذا اليوم هو عيد يوحنا المعمدان . وهذه ذكرى لا تدعو
الى التفاؤل . فلتكن مشيئة الله !

اذا وافقتِ على هذا الموعد فلا تجيبي عن هذه الرسالة . لك باخلاص .

ك

من
التدريب هاجو
باريس
الى
بيار كوستال
باريس

٢٦ ايلول ١٩٢٨

أدعوتني الى باريس لتبدأ بي وتلتقم مني ؟ انتظرتك مسن الساعة الواحدة الى الساعة الثانية ، فما رأيتك في المطعم ذي الرقم ٤ ، بشارع الكبوشيات . ولم اجرؤ على الاقامة هناك ساعة دون ان اتناول طعام الغداء ، فاضطرت الى دفع ثلاثين فرنكاً ثمن صحيفة واحدة او اقل ! لا اقول لك اكثر من هذا : ان تصرفك يثير قرني واشمئزازي .

أ. هـ

حاشية . - قرأت رسالتك من جديد ، ورأيت فيها ان موعدنا كان في شارع شوسيه دانتان ، رقم ٤ . وبما انك ذكرت شارع الكبوشيات ، فقد اخطأت بين الاعمين ، ولم تكن رسالتك معي . وشاء سوء حظي ان يكون في شارع الكبوشيات مطعم يحمل الرقم ٤ . اعذرني . أتريد ان تتغدى معاً غداً او بعد غدٍ ؟

٢٧٧

٦

من
بيار كوستال
باريس
الى
اندرية هاكبو
باريس

٢٦ ايلول ١٩٢٨

آنستي العزيزة !

انتظرتك من الساعة الواحدة الى الساعة الثانية إلا ربعاً في المطعم الذي ضربت لك فيه موعداً . لست رجلاً يصفح ، انما انا رجل ينسى - ينسى نسياناً حقيقياً - افظع الاسماء . غير اني لست من الذين ينتظرون عبثاً في موعد مضروب ، حتى لو كانت الحماقة سبب هذا الموعد . الوداع ، اذاً ، وداعاً جدياً ونهائياً هذه المرة .

كوستال

(ظلت هذه الرسالة بلا جواب ، ولم يعد كوستال يسمع شيئاً من اخبار الآنسة هاكبو . وخير الاعمال ما تكون نهايته حسنة .)

العام ١٩٢٩

٧

من

سولانج دنديتو

باريس

الى

بيار كوستال

باريس

٢ تشرين الاول ١٩٢٩

صديقي العزيز ا

لو شئت ان تكون عادلاً لاعترفتَ باني ، منذ خمسة عشر شهراً ،
اي منذ افترقنا وبدأنا نراسل ، لم احاول مرة واحدة التدخل في
حياتك الخاصة .

واذا كنتُ قد اقدمت على الكتابة اليك الآن فليس لأحدثك عن
نفسي ، اذ لو كانت اخباري تمك لتفضلت بالكتابة اليّ . وانما اكتب
اليك بشأن وصيفتنا ، فانت تعلم انها لم تكن حسنة الصجة منذ الايام
التي كنت تزورنا فيها . وهي اليوم مصدورة ، ومن الضروري ادخالها
الى مستشفى السلّ . أذكر انك اخبرتني يوماً بان امك خلفت لك

٢٧٩

مكاناً في مستشفى نسيتُ اسمه ، أفلتستطيع ان تفعل شيئاً لهذه الفتاة التي
خدمتنا باخلاص طوال ست سنوات ؟
اشكرك سلفاً . اتصل بي هاتفياً اذا شئت . لك اجل تحياتي .
سولانج .

٨

من

بيار كوستال
باريس

الى

سولانج دنديو
باريس

٣ تشرين الاول ١٩٢٩

صديقتي العزيزة !

كم انا سعيد لأنك فكرت بان تطليبي اليّ خدمة ا ارسلني اليّ
وصيفتك يوم تشائين صباحاً بين الساعة الحادية عشرة والظهر . فاني
احب المصدورات حباً جماً ، فهنّ مرهفات الشعور ، تفيض عواطفهن
لألفه الامور . اذا كنت لا تستطيع ان اجد لها سريراً في مستشفى
ر... ، فاني سأجد لها هذا السرير في مكان آخر . اقول هذا بلا اقل
فكرة سيئة . فالمسألة تتوقف على معرفة أأريد ان تحيا ام لا ،
لأن الشفاء من السلّ منوط ببذل المسال اذا اكتشف الداء قبل فوات
الايوان . وسأعرف حقيقة حالها متى رأيت وجهها ، واعترف لك باني
نسيته .

واني لأسائل نفسي ما الذي جعلك تظنين اني لم اعد اهتم بك .
اذا كان سبب اعتقادك هذا هو سكوتي الطويل منذ خمسة عشر شهراً ،

فانت بعيدة عن الحقيقة . فأعزّ صدقائي لا احب ان اراهم أكثر من
مرة كل ثلاث سنوات .
لك اجمل تحياتي ، كما قلتِ ، فكان قولك لطيفاً .

ك

العام ١٩٣٠

٩

السيد الفونس غريغور ، المهندس الاول في معامل س... لصهر الحديد ،
حامل وسام جوقة الشرف من رتبة فارس ، والسيدة الفونس غريغور
والسيدة شارل دنديو ، يتشرفون بدعوتكم الى حفلة زواج الأتسة سولانج
دنديو بالسيد غستون بيغورياه المهندس .
وهم يرجون منكم حضور حفلة الاكليل التي تقام في ٢٠ كانون الاول
١٩٣٠ في كنيسة القديس فرنسوا دي سال ، شارع بريوننتيا .

العام ١٩٣٠

١٠

من

السيدة غستون بينغورياه

باريس

الى

بيار موستال

باريس

٨ تشرين الاول ١٩٢٨

صديقي !

في لحظة شرود وبلبله ، طلبتُ أرقام هاتفك ، طلبتها بحركة عفوية وبلا تفكير ، وانا على يقين بان الخادم سيردّ قائلاً انك غير موجود في البيت ، او ان خطك مقطوع كما هي العادة . ولو كنت اعلم انك ستردّ بنفسك لفكرت بالامر ملياً ، ولكان من المحتمل ان اعدل عن الاتصال بك . إلا اني سمعت صوتك يقول عبارتك المعهودة : « من يتكلم ؟ » وكان خشناً ، يعتبر عن القوة والسيطرة ، وليس فيه ما يسرّ ، فاستولى عليّ الذعر . هل عرفت صوتي ؟ لا ادري . فقد رحّتْ ألّهتْ في سماعة الهاتف من شدة الخجل ، وكان لهائي شبيهاً بلهات حيوان مذعور لا يجد منفذاً للفرار . ولا ريب في انك سمعته مضخماً في سماعة الهاتف ، وادركت ان الخوف

عقد لساني ، فقطعت الخط .

وها انا اعود الى ما كنت عليه ، فكلمنا تبين لي ان الحجل ينمعي من مخاطبتك ابادر للكتابة اليك . وهكذا كنت افعل مع زوجي في الفترة الاولى من حياتنا الزوجية . كان يحسد رسالتي امامه اذ يجلس الى مائدة الطعام ، فلا اظهر امامه حتى يفرغ من قراءتها . فانظر اليه ، ولا ينظر اليّ ، فنتناول طعامنا في صمت تام . كنت ارسل صيحات مدوية في اعماقي ، ولا اظهر منها شيئاً ، فابقي ذاهلةً ، واجمةً ، كأني لا اعني .

اعتقد انك تتخيّل حالتني في مثل هذا الموقف ، فترى اني ما ازال خرسوفاً صغيراً كما كنت .

اخشى ان تقع في الخطأ ، فتحسب هذه الرسالة خطوة اولى من خطة مرسومة . لكن ما حيلتي ما دمت مضطرة الى اطلاعك على ان سكوتك الذي لا ينتهي يؤلني ؟

الحق يقال اني لزمت الصمت مثلك ، لكن اياك ان تمزوا سكوتي الى الفتور . كل ما في الامر اني خشيت ان ازعجك . وانت تعرفني جيداً ، وربما تذكر كم اخاف ان ازعج من أحب .

من الواضح انك لا تحب ان تراني . واعتقد اني لم اتصرف معك تصرفاً يُفقدني احترامك . فارجو ، اذاً ، ان يبقى لي هذا الاحترام .

اما مودتك وعطفك فاني اسائل نفسي عمّ بقي منها . غير اني اكون سعيدة اذا استطعت ان لا اخسر كلاً .

ألا يمكننا ان نلتقي في منزلك من حين الى آخر ؟ أأست مديناً لي بهذا على الاقل ؟ سافر زوجي الى منطقة سون العليا ، وسيستغرق غيابها ستة اسابيع . ولا اريد منك إلا المحافظة على صداقتك او استعادتها ، ولا اريد شيئاً سواها . وانت تعلم اني لا اعمل إلا ما

يطيب لك .

زوجي شاب ممتاز ، ورجل عظيم القدر ، إلا انه لا يفهمني أكثر مما كان ابني يفهم امي . وتحاول امي تعزيتي ، فتقول لي : « جميع الرجال من هذا الطراز ا » فأجيبها : « اذاً ، لماذا اكرهتني على الزواج ؟ » فتجيب : « لا بد من الزواج ، فهذه سنة الحياة ا »

ومنذ تزوجت وأنا اشعر بانني في حالة غير طبيعية . اشعر بالضيق والارتباك كأني في ثوب خياطته سيئة ، يضايقني ولا ادري بالضبط المكان الذي اتضايق فيه . وفي الآونة الاخيرة اصبحت حالتي اشدّ سوءاً ، ففي بعض الايام 'يختل الي' اني طريده وقعت في شبكة الصياد ، فأكاد اصيح رعباً .

اني افكر بتدمير كل شيء حولي لأعود الى حياة الانفراد والحرية ... منذ اربع سنوات ، يا صديقي ، كنا في جنوى . اجل ، اربع سنوات اكتملت هذا الاسبوع . فهل لهذه الذكرى تأثير في نفسك ؟ اني اشك في ذلك . اما انا فاعتقد ان ما جنيت في هذه الرحلة يساوي جميع العذابات التي دفعتها ثمناً له . وربما كان ما جنيت عزيزاً عليّ الى هذا الحد ، لأنني دفعت ثمنه غالياً .

أعتل نفسي بالحصول على جواب لطيف منك . وأصارعك بان استمرارك في السكوت لن يفضبني لأنك عودتني التنازل عن كل ما احب ...

وبعد ، « فالنساء المحشوات بالذكريات يحملن الماضي امامهن دائماً كبطن حبل في شهرها التاسع ، بينما الرجل هو النسيان الابدي ، والقدرة الذكر الالهية بالنسيان ا » .

ومها يكن من الامر ، فاني لم انتظر قط في حياتي تحقيق امنية كما
انتظرك الآن .
ليت هذه الرسالة تحمل اليك ، على الأقل ، يقيناً بكل محبتي
ومودتي . أنا لك .

سولانج



من

بيار موسنتال

باريس

الى

السيدة غستون بيغورياه

باريس

١٠ تشرين الاول ١٩٣١

عزيزتي السيدة غستون بيغورياه ا
 قلت لي يوماً : « ان الكلمات التي تقولها لي دائماً ليست هي التي
 انتظرها منك » . فإليك الآن ، من جديد ، باقوال ليست مما تنتظرين .
 شعرتُ في ما مضى بميل اليك ، فأخذتك . ثم احسست بعطف
 عليك ، فأردت لك الخير . وفي وقتٍ ما وددت لو احبك حباً عظيماً .
 غير انك اردتِ تحويل ميلي ، الذي كان طبيعياً ، الى واجب ، اي الى
 شيء غير طبيعي ومكتوب له الموت . حاولتِ جرّي - انا اللانظامي -
 الى ميدان ليس ميداني ، حاولتِ « تنظيمي » . ومنذ ذلك اليوم اضمرتُ
 لك البغض ايضاً . اقول « ايضاً » لأن عطفي عليك كان لا يزال حياً
 حتى ذلك الحين .

ويوم قلتُ لك : « لا ! » لم اعد ابغضك ، فقد حلت اللامبالاة في
 نفسي محل البغض ، وحاولتُ تمويهها طوال اشهر عديدة بعاطفة لا يليق

بك ان تقبلها ، إلا انك قبلتها ، لأن النساء يقبلن كل شيء ما دام الامر يفسح لمن في مجال. الأخذ . واعني بهذه العاطفة : الاحسان والصدقة .

سحبت نفسي. يجلد رقبتي ونجوت لما رأيت اني أكاد أغرق في حب الآخرين الذي لا مخرج له .

لو رأيتك الآن فما عساه يكون الشعور الذي أكنته لك ؟

لا يمكن أن يكون اليوم - اليوم والى الابد - إلا الصدقة ، لأني لا أبالي مطلقاً بما تعانين من الآلام . وأراك تحاولين جرّي الى الصدقة من جديد ، وهي سرطان الرجل ، بذريعة انك تزوجت برجل أبله . قبل أن أعرفك ، وبعد أن هجرتك ، كنت سعيداً . ولم أكن سعيداً في « عهدك » بسبب هذه الصدقة وذلك الواجب .

كل ما يحيط بك هو العافية والسعادة ، وانت في الوسط مثال الشقاء والشر . كنت بالنسبة اليّ كراس مقطوع في بركة من الذهب . تذكرين ، ولا ريب ، اني كنت أعتقد أن مستقبلي سيكون مشوباً بالاسف اذا عدلت عن الزواج بك . غير ان اعتقادي هذا كان باطلاً . فمئذ ثلاث سنوات لا يمضي من حياتي اسبوعان دون أن اخترع الله مدة دقيقة واحدة ، هي الوقت الكافي لانطرح جائئاً الى جانب سريري ، ولأبتهل اليه قائلاً : « شكراً لك ، يا الهي ، لأنك سمحت بان لا اقدرن بها ا شكراً لك لأنك سمحت بان أقاوم نزوعي الى الصدقة ا »

لما تسلمت رسالتك قلت في نفسي : « اذا التقيتها فسترى اني تقدمت في السن ا » والتفكير في هذا الامر شيء راسخ في طبيعة الانسان . إلا اني أجبت نفسي فوراً بقولي : « لا بأس ! فلا شأن لها في سيري الى الشيخوخة ، لأني لم أمض سنواقي الثلاث الاخيرة الى جانبها » . أرسلت اليّ فتاة مجهولة مخطوطة رواية عثرتُ فيها على الجملة التالية : « حماقة النساء هي الليل يخيم على العالم » . ولو كتبت : « حب النساء

هو الليل ... » ، لأجادات وأصابت كبد الحقيقة .
ليس هذا الليل وحده يختم على العالم . فثمة ليالٍ أخرى عديدة ،
أحدها حب الاحسان والصدقة الذي يقلب الانطلاق العفوي الرائع الى
تصنع مبتذل ، ويعتدي دائماً على الحب ويسلبه امتيازاته ... يسلبه حتى
ملامح وجهه ، فيجعل من الابتسامة تكشيرة .
قال شاعر فارسي : « من أحسن مرةً الى الافعى أساء الى أبناء آدم
وهو لا يدري ! » وأنا أقول : « من تصدق على المرأة أساء الى الحب
وهو لا يدري » . وقولي أعمّ وأوسع شمولاً .
الصدقات التي جدت بها تملأني خجلاً . ولهذا السبب كنت أنت
مبعثاً للخجلي . والشعور بالخجل ، في مثل هذه الحال ، لا يختلف عن الشعور
بالعار .

لا أريد بعد اليوم تكشيراً عوضاً عن الابتسام . ولا أتوق الى
شيء في الحياة أكثر من توقي الى التخلص من التكشيرات القديمة التي
علموني ايها . فما يسمونه تثقيفاً ما هو إلا تعليم الناس كيف
يكشرون .

أبذل جهدي ليشرق النهار في نفسي ، في القسم الثاني من حياتي ،
لأهرب من الليل الذي كان جاثماً عليّ جثومه على العالم . وليكن الغروب
في عمري نوعاً من انبثاق الفجر ... فلا تعود لي لتلقي ظلك الكالاح على
هذا الفيض من الجمال .

إذا كانت هذه الرسالة قاسية ، وكانت قساوتها قد جاءت في غير
أوانها ، فذلك ان المرء لا يستطيع ان يحمل الى الأبد عبئاً يفوق قواه .
فهو يحتمل ، ويحتمل ، ثم تنهار أعصابه ، فيسقط العبء ويسحق رجل
الرجل اذا كان قد وضعها في غير المكان المناسب لها . وهذا بالضبط
ما تطلق النساء عليه اسم « الخيانة » . وقد رأيت العبء يسقط على
رجل احدي زميلاتك ... تلك التي دعوتك يوماً الى مشاهدتها من وراء

الستار في منزلي بشارع بور رويال .
اما اذا كان الرجل يحب فان العيب لا يسقط ، لأن حمله يصبح سهلاً .

ذات يوم فضلت نفسي عليك . ومنذ تلك الساعة عادت الامور الى نصابها الطبيعي . والشر ، كل الشر ، كان ينجم عن اني — في بعض الاحيان — كنت افضلك على نفسي .

قلت لي : « ساكون لك ما تشتهي ان اكون » . وشهوتي الكبرى ان لا تكوني لي شيئاً على الاطلاق .

تسألين : ما تبقى من العطف الذي كنت اكنته لك ، فأجيبك بانسه قد اندثر ، ولم يبق منه اثر .

لو دريت الى اي حد لا احبك لاستولى عليك الذعر . لم تتركي في مادتي الانسانية ظلاً لذكرى صغيرة ، فقد تلاشت من ذهني حتى صورة وجهك .

وعلى الرغم من اني مدين لك ببضع ساعات جديدة لي ، فان جملة الذكريات ، التي كنت احفظها من علاقتنا الغابرة ، كانت ثقيلة عليّ ومزعجة . اني أتذكر كل ما اكتشفته فيك من الاشياء المؤثرة التي كانت تبلغ احياناً درجة السمو . إلا ان هذا التذكر اصبح عديم الجدوى ، يعجز عن شدي اليك كأنه كاشة افلت برغيها .

قال فوفنارغ^١ : « الاحترام يهتريء ويزول كالخب » . والقسم الاكبر من الاحترام الذي كان لك في نفسي قد امحى كلياً . اذا وقعت عيني صدفةً على مذكرياتي ، وقرأت فيها اني كنت معك في احد ايام سنة

١ . لوك دي كلايباه ، مركز دي فوفنارغ (١٧١٥ - ١٧٤٧) فيلسوف فرنسي تخصص في درس الاخلاق . اشهر مؤلفاته « تمهيد لمعرفة العقل البشري » ، و « تأملات » ، و « حكم » .

١٩٢٧ ، وانا ذهبتا معاً الى مسرح ساره برنار ، فلا استطيع ان اتذكر شيئاً من هذا اليوم . لا اجد في ذهني أثراً لذكرى ما . ولو سُئلت لاقسمت صادقاً اننا لم نذهب قط معاً الى ذلك المسرح . وهذا افضل حلٍ لفضيتنا . كانت الذاكرة ربة وحي ، اما النسيان فيجب ان يكون جنينة خبير وبركة .

وانتِ ايضاً ليس لي في نفسك سوى اللامبالاة منذ ثلاث سنوات على الرغم من هذه العودة الى حرارة الحب ، وهي مظهر لا اكثر ، سببه غياب السيد غستون بيغورياه في سون العليا .

صدقيني اذا قلت لك ان الشعور المتبادل باللامبالاة بين شخصين - واعني اللامبالاة المطلقة ، اللامبالاة الكثيفة - هو شعور طبيعي وسليم ، حتى لو كان هذان الشخصان قد تحابا في وقتٍ ما . فكل شيء في الحياة يتقلص ، ولا يُنتج هذا التقلص شراً اكبر من الشر الذي يسببه اهمالُ رسائل بلا جواب . وهذا التبدل في الرجل ليس من النقائص التي تسبب شقاه ، بل من فضائله . وثقي بان من يصل الى مثل هذه الحال ينتشبي بمتعة كبرى . فلا بأس على الرجل اذا احب ما دام حبه يقوده ، يوماً ، الى ما انعم به الآن . فانه يُخَيِّل اليّ اني اطيير في الجو من شدة الانشراح .

ومن الاسباب التي جعلتني احتمل منك ما لا احتمله من سواك انك لا تكتسبين اليّ رسائل طويّة . سواء أكنتِ «مفومة» من زوجك او غير مفومة ، فإياك ان تتادي في كتابة الرسائل .

لا استطيع ان اعمل لك شيئاً ، فالمرء لا يستطيع شيئاً في سبيل الذين لا يحبهم . ابجني عن ضالتك في مكان آخر ، فالعالم واسع يزخر بالرجال . وهذا ما ردّدته على مسمعك خمسين مرة . واذا كنتِ بحاجة الى تعزية ، فقولي في نفسك انك اعطيتني سنة من الملمات على الرغم من جميع المتاعب والحبيبات - اعطيتني عواطف حتى يومك الاخير ، اعني

آخر يوم من علاقتنا . ففي وسعك ان تعتقدي ، اذاً ، ان وجودك على الارض لم يكن عديم الفائدة . وهذا كسب لا يستهان به . وما دمت مزودة بهذا المتاع فامشي ، وامضي في سبيلك . تحيات .

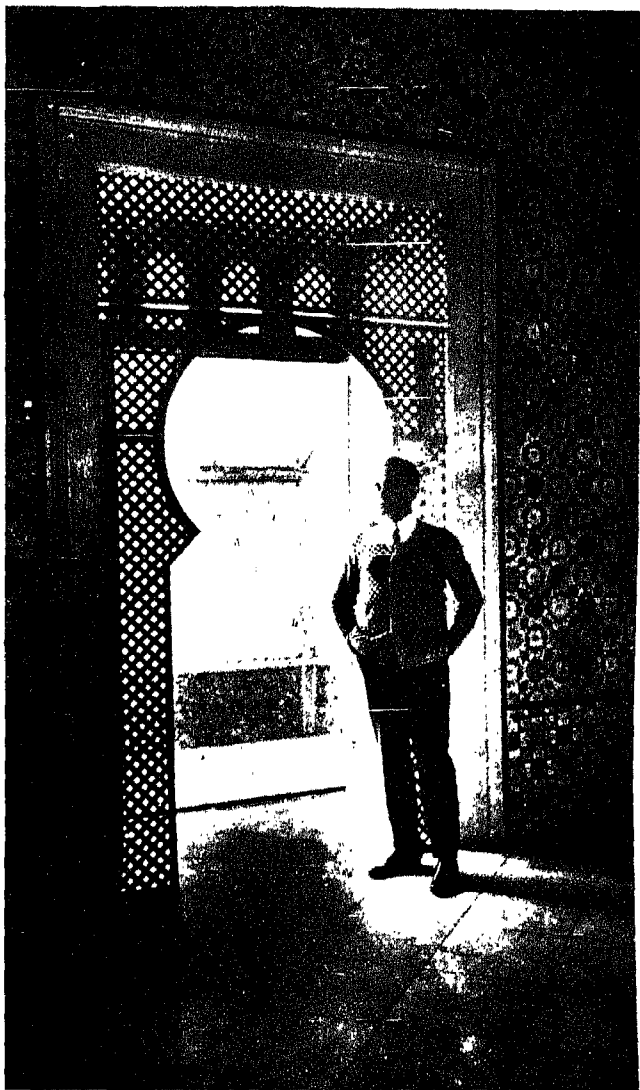
ك

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب . ولم يعد كوستال يسمع شيئاً من اخبار السيدة بينغورياه . وفضل الامور ما يلتهي بثلم هذه النهاية الحسنة .)





ملحق



فرغ كوستال من قراءة ملاحظات كتبها منذ سنة ولم تنشر بعد ،
فقال في نفسه :

« اني افكر بالنساء وأسيء بهن الظن ، واعرب بصراحة عما يجول في
خاطري ، وامعن في التعبير بلا هوادة . ثم أصل الى فترة أتوقف فيها ،
فتطرف جفوني وأسائل نفسي : « أين أنا ؟ » ويخامرني شعور بان ما
أفكر به وما أقوله منذ حين لا ينطبق على الحقيقة . فاتهم نفسي ،
عندئذٍ ، بالتجني ، وأتمرغ في وحل التواضع وتبكيك الضمير . ولا أكاد
أخرج من هذا الوحل حتى أفاجأ باني لم أكن مخطئاً ، وان مبالغاتي
المزعومة كانت الاعراب الصادق عن واقع الحال .

« هذه المرأة الستينية تعيش منذ اربعين عاماً مع زوجها السبعيني .
وبينا هما يتمايشان ، ويسكنان تحت سقف واحد ، ويتناولان طعامها
وجهاً الى وجه ، أقامت عليه الدعوى مطالبة بالهجر ، وحجزت أثاث
البيت على يد دائرة الاجراء ، وختمت صندوق زوجها الحديدي بالشمع
الاحمر . ولما قال لها : « هذه المشكلة ستقتلني » ، أجابت : « أعلم ذلك » .
وسبب هذا التصرف الغريب هو الغيرة ، أي « الحب » ...

« وثمة زوجات طيارين يقلن لك : « أنظن جورج شجاعاً شديد
الشكيمة ؟ انه يخشى الركوب في المصعد ، ولا يجرؤ على ابداء ملاحظة
للخادمة ، ويكفي أن أقول له كلمة واحدة ليتخذ قراراً ما ، أو لا
يتخذه . انه ولد غرّ ، الخ ... »

« عرفت في المغرب امرأة كانت تتحدث عن زوجها ، وهو يعمل في

الارياف ، ويشتغل عشر ساعات في النهار ، فتقول : « يجب على رينه ان يكدّ ويجتهد ، فهو يعلم ما تكلفه المرأة لتكون راضية ا »
« والاخبار من هذا النوع لا تنتهي ... ونستطيع ان نكتب واحداً منها على كل ورقة من اوراق الروزنامة . لا ، اني لا اخطيء ، إلا حين اظن اني ابتعدت عن الحقيقة ... »
واليك بالنص الذي قرأه الكاتب :

المجدومات

(موجز)

ما الذي يربطني بك ، يا امرأة ؟ - يسوع لأمه .

الادواق . - عينيات تسدّ النظر الى جهة واحدة . الخوف من الحقيقة بدافع الجبن او البلاهة المثالية . مع اننا بالحقيقة نغسل نفوسنا . « اني اطرح في سلّة المهملات جميع الوثائق التي يرسلها اليّ العسكريون عن الاسلحة الالمانية » . هذا ما قاله بريان لاشتريسمن في توارى ١ .
التألمية . - قال الرسول ان من لا يتفجع لقيط^٢ ، وليس ولدأً شرعياً . فالمتفجعون يفركون ايديهم استعداداً للهجوم على السعداء ! والمتفجعون يؤمنون ويعلمون ان من واجب الانسان ان يتألم ، كما يؤمن ويعلم الكتاب السخفاء ان انشاء الرواية يجب ان يكون شيئاً . فالهم في نظر المدعي هو ان يكون على صواب . يُعتبر الألم المعنوي عاملاً للتمتع في

١ - أوستيد بريان (١٨٦٢-١٩٣٢) سياسي فرنسي وخطيب مفرّج . تولى رئاسة الحكومة الفرنسية احدى عشرة مرة ، ووزارة الخارجية ، وكان يدعو الى سياسة تفاهم ووثام مع المانيا ، ثم اصبح من اقطاب جمعية الامم .

وغوستاف اشتريسمن (١٨٧٨-١٩٢٩) سياسي الماني ، تولى وزارة الخارجية في بلاده ، ووقع مع بريان معاهدة لوكارنو وميثاق بريان - كيلوغ .

التفكير ، مع انه ليس هو الذي يُعمّق^١ ، بل الازمة التي سببته ، وثمة فرق بين الحالين .

يصلح الألم لبعث اعتبار المتألم في نفوس الناس ، ولحشهم على الاعتناء به ، وعلى الصفح عنه ، وهو من العناصر التي يزعم بعضهم انها صفة ضرورية وداخلية للعبقرية .

لا يستطيع الانسان القول بانه سعيد دون ان يحسبه الناس أبله ، او غليظاً ، او منافقاً يريد ان يكون محسوداً ، او وغداً يستخف بالشقاء البشري . وهذا ما يجعل الألم والقلق اكثر وضوحاً . فالألم هو الذي يدفع ثمن الازمات .

والألم المعنوي هو الدليل - دائماً تقريباً - على الضعف الجسدي لأن الضعيف يقلق ويضطرب ، وهو دليل أيضاً على الضعف العقلي لأن الذكي يعرف كيف يعالج اكثر آلامه المعنوية وكيف يخففها .

الرغبة في الحصول على اعجاب الناس . - هذه الرغبة تدفع صاحبها الى قول ما يظن انه يعجب الناس ، لا ما هو واقع ، او ما يجوز في خاطره . فحب الحصول على التأييد هو القاسم المشترك لجميع الاشخاص في مختلف الطبقات البورجوازية .

غريزة التجمع . - انها نتيجة الخوف من الفكرة الفردية والحقد العميق عليها ، والوحي الذاتي الجماعي . الافكار العسادية تنهش العظام كما تنهش حشرة الفيلوكسييرا عرائش الكروم . فالجميع يفكرون تفكيراً واحداً ، في وقت واحد ، كالكراكوزات التي تحركها يد واحدة من وراء الستار .

العواطفية . - تحمل محل العقل والعدالة . والمبادئ الخلقية بذخ رخيص ، وسمو مزيف يستخدمه الدين والمدرسة الصحفية .

١ - قتل الكتابة كثيرين من الناس ، ولا فائدة منها . (سفر الجامعة) . - المؤلف

في كل واحدة من تلك العاهات الحس التي تشوّه جسم المجتمع نجد عدداً كبيراً من الجرائم بشكل يومي. وبعبارة اخرى : ان جميع تلك الامراض نسائية المادة . فلنعد الى درسها :

فالواقع . - يعبّر عنه بمحلتين معروفتين : « لا استطيع التفكير بهذا الامر » ، و « يجب تعليل الأمل بان ... » وهما شكلان نموذجيان من اشكال تعبير المرأة . والمرض العضال الذي تعانیه المرأة يجعلها عاجزة عن احتمال الحقيقة الواقعية . وهذه الحقيقة جرح عميق بالنسبة الى النساء ، مما يجعلهن يبحثن عن ملاجئ هن : في الحب ، في الدين ، في المعتقدات الخرافية ، في الشعوذة ، في اللياقات ، في المثالية المزيفة الوجه والجسم . فالمرأة لا تجد الراحة إلا في كونٍ مزيّف بسبب المرض الذي تعانیه .

يخشى الرجل الكلمات اكثر مما يخشى الحقائق ، بينما تخشى المرأة الكلمات والحقائق معاً . المرأة كالنعامة تضع رأسها تحت جناحها وتظن ان احداً لا يراها . والرجل يضع رأسه تحت جناحه ، لكنه يعلم ان العيون تراه .

في قصة « اندرسن »^٢ قامت النساء ، ولا ريب ، بمهمة امتداح ثياب الملك التي لا وجود لها . فكان على الرجال ان يسيروا على هذه الخطّة

١ - « بين النساء المرموقات من يعتقدن ان لا وجود للشيء الذي لا يمكن التحدث عنه في المجتمع » . (نيقشه) . - المؤلف .

٢ - هنري كريستيان اندرسن (١٨٠٥-١٨٧٥) كاتب دنركي وضع قصصاً تدل على خصب الخيال والكأبة الشعرية الناعمة ، ومنها قصة « الثوب غير المنظور » التي يشير اليها المؤلف . وهي حكاية ملك مولع بالثياب الجديدة خدعه عنلان واوهام انها يمكن قماشاً غير منظور ، فراح يسير عارياً ويحسب انه يرتدي ثياباً من ذلك القماش . وقد بلغ من تزلف رجال البلاط اليه أنهم اقدموا على التفتي بتلك الثياب التي لا وجود لها .

بشيء من الاشتزاز . ولم يُقدِّم إلا الولد على الجهر بان الملك كان عارياً .

لهذا السبب نرى النجاح يحالف الفنون المسرحية ، والروائية ، والسينائية التي لا تصور الحياة كما هي ، في كل مجتمع يمنح المرأة مرتبة عالية ومكاناً مرموقاً . فهذا النوع من المجتمعات يمتت الحقيقة الواقعية مقماً شديداً ١ .

التألمية . - في فترات طويلة من الزمن ، وفي المجتمعات المصابة بالضعف والعجز ، اعتنقت المرأة بحجارة المذهب القائل بان في الألم كرامة وفائدة وعظمة : فالجرثومة التي لها شكل يوني والجرثومة التي لها شكل صليب هما متجانستان تجانساً تاماً معروفاً منذ زمن بعيد . وليس بين الناس من يردد أكثر من المرأة ، بنخفخة واصرار ، ان الألم ضروري للإنسان ؟

١ - مخطوطات النساء البكاتبات محشرة دائماً بإغلاط الاملاء والتنقيط . اتن يعرفن قواعد الاملاء والتنقيط ، إلا اتن لا « يرين » اخطاءهن في المخطوطات بقدر ما يتعمين عن الحقائق التي تملأ العيون في الحياة ، كلارك الامهات اللواتي يعايشن ابناهن اثنتي عشرة سنة فلا يلاحظن أثر جرح في رأس هذا ، او بقعة على ربة ذلك .

منذ ثلاثين سنة وضعت سلاسل حديدية حول مواقف سيارات الاوتوبيس في باريس ، واصبح معروفاً ان الطريق من هذه المواقف يفتح برقع طرف احدى السلاسل . ومع ذلك فتمتة نساء عديدات يشددن السلسلة من فوق الى تحت ليرفعنها ، بينما يجب شدها من تحت الى فوق ، وهذا ما يمجزن عن معرفته . فبعد محارلات عديدة يلقين على من حولهن من الناس نظرة استعطاق وابتهاال ، طالبات المونة كهرة غرزت حسكة سمكة في لنته ، فادى قمعه وهو يحارل انتزاعها ، ثم جاء يلتمس منك ان تخلصه من هذه النكبة . ولم نر قط رجلاً في مثل هذا الموقف وهذا الارتباك العجيب . لا اريد الامعان في هذا الموضوع . جل ما في الامر ان هذا المثل بدا لي مفيداً ، فرأيت ان اثبته هنا على الرغم من تفاهته . - المؤلف .

وليس بين المخلوقات من يكيل الشتائم اكثر منها لمن يملك من فن الحياة ما يساعده على اجتناب الآلام . فهي تبدل جهدها بضراوة لتكتشف فيه نقطة ضعف وتضربه فيها . كانت زوجة تولستوي تقول في زوجها : « ابغضه لأنه لا يتألم » . فتاريخ الانسانية ، منذ حواء حتى اليوم ، هو تاريخ الجهود التي بذلتها المرأة لتحط من قدر الرجل حتى يتألم ويصبح مثلها^١ .

في الغرب ، حيث تسيطر المرأة ، يسود مذهب الألم ، وفي الشرق ، حيث يسيطر الرجل ، يسود مذهب الحكمة .

الرغبة في احراز الاعجاب . - تحب المرأة الشابة ان تمجّب كل رجل ، وان تحمّز اعجابه ، مها يكن الثمن ، وفي جميع المناسبات . ولسنا بحاجة الى التوسع في هذا الموضوع .

غريزة التجمع . - « كم تختلفين عن الاخريات ! » كل امرأة سمعت هذه العبارة من رجل قالها لها ، ثم مدت لسانه ساخرأ منها . وتصلح هذه الحقيقة عنواناً لرواية هو : « الذين يدّون ألسنتهم » . وكان من الضروري ان تكون هذه العبارة : « كم تشبهين الاخريات ! » ان الحيوان الذي يفرز الافكار المتبدلة اكثر من جميع الحيوانات هو المرأة ، لأنها ضعيفة ، لا تثق بنفسها ، فتحتاج الى الاتكال على الرأي العام ؛ ولأنها خالية من التفكير الشخصي هي بحاجة الى فكر الرجل لتنتحله وتدعي ملكيته ؛

١ - كتبت احدى النساء يوماً الى كوستال تقول : « انك لا تعرف شيئاً عن حالة المرأة النفسية ، لأنك تجهل الألم ، ولأن شعبك الجنسي يصونك من اليأس . والجسد الذي لا يتألم هو جسد جهيز » .

وقالت في مكان آخر من رسالتها : « يستطيع الرجل ان يكون كذا وكيت ، اما المرأة فتبقى دائماً امرأة ، وتعرف ان تعطي الألم وهو اجل من الحب ، وانت تمنح الاضطراب - وهو اقوى من الحياة - للاشخاص الاقوياء الذين هم دائماً متعجرفون بلهاء » . - المؤلف .

وهي معتادة ان تقول ما تظن انه يعجب الرجل . ومع ذلك نسمها
تردد : « لست واحدة من القطيع ! »

ماذا ؟ ألا ينتقد القطيع إلا من هم اسوأ حيواناته ؟
العواطفية . - ان الرجل الذي يحب امرأة حباً حقيقياً يعطيها حباً
آخر غير الحب الذي تطلبه منه . أما هي فتحاول دائماً ان تفسد الحب
الذي يقدمه لها الرجل . فالنساء هنّ اللواتي جعلن من المودة مرضاً
عصبياً . والعطف الغرامي - وهو الهي ومقدس حين يكون محبة خالية
من الشهوة - اصبح في اعتبارهن مسخاً سقيماً سخيفاً نطلق عليه امم
« الحووب » على طريقة فلوير لما ابتكر كلمة « فاطيع ا »^١ للدلالة على
ما في قائليها من الادعاء والسخف .

فالحووب هو الحب كما تفهمه النساء ، هو : البلاهة ، والغيرة ، والنزوع
الى المآسي .

ولنتوقف هنا قليلاً ، فإلى اين وصلنا ؟

القلق الانثوي مرض تنقل المرأة عدواه الى الرجل ، اذ تحتاج الى
ان تكون محبوبة في مقابل حبها ، وهي على اتم الاستعداد لينقلب حبها
الى لامبالاة ، او الى بغض . انه قلق غبي ، اخرق ، يقتصر على الكلام ،
ويضيّق غرضه ويتقلّص حتى ليتمكن التساؤل : « واخيراً ، ما هي الغاية
منه ؟ »

١ - من مبتكرات الكاتب الفرنسي الشهير فلوير انه كتب كلمة ENORME كما
يلفظها المشدقون ، اي بزيادة حرف H في اولها ، فأضحت HENORME ،
واستعملها بهذا الشكل على سبيل السخر من الذين يلفظونها مضخمة لأتقبة
الاسباب . فاقتمدى به المؤلف واضاف الحرف H الى كلمة AMOUR فأصبحت
HAMOUR ، واعتبر هذه اللفظة غير الحب الحقيقي ... اعتبرها نوعاً من الحب
المتبدل الذي يتفق به التافهون . والبلهاء . فرأينا ان نُترجم HENORME بـ « فاطيع » ،
و HAMOUR بـ « حووب » لتأدية فكرة المؤلف .

والخلاصة انه من احقر المنتجات البشرية وأدنسها ، وأشد نجاسة بالف
مرة ، وأكثر فظاظة وضرراً من العمل الجنسي الذي يقوم به الرجل ضد
العقل والمنطق والوجدان .

ان الجوروب هو مرض اوروبا ، وهستيريا الغرب الكبرى .
كان العرب الاقدمون يصلبون الى جانب القتل من اعدائهم جثة
كلب . ولو كان للجوروب شكل بشري لاحببت ان اصلبه بهذه
الطريقة .

●
ولنتفتح هلاين .

اعرف رجلاً يخيّل اليه ، كلما جاء الى فرنسا ، انه ضائع كمن يدخل
خطأ الى متجر كبير لبيع السلع النسائية ، وفيه قطعة من النساء
الثقافات المتشدقات ، وليس فيه احد سواهن ...

انه يسائل نفسه قائلاً : « ما جئت اعمل هنا ؟ »
منذ سنوات كتبت في احدي مخطوطاتي : « شعب انشوي ككشعب
فرنسا ... » ثم قلت في نفسي :

« انتبه ! ربما كان التعميم ضرباً من الاعتباط ، وربما كان هذا الرأي
ظالماً ... » فشطبت تلك العبارة .

ثم قرأت : « في كل فرنسي شيء من المرأة » . لمن هذا القول ؟
لفولتير . وقرأت : « الدور الذي يقوم به الفرنسيون بين الرجال هو
الدور الذي تقوم به النساء في الجنس البشري باسره » . لمن هذا
القول ؟ لغوته . ثم قرأت : « على كل فرنسي تهيمن المرأة . ان الفرنسيين
شعب يسير على طريق الخطاط » . لمن هذا القول ؟ لتولستوي .

... ومن دواعي اسفي اني لم اكن ، منذ عشر سنوات ، واثقاً بنفسي
كما انا الآن .

ولنعد الى موضوعنا .

هذه الدونية المعنوية في المرأة ، وقد اوضحنا بعض ملاحظها ، تقترن بعدد كبير من الدونيات الطبيعية والجسدية . وتحت عينيّ الآن كتاب في الطب يشغل منه تعداد هذه الدونيات الجاف عشرة اسطر . والمرأة تدرك تماماً هذه الحقيقة ، دون ان تكون بحاجة الى ان تتذكر الصناديق التي تخصّص في البواخر لتوضع فيها رقع الحيض ، وقد كتبت عليها : « الثياب والاشياء المزعجة » .

وكيف لا تعترف بانها من جنس شقي ، مسكين ، بائس ، حين ترى انها هي التي تلمس دائماً ، وهي التي تحتاج ، وهي التي تترف بيجانحها طالبة الطعام كفرخ الطير في العش . وان حاجتها الدائمة الى ان 'تحمب' ، وتُجامع ، وتؤخذ بين ذراعي الرجل ، لهي مرض حقيقي عضال . ويا لعار هذا الاستجداء المستمر ، الابدي ، سواء أكان ظاهراً او خفياً ! انه تسول لا ينتهي ابداً ، انما يموّه احياناً بالزينة والفنج والدلال .

وشعور المرأة بدونيتها يسيطر دائماً على سلوكها ويوجّهه . وهذا سبب

١ - « من العوامل ، التي سمحت لي بتكوين رأيي في النفسية الفردية ، ما رأيت من مظاهر الشعور بالدونية ، الواعي او غير الواعي ، لدى جميع النساء وجميع الفتيات الصغيرات بمجرد كونهن اناثاً . ولهذا الواقع تأثير كبير في حياتهن النفسية ، يجعلهن شديدات الميل الى التشربل بمظاهر الذكورة ، وإن تكن هذه المظاهر مستترة في بعض الاحيان وراء ملامح نسائية في الطاهر . » (ادلر) .
- المؤلف .

اما ادلر ، صاحب هذا القول ، فاحمه الكامل الفرد ادلر (١٨٧٠-١٩٣٧) ، وهو عالم نفسي نمساوي ، وضع دراسة في التحليل النفسي اساسها الطباع . (ان الابهار يركب بعضها البعض الآخر ، احياناً ، مفقداً الثيران تقليداً أبه ، اذ لا تجد البقرة في هذا التقليد اقل متعة جنسية .) - المؤلف .

رغبتها في البلع ، والازدراء ، والحفاظ على ما تملك ، وتكديس المكاسب ، والبحث عن الضمانات ، حتى ليخيّل الى من يراقبها انها في خوف دائم من الافتقار الى شيء ما .

انها لا تعطي إلا الولد ، لكنها لا تعطيه إلا بعد ان تأخذ . ويقول علماء النفس ان حياة المرأة الجسدية تقتصر على التوق الدائم الى هذا الأخذ الجسدي . ومن هذا الواقع نشأ هيجانها المجنون في تعلقها بالرجل ، في اصرارها العنيد على التسلل الى حياته ، وفي الحصول على خدماته . فاذا كنتَ في جمهور من الناس ، واحسستَ بان احدهم يدفعك بقوة ، او يتشبث بك ، فقل انها امرأة ، او ولد . فالضعيف الذي يعرف ضعفه يضع قوته كلها في حركة لا تتطلب هذا المقدار من الجهد .

يتعذر علينا ان نفسّر بغير مرصّب الدونيّة ما تعانیه جميع النساء تقريباً من الحاجة الفطرية الى تزييف نفوسهن : تزييف طباعهن بمظاهر الرصانة والحشمة ، تزييف وجوههن بالتبرج والزينة ، تزييف اجسامهن باساليب عديدة لسنا بحاجة الى سردها ، تزييف رائحتهن بالعطور ، تزييف خطوطهن .

ان الاقوياء لا يكذبون ، وليسوا بحاجة الى تمويه الحقيقة . وهم صريحون ، بل وقحون ، لما في نفوسهم من الاحتقار للناس . كان اليونانيون القدامى يقولون : « نحن ارباب الصدق » ، بينما الشعوب الخائفة بطبيعتها ، او المستعبدة بحكم قوة طاغية عليها ، لا تستطيع إلا ان تكذب .

ان حاجة المرأة الى استعراض الاهتمام بها ، وتظاهرها باحوال نفسية مستعارة ، وحرصها على ان تكون دائماً « مرموقة » ، هي وليدة شعورها بما في شخصيتها من نقص وقلة كفاءة .

اما حاجتها الى التظاهر بالتمتع الجنسي فني ، في اغلب الاحيان ، نتيجة شعورها بدونيتها الجسدية .

واخيراً ، ليس من النادر ان تُقدم امرأة غريبة الأطوار على تغيير جنسها بعملية جراحية ، بينما الرجل لا يرضى بتغيير جنسه معها يمكن غريب الأطوار ، ويأبى ان يصير امرأة على الرغم مما في هذا التغيير من الاغراء لأنه يعفيه من الذهاب الى الحرب .



في هذه الحضارة - حضارتنا - تردد المؤلفات الشعبية والاكاديمية ، وتجتر الصحافة ، والسينما ، والراديو ، شعاراً شهيراً هو : « ما تريده المرأة حاصل لا محالة » ، حتى بات الرجال يصدقونه ، وهم الذين عملوا منذ قرون على توطيد سلطان المرأة ، وتقوية دعائمها ، وزيادة سموه . ولولاهم لما كان هذا السلطان يستحق الذكر .

ان هذه الحضارة تُكره الصبي والرجل على الوقوف مشدوهين امام المرأة . وهذه مؤامرة كبيرة حاكها الرأي العام ، وقواعد الاخلاق ، واشياء اخرى عديدة وسطحية تأفة . وعلى هذا الاعتبار نرى المزارع ، وابنته ، وابنه الصغير المسلح بمصا ، يضربون الحصان ليرغموه على الاتصال بالفرس .

ان القوى الاجتماعية كلها تحالفت فأنشأت منظمة ضخمة تتضاءل دونها دعاية المؤسسات التجارية الكبيرة ، ومزاعم الدول الديكتاتورية . وليست الغاية من حشد هذه الامكانيات الجبارة إلا تعزيز مركز المرأة واطهارها بغير حقيقتها .

ولما كانت هذه العبادة الوثنية للمرأة تجرّ الرجل الى التخلي عن حريته واستقلاله وكرامته ، وتؤدي الى افضع انواع الفوضى ، فلا عجب اذا بعثت في النفوس اشمنزازاً شبيهاً بما يخامرنا حين نقرأ اعلان دعاية لنوع قاتل من الخمر .

ولو كانت النساء على شيء من الأنفة ، او على جانب من رهافة الاحساس والذكاء ، لابتعدن عن المناقنين المتزلفين اليهن لغاية في نفوسهم .

ولكان الامر يهون لو استقبلن بالعصا والصنع سمسار البقر المقتنع بوجه
 'مخاضر ، والمنتج السينائي الذي ينتج سخفاً واسفاً كما تثمر شجرة التفاح
 تفاحاً . فالجماعات الحقيرة التي يلجأ اليها بعض الرجال تمس بشرفهم .
 وليت المرأة الابية تقول لهم : « اذهبوا في سبيلكم ، ودعوني من خرافة
 حواء المنتصرة . فلا أمل بالفوز لمن كان له مدافعون من نوعكم . نحن
 النساء بحاجة الى احترام نستحقه بوصفنا بشراً . اما تظرفكم الاخرق
 البغيض فانه يثير فينا القرف ، فنلفظه لفظ النواة » .
 ولكن ، يا للأسف ! لا من يقرف ، ولا من يلفظ النفاق لفظ
 النواة . فأدق النساء شعوراً ، وأرهفن احساساً ، يطلبن المزيد من التفاهة
 البلهاء .



اذا كانت المرأة تبسط سلطانها على الرغم من افتقارها الراهن الى
 الكفاءة ، وعلى الرغم من عجزها حتى في نطاقها الخاص ، وهو عجز
 واضح في قصر نظرها ، وضعف قدرها للامور ، وسخافة اساليبها في
 العمل ، فانما السبب الوحيد في ذلك هو حماقة الرجل .
 وتتجم هذه الحماقة جزئياً عن الشهوة الجنسية . فالرجل ، حين
 يشتهي ، يمدح الشيء المُشْتَهَى ليحصل على رضاه ، ويضعف محاسنه ليبر
 ما في نفسه من الجشع ومن الضعف الذي يذله امام الانثى^١ . لكن
 ليس من المحتم ان تكون الشهوة سبباً لهذه الحماقة ، فالشعوب القديمة ،
 وشعوب الشرق التي لا يشك احد في شهوة رجالها الى الوصال الجنسي ،

١ - وهذا سبب صيحات الغضب التي يطلقها الغريون اليوم في وجه المتكبرين لسيطرة
 المرأة ، وهم من الرجال . فإظهار فساد هذه السيطرة ، واثبات قيامها على اسس
 واهية انما يعني ان الذين يؤمنون بها بلاء . وكل يصعب على هؤلاء السادة ان
 تنفقس بالوات احلامهم وارهامهم ! - المؤلف .

تضع المرأة في المكان الذي يجب ان تحتله .

وتنجم هذه الحماقة ، بنوع خاص ، عن رواسب العقائد التي كانت تطبّق قديماً بشأن المرأة : كالحب المسيحي ، وهو ضرب من التبعصّب للزوج ، والحب الفروسي ، والحب الرومنطقي ، الخ ... (يجب التوسّع في هذا الموضوع) .

ان المرأة تلعب لعبتها ، فلا سبيل الى لومها . فاللوم يجب ان يوجّه الى الرجل لأنه لا يحسن تمثيل دوره ، ولأنه يدعن لما تفرضه عليه مخلفات قرون من عبادة المرأة في الانتاج الادبي ، ولأنه لا يجرؤ على ان يكون تيّر البصيرة ، صادق الفكر والقول ، قاسياً في معاملة المرأة ، متحلياً بالقوة التي تسميها المرأة ، ويسميها المتزلفون لها : « فظاظة او غلاظة » . وهو يفقد جرأته لما في ذهنه من المفهوم الخاطيء للشرف لأنه متأثر بافكار الآخرين ، او لما فيه من الجبن لأنه يخشى نقمة الرأي العام عليه إن هو خالف التقاليد .

والمرأة تعرف هذا الواقع حق المعرفة . وستظل تراوغ ، وتقلّب ، وتتهرب ، وتحاول التمويه والتضليل وذر الرماد في العيون ، ما لم توضع بالقوة امام حقيقتها كما يمثّل المختصر امام الموت .

من واجب الرجل الاوروبي المعاصر ، اذا ، ان يكون « فظاً غليظاً » في الحب ، اذا شاء ان يحيا حياةً يقرها العقل والمنطق . وعليه ان يقطع بجرأة جميع العقد الغوردية^١ التي تعقدها المرأة . وهذه صعوبات ليست

١ - يروى ان فلاحاً يونانياً يدعى غوردبوس اصبح ملكاً لأنه وصل الى المدينة على مركبة بعد ان كانت العرافة قد تلبّأت بان اول من يصل على مركبة سيجلس على العرش ، فكّرّس للاله تلك المركبة التي ساعدته على بلوغ هذا السلطان ، وشد الثير الى العجلة بعقده فنية لم يستطع احد اكتشاف طرفيها لهما ، لان احدى العرافات كانت قد تلبّأت بان من يحل هذه العقدة يصبح امباطوراً على آسيا . ولم يحاول اسكندر المقدوني حلّ هذه العقدة ، بل ضربها

صعبة بالحقيقة . وعليه ان يقاوم ما في نفسه من الميل الى السير على الطرق الموحلة ، او المغمومة التي تدعوه المرأة اليها ، وان يقابل مجزم واستخفاف منظّم كل ما في المرأة من التعقد ، والتسامي المريض . وليقلع عن اختراع واجبات سخيفة يفرضها على نفسه لمصلحة المرأة ، بدافع شهوته الجنسية . فهذه واجبات لا اساس لها من المنطق والحقيقة . وليتخلص من تأثيره المصطنع السطحي بما يسمونه « ظرافة وملاطفة » . وما عليه إلا ان يردد كلما انتابه الضعف : « اذا كان الخلق البشري جديراً بالاحترام ، فمن حق المرأة ان تكون محترمة ، لا اكثر . ولا حق لها بـ « نوع خاص » من الاحترام . ولا مبرر لمعاملة المرأة معاملة تختلف عن معاملة الرجل » .

على الرجل القوي ان يقابل بلامبالاة متصلبة ، حقيقية او مصطنعة ، هذه الغمرة من الزيف الارعن ، ومظاهر السمو الفكري الكاذبة ، ومثالية الخلوات الدافئة ، والحوووب الذي اصبح لياقة اجتماعية ، وهذه التمثيليات الرخيصة المتجددة كل يوم وقد شوّمت الفضيلة الحقيقية .. فالفضيلة تصبح ضرباً من التمثيل في مفهوم المرأة . وعلى الرجل ان يهزأ ويبرح ويغتبط ، حين تعتبره المرأة جلفاً او عرجاً ، لأنه يدرك عندئذ انها عاجزة عن ادراكه .

والخلاصة يجب فضح مساويء الحوووب ، والتحرر من المرأة ما دامت الحاجة اليها غير ضرورية .

وبعد الوصول الى هذا الحد نرى ان المرأة لا تتوقف عن الهيم ، لينا ، وربما جاءتنا بمزيد من القوة والرغبة . وعلى هذا فلا بأس اذا اخذ الرجل المرأة المجدومة بين ذراعيه ، فتمتع بها وجاد عليها بالمتعة ، شريطة

بالسيف فشطرها ، فاحلت . فذعب الله مثلاً في من يعالج المضلات بقوة السلاح .

ان لا تنتقل اليه عدوى الجذام .
ولماذا لا يسخو على المريضة ؟ أليست قطة مسكينة بين القطط
الاخري ؟

لن يخاو الكون ، حيال هذا التصرف الحصيف ، من كافر عتيق
متصلب ينظر اليك باستغراب نظرة تقي ورع يراك تأكل لحماً وزفراً
يوم الجمعة العظيمة .

ولن يخاو الكون من خنزير ذكر يزجر : « ما كان اجمل عهد
الفروسية والحب العذري ! » اما انت فعليك ان تذكر ما في التاريخ من
فروسيات اخري ، كالفروسية اليونانية في حقبة من العصر القديم ،
والفروسية العربية في العصر الجاهلي ، وفروسية الفرس في عصر الشاهنامه^١
او عصر بهارستان^٢ ، والفروسية الالمانية بما فيها من شعائر تقديس
الابطال ، والفروسية اليابانية وأقطابها الساموراي^٣ . وجميع هذه الفروسيات
حقيقية الى ابعد ما في الحقيقة من مدى ، اعني انها موصومة كلها بروح
الفروسية السقيم ، وان المرأة لم تقم في واحدة منها باقل دور^٤ . ولا ننس
ان الله ايضاً لم يقم بدور ما في هذه الفروسيات ، وهذا ما يجدر بنا
ان نلاحظه بعناية .

١ - ملحمة في اخبار ماوك فارس واساطيرهم من بسده التاريخ الى الفتح العربي .
تألف من ٦٠ الف بيت شعر . نظمها الفردوسي المتوفي عام ١٠٢٠ . نقلت الى
العربية والى لغات اخري عديدة .

٢ - معنى هذه اللفظة الفارسية : الربيع ، وهي عنوان كتاب لعبد الرحمن الجامي
تحدث فيه عن الاخلاق ، وسرد سير كبار شعراء الفرس مع مختارات من
شعرهم .

٣ - طبقة المحاربين في النظام الياباني القديم ، قبل عام ١٨٦٨ .

٤ - ولا دور للمرأة ايضاً في الفكر العسكري ، وفكر الكشافة ، والفكر الرياضي ،
وهي من الافكار التي تحتوي في ايماننا على بعض الاثر من شعور الفروسية . - المؤلف .

اما الذين يمزقون ثيابهم حنقاً وينبجحون لدى سماعهم هذه الكلمات :
« انه يكفر... انه ينتهك القديسات » ، فلمهم نقول اننا لا نحقر الحب ،
بل صورته الكاريزماتورية ، وهي الحووب . اننا نجمل حب ذوي القربى ،
والحب النبوي ، والصدقة الحقيقية ، وحق حب « الله » ، وحب الانسانية
كما نراه في بعض النفوس السامية . ونجمل ايضاً الشعور الذي يُعتبر
انعكاساً ضئيلاً للحب ، ولا سبيل الى مقارنته به . ومن انواع هذا الشعور
المودّة العقلية بين التلميذ ومعلمه ، وعطف الرئيس على المرؤوس ،
وعواطف رفقة السلاح او رفقة المغامرات ، واهتمام المربي بتلميذه ، وحق
الاحساس الذي يضعه الرأي العام في مرتبةٍ أخط ، كصدقة الانسان
لكلبه ، او لحصانه . فهذه عواطف انبل بكثير من الحووب ، واجدز
بالاحترام منه .



لا يتحقق التقدم بمساعدة النساء ، بل على الرغم منهن (...)
فالعلم ، والعقل ، والعدالة ، وافضل تراث المجلس البشري مهددة
بوصول المرأة الى السيطرة على العالم .

امبال^١ (في مذكراته)

لا بأس اذا كان ما قلناه في هذا الكتاب قد قيل من قبل مرات
عديدة . فليكن هذا الاعتبار مسيئاً لنا على الصعيد الادبي ، اذا كانت
مفيداً للقضية التي نناضل في سبيلها .
ان الحضارة التي عرضنا بعض ملاحظها ليست حضارة جزيرة الاوهام ،

١ - هنري فريدريك امبال (١٨٢١-١٨٨١) كاتب سويسري ، خلفت مذكرات
تدل على قلق عميق ، وعلى نظرة ناقبة الى خفايا الامور .

بل كانت خلال آلاف السنين حضارة العالم القديم الذي انهال عليه المديح من القرون التالية ، دون ان ينتبه المادحون الى « ان جميع الاعمال العظيمة التي عرفتها العصور القديمة قد تحققت لانها استمدت قوتها من وقوف الرجل الى جانب الرجل . وليس بين النساء واحدة تستطيع الادعاء انها ، بالنسبة الى الرجل ، هدف الحب الاقرب والاعلى ، او انها غاية الحب الوحيدة » . هذا ما قاله نيتشه ^١ .

اننا نعجب بالحكمة الآسيوية ، ونتمدح عظمتها ، إلا اننا ننسى ان

١ - وقال نيتشه اكثر من ذلك :

« ان الخطأ في تحليل المسألة الاساسية القائمة بين الرجل والمرأة ، وتكررات التناقض العميق بينها ، وتجاهل التوتر العدائي الابدئي الذي يفصل احدهما عن الآخر ، وتعليل الأمل باحتمال المساواة بينها في الحقوق ، والتربية ، والطموح ، والواجبات ، هي من الأدلة النموذجية على سخافة التفكير وسقمه . فالرجل العميق التفكير ، والعميق الرغبات ، والعميق حتى في عطفه وسخاء نفسه ، يستطيع احياناً ان يكون شديد القسوة والتصلب (...) ولا يتسنى له ان يكونَ عن المرأة إلا الفكرة التي يكونها عنها الشرقيون (...) ، وعليه ان يستمد وجهة نظره ، في هذا الشأن ، من الفكر الآسيوي العظيم ، ومن تفوق الفريزة الآسيوية ، كما فعل اليونانيون في المصور الخوالي ، وقد كانوا افضل ورثة للآسيويين ، واعظم تلامذة لهم - فهؤلاء اليونانيون ، (...) منذ عصر هوميروس الى عصر بريكليس ، سيروا التقدم ، والثقافة ، وانما القوى الجسدية ، والقسوة على المرأة جنباً الى جنب . وكانت قسوتهم على المرأة تزداد امعاناً في انتهاز الاساليب الشرقية » .

وهذا تقريباً ما قاله نابوليون بوناپرت حرفياً في جزيرة القديسة هيلانة : « نحن ، في الغرب ، افسدنا كل شيء بمعاملة المرأة معاملة حسنة اكثر من اللزوم . اخطأنا خطأ فادحاً اذ جعلناها في مسترانا تقريباً . فشعوب الشرق اشد منا حنكة ، وارسع دراية ، لانها اعتبرت المرأة ملكاً للرجل . والواقع ان الطبيعة جعلت النساء عبيدات رقيقات . وما زعمن انهن سيدات مسيطرات علينا إلا من خلال فساد تفكيرنا وخطل نظرتنا الى الحياة » .

« المكان الذي يشرق منه النور » هو الذي لا تشغل فيه المرأة سوى مهمة جنسية صرف .

روى الجامي قول النبي العربي الكريم : « اذا وقع الرجل في الشك ، فعليه ان يستشير امرأته ليعمل نقيض ما توعد بعمله » .

ليس لنا سوى الفي عام من حضارتنا المختلفة عن الحضارة الشرقية المستمرة منذ آلاف السنين ، ناهيك بان حضارتنا مقتصرة على جزء من العالم ، اي على اوربا والعالم الجديد ...

ربما نظرت الاجيال المقبلة الى عصر سيطرة المرأة الحالي كأنه من عصور التخلف كما ننظر نحن اليوم الى العصور التي كان يسيطر فيها الكاهن . فالحووب سيندر كما اندثرت المسوخ الحيوانية التي عاشت قبل التاريخ . ومفهوم الزواج العصري القائم على مظاهر التسامي ، وعلى التهييج الارعن ، وتكسير رأس الرجل بالواجبات ، سيدو للاجيال المقبلة غريباً مذهلاً كما يبدو مخيفاً في نظرنا اقتران الاخوة باخواتهم ، او البغاء المقدس في احدى الحضارات القديمة .

ومن المحتمل ألا تدوم فترة العافية الانسانية إلا ردهاً من الزمن ، فالحضارات مريعة الزوال بطبيعتها كالانظمة السياسية . وسيبقى عدد الحماقات البشرية كبيراً كما هو الآن ، فاذا قضينا عليها هنا ، نبئت هناك كالدمامل . ولو شئنا تعداد البلاهات المتوالية التي ارتكبها الانسان في

١ - يبدو ان المحارلات التي بُذلت في الاتحاد السوفياتي لوضع شيء من الانسجام بين الزوج والزوجة قد اخفقت كلها . وليس مرد هذا الاخفاق الى ان المحاولات المبذولة مناقضة لسنة الطبيعة ، كما يعتقد المفكرون . فنجاح الدين المسيحي يدل على ان ما هو مناقض لسنة الطبيعة يستطيع النجاح . - المؤلف .

اما الحديث الشريف المشار اليه فقد ورد بالنص التالي : « شاروهم » وخالفهم » ، لا كما نقله المؤلف .

تاريخه لكتبنا لائحة طويلة تثير الدهشة . إلا اننا نقع احياناً ، بين
دملين ، على فترة من الراحة . واذا كانت الحضارة التي لا تسيطر
فيها المرأة فترة من الراحة لا غير ، في مرض الدمامل المصابة به
كمرتنا الارضية ، فمن دواعي فخرنا اننا من الذين اشاروا الى هذا
الواقع .



كان كوستال يقرأ هذه الصفحات ، التي فرغ من كتابتها ،
من فوق كتف امرأة ، امسكت بها بيديها العظمتين ، مقلية
مرفقيها على عظام ردهيها ، وهي مصرية الملامح ، لأن امها مصرية ،
وكبيرة الشبه بالتائيل الاثرية المنتشرة في وادي النيل . كانت من
« الجنس الدنس » ، كما يقولون .

قال لها بسرور :

— أليست هذه هي الحقيقة ؟ اعترفي بان في هذه الكتابة اجادة
وابداعاً .

ثم قبلها ، قبّل حجمتها تحت شعرها . وكانت لهذا الشعر ثلاث
روائح مختلفة : رائحة في قمة الرأس ، ورائحة في الصدغين ، ورائحة في
جوار الجبهة .

واستطرد قائلاً :

— اجل ، انك حقاً من الجنس الدنس !

وبعد سكوت استأنف يقول :

— على كلّ ، اشكرك لأنك لم تسألني بعد : « لماذا تكتب اشياء لا

تؤمن بها ؟ »

اجابت :

— لم اسألك ذلك لأنني لم افكر بانك لا تؤمن بما تكتب . غير اني

اعترف لك بانك اذهمتني .

- اني اؤمن ايماناً مطلقاً بكل ما جاء في هذه الصفحات . وقد
رسخ هذا الايمان في نفسي منذ ان بدأت اختبر الناس . إلا انه يبدو
لي اني استطيع ان أتبني ، بكل صدق واخلاص ، رأياً مناقضاً لهذا
الرأي ، وان ابادر الى العمل في سبيل اظهار عظمة المرأة . ويخيل اليّ
احياناً اني ...

وتوقف عن الكلام برهة ، ثم قال :

- اسمعي ، سأروي لك قصة : كانت في إحدى المدارس صبي
يضطهده احد اساتذته اضطهاداً مستمراً ، ويتحامل عليه تحاملاً بغيضاً .
وذات يوم ، في اواخر السنة المدرسية ، في شهر حزيران ، استدعى
الاستاذ ذلك الصبي ، فجاء هذا مشربب الرأس كالديك ، متوتر الاعصاب
نقمةً ، وقال لاساتذه :

- اعتقد انك ما استدعيتني إلا لتجد عليّ مأخذاً
جديداً .

فأجابه الاستاذ :

- لا ، بل استدعيتك لأني سأغادر المدرسة نهائياً ، ولن يتسنى
لأحدنا ان يرى الآخر بعد اليوم . وأود ان اقول لك اني ما اضطهدتك
إلا لأني احببتك حباً عظيماً . اما الآن فهات يدك لأصافحها ، ثم اذهب
في سبيلك .

فتصافحا ، وافترقا ، وتمت نبوءة الاستاذ ، فما تسنى لاحدهما ان يرى
الآخر بعد ذلك اليوم .

فسألته المرأة الشابة ، وقد عقدت حاجبيها :

- ما معنى هذه الحكاية ؟

- أليس معناها واضحاً ؟

وكانت قد أدارت وجهها اليه وهو جالس خلفها ، فراحت تبحت
في عينيه ككل امرأة حقيقية لتعلم أتستطيع الاطمئنان اليه ، وليس

لتفهم شيئاً آخر .
أما هو فكان إبدأا يتسم لأشياء أخرى .

تمت

قصة « الصبايا »

بأجزائها الأربعة .

Montherlant
Les lépreuses

Texte traduit en arabe
par
Georges MASROUA

MARIANNE / OUEIDAT
Beyrouth

Henry de Montherlant
Les lépreuses

